معـــارف

مـــجلـــة علميـــة محـــكمة تصدر عن جامعـــة آكلي محند أولحاج بالبويرة
قســـم خاص بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

العـــدد 16، جـــوان 2014

معـــارف

مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة آكلي محند أولحاج بالبويرة

قســـم خاص بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

العـــدد 16، جـــوان 2014

السنة: التـــاسعـــة

الرئيس الشرفي
أ.د. كمـال بداري

المدير مسؤول النشر
د. عبد الباقي بدوي

رئيس التحرير
مصطفى سعداوي

أعضـــاء هيئة التحريـــر

د. عفيفة جديدي — د. احمد سليماني
د. سامية فرفـار — أ. صـابـر راشدي
د. علجية دوداح — أ. يـاسين بودريعة

التدقيـــق اللغـــوي

ـ الياس جوادي — ـ مصطفى سعداوي

Tél: 0021326936968 مكتب *Fax: 0021326936968*

موقع الجامعة على الأنترنت: *http://www.uni-bouira.dz*

البريد الالكتروني لرئيس التحرير: *salisada@gmail.com*

صفحة المجلة على الفايسبوك: *www.facebook.com/revue.maaref*

الإيداع القانوني:	1369 - 2006	Depot legal:
ر.د.م.ك:	1112 - 7007	ISSN:

جامعة آكلي محند أولحاج بالبويرة
البويرة - الجزائر

الهيئة الاستشارية الوطنية:

أ.د كمال بداري (البويرة)

ا.د.عمار بن اخروف (البويرة)

أ.د. محمود بوسنة (الجزائر)

أ.د. عمر بوساحة (الجزائر)

أ.د. محمد الأمين بلغيث (الجزائر)

أ.د. الطيب بلعربي (الجزائر)

ا.د.احمد دوقة (الجزائر)

ا.د . علي عزوز (الجزائر)

ا.د. علي براجل (باتنة)

ا.د.عبد المجيد بيرم (الجزائر)

ا.د.عبد الفتاح تقية (الجزائر)

أ.د محمد بومخلوف (الجزائر)

أ.د صفوان عصام صيفي (الجزائر)

أ.د. زوبيدة بلعربي (البليدة)

أ.د. ارزقي شويتام (الجزائر)

د. عبد الباقي بدوي (البويرة)

د. كمال الدين قاري (البويرة)

د. الحاج عيفة (الجزائر)

د محمد برو (المسيلة)

د. عبد النور ارزقي (البويرة)

د. خالد جوادي (المسيلة)

د.كريم مكيري (البويره)

د..صليحة بوماجن (البويرة)

الهيئة الاستشارية الدولية:

أ.د. عبد الله بلحاج (تونس)

ا.د. عبد القادر فيدوج(البحرين)

أ.د. عبد الله بلحاج (تونس)

أ.د احمد بوحسن (المغرب)

أ.د. محمد الحيدروسي (الاردن)

أ.د. محمد الزحيلي (سوريا)

أ.د. محمد ايت المكي (المغرب)

أ.د. إبراهيم حمداوي (المغرب)

لجنــة قراءة العــدد 16:

أ.د. عبد القادر مولاي (جامعة الجزائر 2)،
د. زوبيدة بلعربي (جامعة البليدة)،
د. أعمر ناصر باي (جامعة المسيلة)،
د. سعدية سي محمد (جامعة المسيلة)،
د. عائشة حسيني (جامعة تيارت)،
د. عبد الهادي بووشمة (جامعة سيدي بلعباس)،
د. بوماجن (جامعة البويرة)،
د. رضا بن مقلة (جامعة البويرة)،
د. كمال الدين قاري (جامعة البويرة)،
د. سامية فرفار (جامعة البويرة)،
د. ربيحة رميشي (جامعة البويرة).

قواعد النشر في الـــمجلة:

يشترط في البحوث والمقالات التي تنشر في مجلة معارف ما يأتي:

1- أن يكون البحث مبتكرا أو أصيلا، ويشكل إضافة نوعية في اختصاصه.
2- أن تتوفر فيه الأصالة والعمق وصحة الأسلوب.
3- ألا يكون قد سبق نشره.
4- أن يلتزم بالقيم الإنسانية وبمعايير البحث العلمي وبخاصة ما يلي:
أ- الابتعاد عن التجريح والإسفاف في القول، والتعريض بالآخرين.
ب- مراعاة البنية المنهجية.
ج- ترقيم الهوامش والإحالات تكون إما أسفل النص في نفس الصفحة، أو في آخر المقال، مستقلة عن قائمة المصادر والمراجع.
د- وضع قائمة بمصادر البحث ومراجعه.
5- أن تكون مكملات البحث من خرائط أو جداول في صورتها الأصلية.
6- أن يكون البحث المترجم مصحوباً بأصله المترجم عنه.
7- أن يقدم لإدارة المجلة مطبوعاً على الورق ومخزناً في قرص مدمج **CD** أو في وسيلة من وسائل استقباله في جهاز الحاسوب.
8- أن تقدم سيرة ذاتية للباحث في ورقة مستقلة عن البحث.
9- عدد كلمات البحوث النظرية بين 3000 و5000 كلمة حسب المقاييس الدولية، أي (بين10ـــ20 صفحة بمعدل300 كلمة /صفحة) والكتابة تكون بخط: **traditionnel arabic-14**للغة العربية، وبخط: **times new roman-12** بالنسبة للغة الاجنبية.
10- ترفق بالبحث ملخصات باللغات الثلاث (العربية والفرنسية والانجليزية) بما لا يتجاوز الصفحة الواحدة لكل لغة.

مع ملاحظة أن البحوث والمقالات:

ـــ تخضع للتقويم العلمي واللغوي ويعلم الباحث بالنتيجة، كما أنها تخزن في أرشيف المجلة، ولا ترجع لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
ـــ وهي تعبر عن آراء كتابها وحدهم ، فهم المسؤولون عن صحة المعلومات وأصالتها، ولا تتحمل الإدارة أي مسؤولية في ذلك.

محتـــويـــــات العـــــــدد

كلمة العدد :

كلمة التحرير:

البحوث والدراسات:

مساعي هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى للتحالف مع المغول في حرب المسلمين (1244-1255م)	مصطفى بن الحسين	
الجهود الدبلوماسية البورقيبية لدعم الثـــورة الجزائريـــة (1954-1962)	السعيد جلاوي	
عبد الرحمن بدوي بين الفلسفة والسياسة	أحمد سليماني	
الدين والنظرية النقدية. قراءة في مواقف إرنست بلوخ وإيريك فروم وماكس هوركهايمر حول الدين	عبد النور نابت	
النظرية السوسيولوجية في علم الاجتماع: خصـــائص وأنماط وواقع.	لويزة سي محمد	
دور المؤسسات الاجتماعية في ترسيخ ثقافة بيئية تجـــاه نظافة المحيط الحضري.	صبرينة بايود	
الهجرة غير الشرعية: تفسيراتها، ميزاتها، دوافعها	موسى معطاوي	
واقع الفساد في المؤسسة العمومية الصناعية الجزائرية بين التجديد الاقتصادي والصراع الاجتمـــاعي. دراســـة ميدانية لمؤسسة الاسمنت رايس حميدو- الجزائر العاصمة	أمال قواجلية	
المتاحف الجزائرية بين ثقافة الاستهلاك وتذبذب الزوار	غنية حاج كولة	
نحو استراتيجية عربية لمواجهة مشكل عمل الأطفال	صباح تواتي	

كلمة التحرير

بقلـــم مصطفـــى سعـــداوي

رئيـــــس التحريـــــر

بنايات منفصلة لكن على اساس مشترك

إطلالة جديدة، وشعاع آخر ينبعث من مجلة "معارف" في عددها السادس عشر، وهي ترنو –كما دَيْدنها أبدًا–إلى تبديد ما وسع من الحوالك، وتنوير ما أمكن من موضوعات طريفة في قطاعات متنوعة.

فمن رصد "مساعي ملك أرمينيا للتحالف مع المغول ضد المسلمين" في منتصف القرن 13 ميلادي، ينقلنا هذا العدد الى النصف الثاني من القرن العشرين مسلطا الأضواء على جهود النظام البورقيبي في دعم الثورة الجزائرية، فإلى رحلة مثيرة مع الفيلسوف عبد الرحمان بدوي في "أدغال السياسة"، لينتهي الى فحص دقيق ومعالجة رصينة لعدد من المشكلات والتحديات الاجتماعية: كرهان ترسيخ ثقافة بيئية ودور المؤسسات الاجتماعية في ذلك، ومعضلة الهجرة غير الشرعية، وواقع الفساد في المؤسسة العمومية الصناعية الجزائرية، والتحديات التي تواجه المتاحف الجزائرية، وأخيرا مشكلة عمالة الأطفال. وهذا بعد وقفتيْن نظريتيْن متأنيتيْن: إحداهما حاولت قراءة مواقف الفلاسفة إرنست بلوخ وإيريك فروم وماكس هوركهايمر حول الدين، والأخرى سعت الى الاحاطة بـــ "النظرية السوسيولوجية في علم الاجتماع".

وقد تبدو هذه الدراسات والأبحاث لغير المطلع وكأنها بناياتٌ منفصلٌ بعضها عن بعض، إلا أنها في الواقع تنهض على أساس مشترك، وهو دراسة الواقع الانساني المعقد من منظورات متعددة. وهذه هي ميزة مجلة "معارف" التي لها أن تعتز بها وتعض عليها بالنواجذ، وكيف لا؟ والتطورات الأخيرة التي تشهدها المنهجيات الإنسانية تضغط من أجل فتح الحدود بين الاختصاصات وتحطيم الجدران التي شيدها كل علم حول نفسه، وإقامة سوق حرة لتبادل الأفكار وأدوات البحث وحتى الباحثين. إذ أمسى مما لا شك فيه، أنه لا وجود لعلم إنساني (أو اجتماعي) يكفي نفسه بنفسه، وعليه فتعاونها فيما بينها أمر لا مندوحة عنه، وهو يفتح أمامها جميعا أفاق

واعدة ويوفر لها مكاسب متبادلة؛ أقلها تجديد موضوعاتها وإثراء مصادرها وتطوير آليات وأدوات البحث فيها.

بيد أن نجاح هذا التعاون مشروط بالتخلي عن "النزعة الامبريالية" التي تجعل بعض التخصصات تسعى الى فرض نفسها كمذهب عام لتفسير مجمل الظواهر الانسانية، وهو ما يزكيه فشل العديد من المشاريع من هذا الطراز: كـــ "الماركسية" وعلم "الاجتماع الدوركايمي" وحتى "التاريخ البروديلي" الذي تحول الى "تاريخ مفتت" بتعبير فرانسوا دوس. وهذه المشاريع في حقيقتها أصداء للنزعة "الاختزالية" Réductionnisme في علوم الطبيعة التي تحاول تفسير الكل في إطار الجزء، على غرار حلم علماء الفزياء على رأسهم اينشتاين في الوصول الى "نظرية المجال الموحّد" التي ستوفر تفسيرات لكل شيء تقريبا. وإذا كان هكذا حلم في العلوم الطبيعية أمرا مشروعا بحكم طبيعة موضوعها المتمثل في المحسوسات التي تنحو نحو التحلل والتفكك، فإن المعقولات موضوع الانسانيات من أهم ميزاتها النزوع الى التوليف والتركيب، وهو ما يجعل من "المنظور الكلاني" Holisme، الذي يفسر الجزء في نطاق الكل، أكثر تماهيا مع طبيعتها.

ويتضح ذلك أكثر، إذا عرفنا أن الواقع الانساني يتميز بأبعاد عديدة، بينما كل علم انساني يعالج تجريدا واحدا لهذا الواقع العيني؛ أي انه اسهام محدد لإدراك جانب واحد لقضايا متعددة الجوانب. ومن ثم فمن الخطأ بل والخطر -كما يقول مارك بلوخ- أن "يعتقد كل باعث للنور Projecteur أنه يرى وحده كل شيء". فليس هناك أي فعل إنساني يمكن فهمه —مثلا- في ضوء تعبيرات سيكولوجية بحتة، دون الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية المحيطة به، ووضعه في إطاره التاريخي المميز بوصفه حدث لاحق لأحداث أخرى اثرت عليه بالتراكم...الخ. وهو ما يؤشر على مسيس الحاجة الى مدخل علمي متكامل يكون نقطة تماس منظورات عديدة تاريخية واجتماعية وسيكولوجية... سيما وأن الواقع الانساني أغنى بكثير من أي تجريد أو تجسيد له من جانبنا، وهو كلما تضافرت المنظورات بدا أغنى مثلما تعطي العينان معا رؤية مزدوجة أشمل.

لكن كما أن الجماعة ليست مجموع أفرادها، وكتلة نواة الذرة ليست مساوية لمجموع كتل مكوناتها (أي البروتون والنيترون)، كذلك المدخل المتكامل أو المنظور المتعدد الابعاد ليس تجميعا ميكانيكيا لمداخل مختلفة أو ترصيفا متتاليا لمنظورات متنوعة، فهذا الترصيف أو التجميع غير

كافٍ؛ إذ قد يُكسبنا "معرفة" بالموضوع المعني من حيث أنه يفكك الواقع ويحلله، لكنه لا يورث "فهما" للمشكلة الانسانية، هذا الفهم الذي لا يمكن أن ينبثق إلا عن عملية توليف ناجحة.

وهنا لا يجب أن يفهم أن مجلة "معارف" تدعي التأسيس لهكذا مشروع طموح، وإنما تواجدها عند نقطة تقاطع العديد من محاور البحث الانساني والاجتماعي، يسمح بالاعتقاد بأنها مؤهلة -على الأقل موضوعيا- لتكون عتبة لقاح فكري بين مختلف التخصصات الانسانية والاجتماعية، وحسبنا أن نردد مع ذلك الأعرابي الذي اقحم نفسه في زمرة فحول الشعراء:

ولما رأيت الناس قد شدوا رحالهم الى بحرك الطامي أتيت بجرتي

وفي الأخير، لا يسعنا إلا أن نجدد الشكر لكل المساهمين في هذا العدد وفي الأعداد السابقة ونؤكد لهم ولأقرانهم أن صدر مجلة "معارف" وصفحاتها ستبقى-إن شاء الله- دوما مفتوحة أمامهم، فهَلُمَّ إلى مزيد من التعاون والعطاء.

مساعي هيثوم الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، لحلف المغول في حرب المسلمين، في الفترة 1244-1255م.

مصطفى بن حُسين

جامعة الجزائر

الملخص : شكّل المشرق الإسلامي منذ أن وطأته أقدام الصليبيين، بؤرة توتّر حقيقي ومنطقة صدام مستمر بين حضارتين مختلفتين، شرقية إسلاميّة وغربيّة مسيحيّة. وفي خضمّ هذا الصراع، ظهرت القوّة المغوليّة الفتيّة، فأوجس كلا المعسكرين خيفة منها. وهذا دفع البابويّة والإمارات المسيحيّة، في أوربا والمشرق، إلى السعي للتحالف معها (القوة المغولية)، علّها تُثنيها عن غزو الأراضي المسيحيّة وتوجيه ضربة موحدة وموجعة للعالم الإسلامي. بيد أنّ تلك المساعي الحثيثة باءت بالفشل، لكن مع الاصرار عليها سرعان ما لاحت في الأفق بوادر الانفراج، وذلك عندما تمكن الملك الأرميني هيثوم الأوّل من استعطاف أباطرة المغول بتقديم ولاء طاعة لهم، الأمر الذي توج في النهاية بتحالف تاريخي بين قوتين مختلفتين أفضى الى تدمير معقل الخلافة العباسيّة.

الكلمات المفتاحية :هيثوم الأوّل، أرمينيا الصغرى، المغول، منكوخان.

Résumé : Les croisades avaient constitués durant le moyen âge, un long conflit qui n'en finissait pas, entre deux rivaux tout à fais distincts. Néanmoins, au début du 13eme siècle, apparut une nouvelle puissance assez effrayante et destructrice au point de la comparer aux invasions germaniques ou aux fameux destructeurs Gog et Magogues. En vue d'empêcher l'avancée de cette vague ravageuse au dépend des territoires chrétiens, mais aussi l'orienter contre et le Khalifa de Baghdâd et les puissances musulmans, il était primordial pour les croisés d'envisager une alliance avec cette puissance émergeante. Cependant, les premiers pourparlers furent un véritable fiasco, toutefois une lueur d'espoir apparut en la démarche du roi de la Petite Arménie, Hethoum I, qui réussit, par le biais de maintes voltiges ainsi qu'en se proclamant à leur service, à persuader le grand khan mongol par une alliance qui aboutie en fin de compte à la chute de Baghdâd et le meurtre du Khalifa.

Mots clés : Hethoum I, Petite Arménie, Mongol, Alliance, Mongka Khan.

Abstract : The Crusades had made, in the East during the Middle Ages, long Journey that never stopped between two rivals just do separate. But at the beginning of the 13th century appeared a new power frightening and destructive to the point of comparing the Germanic

invasions or destructive famous Gog and Magogues. That said, and to prevent the spread of this devastating wave at the expense of the Crusaders in the East or in the West European territories, it was essential to consider an alliance with them to disengage their mission and redirect their efforts together to wards the Khalifa of Baghdad and other Muslim powers, sworn enemies of the papacy, the talks were a disaster. Any time a glimmer of hope appeared in the person of the King of Lesser Armenia, Hethoum I, who succeeded by several acrobatics andproclaiming their services persuaded the great Mongol khan such an alliance led ultimately to the fall of Baghdad and the murder of Khalifa.

Keywords : Hethoum I, Lesser Armenia, Mongol,Alliance, Mongka Khan.

مـــقـــدّمـــة:

كان ظهور المغول[1] على الساحة الدوليّة منذ أوائل القرن الثالث عشر المـــيلادي مُنعطفًـــا خطيرًا على مسيرة الحضارة شرقًا وغربًا لهول الخراب والفوضى التي كانت جيوشـــهم البدائيّـــة تُحدثُها عبر الأقاليم والدول التي تسقط في قبضتها، ما جعل البشريّة المعاصـــرة لهـــم تُشـــبّههم بالجرمان الذين أسقطوا الحضارة الرومانيّة القديمة، بينما وصفهم آخرون بيأجوج ومأجوج ذلك العصر، لهول الدمار والفظائع التي ألفوا ارتكابها عبر مسيرهم، وكأنّ غايتهم إفناء النسل البشري.

أمّا مملكة الأرمن[2] بقليقية فقد أدركت مَدى الحرج الذي هي فيه بحكم موقعهـــا في فـــم كمّاشة، بين خطر الزحف المغولي عليها المنتظر قريبا، وخطر القوات الإسلاميّة المحيطة بها، فلجأت إلى أخفّ الضّررين بالمبادرة إلى إعلان الولاء للمغول وعقد تحالف معهم، لصرف أطماعهم عن مملكتهم إلى أعدائهم القدامى المُمثلين في جيرانهم المسلمين.

مشروع التحالف بين الأرمن والمغول :

كان أتراك قونيا، في الأناضول السلجوقي، قد استولواْ على الجهة الغربيّة لأرمينيا، فبـــدأ هيثـــوم الأوّل**Hethoum I** ملـــك أرمينـــــيا الصغـــــرى (623-669هـ/1226-1269م)(1) في استرجاعها شيئا فشيئا، ولكنّ سلاطين المماليك في مصر ظهروا بعد انتصاراتهم على الصليبيّين كخصوم عنيدين لأرمينيا الجديدة ويُحسب لهم ألف حساب[(2)]، ومن جانب آخر

كان المغول يظهرون عداءً كبيرا للمسلمين أكثر منه للمسيحيّين[3]. ولّما لمس المسيحيّون في آسيا الصغرى سياسة التسامح التي درج عليها المغول إزاءهم بصفة خاصّة، حاولوا التقرب منهم واجتذابهم إلى صفوفهم لتخليص بيت المقدس خاصّة، وبلاد الشّام عامّة من أيدي المسلمين.

أمّا مملكة الأرمن بقليقية فكانت تُدرك مَدى خطر الزحف المغولي في المنطقة، إذ عاينت هزيمة الجيش السّلجوقي أمام ضربات القوات المغوليّة سنة 641هـ/1243م[4]، فشعر الملك هيثوم الأوّل أنّ الدور سيكون عليه، ولهذا سعى جاهدا إلى كسب ودّ المغول وصرفهم عن مملكته، فأرسل سنة 642هـ/1244م إلى القائد المغولي، "*باطو*"، المرابط على نهر الفولجا،كتابا يفيض بالولاء والاحترام[5]، فإذا كان نصارى الغرب الأوربي وملوكهم يرفضون التعاون مع خان المغول في العاصمة المغولية *قراقورم*، والذي كان يُدعى *منكو*، على أساس التبعية فهناك من الملوك الآخرين من يقبل بذلك، ويعتبره نوعا من الواقع، ومنهم الملك الأرميني هيثوم الأوّل.

لقد فكر هيثوم في التحالف مع المغول على أساس التبعية التي يُريدها *منكوخان*، لعلمه بمدى قوة المغول، وهم الذين دُمرت بلاده من قبل على أيديهم في عهد أسلافه تتابعًا، *جنكيزخان* ثم *أوكتاي خان*، كما أنه متيقّن أن دولته ضعيفة لا ترقى إلى مستوى دولة المغول، ويعلم أيضا أنه محصور بين قوات المغول من جهة، وقوات المسلمين من جهة أخرى، وكان العداء قديما بينه وبين المسلمين، بينما كان يتحرق شوقا لغزو بلاد الإسلام وإسقاط الخلافة العباسية، وإن لم يقبل الآن بالتبعية للمغول فسيُرغم عليها غدا، وحينها سيفقد ملكه وهو صاغر، فكل هذا دفع هيثوم للاتصال بالمغول والذهاب بنفسه لمقابلة *منكوخان* في، *قراقورم*، العاصمة المغولية بمنغوليا[6].

1- أولى بعثات هيثوم الأوّل إلى المغول :

لاحظ هيثوم الأوّل أنّ المغول تغلّبوا على سلطان الترك، وأنّهم يقتربون نحوه شيئًا فشيئًا، فقرّر الخضوع لقوّتهم، وأرسل إليهم في بداية ربيع عام 642هـ/1244م سفراء محمّلين بالهدايا، فوصل رسل هيثوم الأوّل إلى أمير أرميني، يدعى جلال، في حصن *خاتشين* ببلاد *أرتساخ* Artsakh[7]، فقدّمهم هذا الأخير إلى *بايجو نويان* Batchou noyan[8] وإلى *إيلثينا* Ailthina أو Elthina زوجة *تشارمقان* Tcharmaghan،وإلى القوّاد الآخرين.

طلب المغول من الرسل أن يُسلّموا أوّلاً أم وزوجة وبنت سلطان قونيا[9]، فرجع هؤلاء الرسل بهذه الرسالة مصحوبين بسفراء مغول[10].

ولّما علم هيثوم الأوّل بالخبر حزن كثيرًا، واضطرّ إلى تنفيذ الأمر، فسلّم الطلب مصحوبة بهدايا كثيرة للبعثة المغوليّة والأمير المغولي، وأردفها بسفارة أخرى استقبلها *بايجو نويان* بحفاوة ثمّ أبرم التحالف مع هيثوم الأوّل، وسلّم وثيقة العهد إلى البعثة التي قضت عنده فترة الشتاء ثمّ أرسلها في الربيع الثاني إلى *هيثوم*[11].

2- بعثة سمباد Sembad من طرف هيثوم الأوّل إلى المغول :

تفطّن هيثوم الأوّل ملك أرمينيا لما غفل عنه من قبل أحد رسل الملك الفرنسي لويس التاسع (623-669هـ/1226-1270م) إلى المغول، وكان يدعى *روبروك*، فعلم أهمّية التدخُّل المغولي في الصراع بين المسلمين والمسيحيّين، فقبل الدخول في ولاء المغول وطاعتهم للظفر بحمايتهم، وهمّ بالسفر بنفسه إليهم، ولكنّ أهل الرأي من حاشيته نصحوه بالتريُّث، فأرسل أخاه *سمباد* في سنة 1247م إلى منغوليا حاملاً معه الهدايا الثمينة إلى الخان في قراقورم[12] فحضر *القوريلتاي*[13] الذي قرّر انتخاب *كيوك*، خانًا عظيمًا للمغول، خلفا *لأوكتاي خان*[14].

استُقبل *سمباد* في قراقورم بحفاوة، وناقش كل القضايا التي أُرسل من أجلها[15]، ولّما علم الخان منه استعداد هيثوم ليكون تابعًا له، وعد بمساعدة الأرمن لاسترداد ما انتزعه السلاجقة من مدُن[16]، وسلّمه وثيقة إلى الملك هيثوم تضمن له الحماية والصداقة[17].

كما كتب سمباد رسالة،في العام الموالي، من سمرقند إلى صهره *هنري* الأوّل Henri I ملك قبرص، الذي كان زوجًا *لستيفاني* Stephanie، أخت الملك هيثوم الأوّل، يُبيّن له فيها أهمّية الجالية المسيحية على المذهب النسطوري في بلاط وإمبراطورية المغول إذ ورد في رسالته العبارة التالية: "لقد وجدنا الكثير من المسيحيّين في بلاد الشرق، والكثير من الكنائس العالية والجميلة... جاء مسيحيّي الشرق إلى الخان *كيوك* (1247-1249م) فاستقبلهم بحفاوة، وأعطاهم الأمان، ثُمّ أمر أن لا يُؤذى المسيحيّون أينما كانوا، سواء بالقول أو الفعل..."[18].

مكث سمباد أربعة سنوات في منغوليا[19]، ثمّ رجع إلى أرمينيا حاملا تقاليد من الخان الكبير يكفل سلامة ممتلكات هيثوم ووحدتها، غير أنّ موت *كيوك خان* أوقف كل إجراء مباشر[20]. وفي طريق رجوعه اتصل *سمباد* بالقائد المغولي *بايجو نويان* Batchou noyan وسلّمه أمر الخان *كيوك*، فلم يكن في وسعه إلاّ تلبية رغبته ثمّ أرسله مكرّمًا[21].

وبعد وفاة *كيوك خان* خلفه على العرش ابنه *منكو خان*، الذي توثّقت علاقته *بسمباد* بعد أن أهداه هذا الأخير جوهرة ثمينة، وعلى إثرها صار *سمباد* من المقرّبين لدى الخان العظيم، ثمّ رجع *سمباد* من البلاط المغولي سنة 1251م، برسالة ليُقدّمها إلى *بايجو نويان* من أجل تسليم مناطق في بلاد *سيوني لسمباد*[22].

3- قدوم الملك هيثوم الأوّل بنفسه على المغول:

لّما علم الملك الأرميني *هيثوم* الأوّل أنّ المغول اقتربوا جدًا من بلاده، وسمع من أخيه سمباد ما جرى من أحداث في بلاد المغول[23]، قرّر سنة 1252م إبرام اتّفاق مع الخان الجديد، وأرسل إلى *باطو*، أمير شمال أرمينيا، رسالة كُلّف بحملها كاهنا اسمه *باسيل* Basil، يُبيّنُ له فيها استعداده لإقامة علاقات طيّبة مبنيّة على حُسن الجوار والتفاهم، فوافقه على ذلك وطلب منه القدوم إليه، إلاّ أنّ *هيثوم* تردّد طويلاً قبل الامتثال لطلبه. ولّما علم أنّ المغول وصلوا إلى أرمينيا وجورجيا، وأنّهم يضطهدون هذه البلاد، قرّر التوجُّه إلى الخان العظيم، وترك المملكة تحت إدارة أبيه *قسطنطين* Constantin وابنه *لوفان* Levan[24].

أسرع الملك *هيثوم* إلى *قراقورم*، في نفس السنة التي عاد فيها رسول *لويس* التاسع منها سنة 1254م، ليعرض ولاءه وصداقته، فخرج من *قيليقيا* مُتخفيًا، خوفًا من غدر جيرانه الأتراك السلاجقة الذين كانوا تحت حُكم السلطان علاء الدين[25].

بعدما اجتاز *هيثوم* الأوّل بلاد *قونيا*، قابل القائد المغولي، *بايجو نويان* Batchou، الذي هزم سلطان الترك[26]، فعرّف بنفسه وصارحه بالذهاب لمقابلة خان المغول، فزوّده بجُند يُرافقونه[27]، ثمّ اجتاز القوقاز عن طريق *دربند* Derbend ومرّ بالفولجا السفلى La Basse Volga أين اتصل *بباطو* وابنه *سرتق* Sartaq[28]، ثمّ اتخذ الخط الذي مرّ به *روبروك*، سفير الملك الفرنسي، قبل ذلك بشهور عبر الألتاي، ليصل إلى بلاط *منكو خان* قرب *قراقورم*[29].

قدّم هيثوم نفسه للخان منكو على أنّه تابعًا له، فصُرّ الخان وأقام له حفل استقبال رسمي في يوم 13 سبتمبر 1254م، ومنحه وثيقة تكفل السلامة لشخصه ومملكته، وجرت معاملته ككبير مستشاري الخان المسيحيّين في كلّ ما يتعلّق بأمور غرب آسيا، ووعده بإعفاء الكنائس والأديرة المسيحيّة من الضرائب[30]، فقد ذكر المؤرّخ كيراكوس Guiragos de Kantzag أنّ منكو

خان أعطى الملك هيثوم الأوّل وثيقة مختومة بخاتمه، تأمر المغول بعدم التعرُّض للملك الأرميني وممتلكاته، كما سلّمه وثيقة أخرى تحرّر جميع الكنائس من قيود المغول[31].

وبعد بضعة أيّام قدَّم الملك هيثوم سبعة مطالب للخان هي:

1- أن يتحوّل الخان منكو وكل من معه إلى المسيحيّة، وأن يُعَمَّدَوا كافّةً،

2- أن يكون السلم الدّائم بين المغول والمسيحيّين،

3- أن يكون الرهبان المسيحيُّون وكلّ كنائسهم الموجودة على الأراضي التي احتلّها المغول أو يستوْلونَ عليها مستقبلا، حرّة وآمنة.

4- أن يقدّم الخان للمسيحيّين العوْن اللاّزم، لتحرير الأرض المقدّسة من أيدي المسلمين، ويسلّمها للمسيحيّين،

5-أن يُصدر الخان أمره لمغول تركيا لتدمير بغداد، وقتل الخليفة العبّاسي حامي العقيدة الخاطئة التي جاء بهامحمّد"،

6- أن يأمر المغول القريبين من أرمينيا، بعون الملك هيثوم متى طلب منهم ذلك،

7- أن تُردّ كلّ الأراضي الأرمينيّة التي انتزعها المغول من المسلمين، إلى الملك هيثوم الأوّل، وأن يترك المغول للملك هيثوم إدارة الأراضي التي يُمكنه انتزاعها من المسلمين[32].

وبعد ما سمع منكوخان طلبات الملك هيثوم، جمع بلاطه واستدعى ملك أرمينيا، وأمام حاشيته وأمرائه كان جوابه: "بما أنّ ملك أرمينيا جاء إلينا بمحض إرادته من تلك الأرض البعيدة حتى مملكتنا فإنه أجدر بنا أن نحقّق كلّ رغباته"[33].

كانت جهود هيثوم الأوّل خلال المدّة التي قضاها في *قراقورم* منصرفة كليّة إلى إقناع الخان للقيام بحملة مشتركة ضدّ المسلمين، وألحّ في طلبه حتى وافق الخان على الفكرة، فكلّف أخاه *هولاكوخان* (1256-1265م) بن *تولي* بن *جنكيزخان* بغزو بغداد[34]، كما أنّه تعهّد بإعادة بيت المقدس إلى المسيحيّين إذا ما تعاونوا فعلاً مع المغول تعاونًا كاملاً[35]، ثمّ رجع هيثوم إلى بلاده مبتهجًا[36].

وهكذا عاد ملك أرمينيا "هيثوم الأول" مُنتشيا بمهارته، فخورا بعلاقته مع خان المغول، مُعظَما في شعبه، لأنه استطاع بسياسته التي يُسمونها حكيمة أن يُجنب مملكته وشعبه ويلات

الحروب، فقد غادر هيثوم الأوّل *قراقورم* في يوم 01 نوفمبر 1254م، ثم وصل *قيليقيا* في جويليه 1255م [37].

وكان من رغبات *منكوخان* أيضا أن يعقد تحالفات مع أُمراء الممالك الصليبية في الشام، مثل مملكة أنطاكيا و طرابلس وعكا، وذلك لشغل المسلمين في منطقة الشام فلا يُدافعون عن الخلافة العباسية إذا هوجمت. ولتشجيع هؤلاء الأمراء فقد أوصل لهم خان المغول طلب التحالف مع صديقه الجديد ملك أرمينيا الصغرى، والذي بدأ يقوم بدور السفير المغولي في هذه المنطقة، فمكث في أرمينيا الكبرى عند عودته، مُدة طويلة، استقبل فيها العديد من الأمراء المحلّيّين والأساقفة ورؤساء الأديرة، وحاول ضمّهم إلى فكرة التحالف مع المغول، ولزيادة التشجيع، فإن ملك المغول وعد الأُمراء الصليبيين في الشام بأن يُعطيهم بيت المقدس هدية لهم في حال اتفاقهم معه[38]، لكن هيثوم لم يُفلح إلاّ مع أمير أنطاكية، *بوهيموند* السادس Bohemond VI (1251-1268م)[39].

وعلى هذا فإنّ الملك هيثوم الأوّل هو أوّل ملك مسيحي يصل إلى بلاط المغول في *قراقورم* من تلقاء نفسه، وكان بهذا التصرُّف يبتغي التحالف معهم للسيطرة على الأراضي المقدّسة وانتزاعها من المسلمين والقضاء على الخلافة العبّاسيّة في بغداد.

وقد قام هيثوم بزيارات متعدّدة إلى بلاط المغول، وقدّم مساعداته العسكريّة لهم في آسيا الصغرى وبلاد الشام، واسترجع من خلالها بعض القلاع التي كانت سلاجقة الروم قد استولوا عليها، وهي القلاع التي كانت تابعة للأمير الأرميني *كوخ فاسيل* Kogh Vasil[40]، كما تغلّب هيثوم على سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى *قلج أرسلان* (657-666هـ/1258-1267م)، وعلى التُركمان الذين استقرّوا على حدود *قيليقيا* عام 658هـ/1259م وقَتل قائدهم *قرمان* Karaman.

وخلاصة القول أنّ سفارة هيثوم إلى المغول أحدثت تغييرًا إيجابيًا لصالح المسيحيّين والصليبيّين معًا من خلال هذا التحالف، لم تحرزها أيّ بعثة بابويّة أو صليبيّة أُخرى[41]. هذا التحالف سوف يستمرُّ لمدّة ثلاثة أرباع القرن، أمّا وعد *منكوخان* في شأن العراق والخليفة العبّاسي فقد بدأ تحقيقه بعد سنة على إثر حملة *هولاكو* على آسيا التي نتج عنها تدمير بغداد سنة 657هـ/1258م، ثُمّ الهجوم على حلب ودمشق، والوصول إلى أبواب مصر في عام 659هـ/1260م (42)، وحينما غزا *هولاكو* بلاد الشام، جاءه بطريق أرمينيا ليُباركه، فعبّر له

هولاكو عن تقديره له، وقد شارك هيثوم الأوّل في هذه الحملات وكان له الدور العظيم في حماية المسيحيّين[43].

ومن جانب آخر، نستخلص من هذه المرحلة، أنّ كلاًّ من الطرفين، المغولي والصليبي، كان حريصًا على استغلال الآخر لمصلحته الخاصة، وما سفارة المغول إلاّ استعدادٌ دبلوماسيٌّ أرادوا من خلاله استكمال استعدادهم الحربي لتوسيع رقعة أملاكهم على حساب بغداد عاصمة الخلافة العبّاسيّة، الشيء الذي أكّد اجتياحهم لها، ثُمّ الزحف على باقي العالم الإسلامي. وفي المقابل كانت أوربّا وبباواواتها وملوكها وكذا القوى الصليبيّة الأخرى تهدف إلى جعل المغول قوّة المسيحيّة بالشرق لتطويق المسلمين من الشرق والغرب خدمة للمشروع الصليبي.

خـــاتـــمـــة :

مهما يكن من أمر، وبغض النظر عن النتائج الوخيمة المترتبة على العالم الإسلامي والتي تمثلت في إسقاط الخلافة في بغداد وتدمير مدينتها وقتل خليفتها، فإنّ الملك الأرميني ظهر في تلك الفترة الحرجة كعبقريّة فذّة ومنقذ للعالم المسيحي شرقا وغربا، بما أنّه تمكّن أوّلا من إبعاد الخطر المغولي عن بلاده، ولو لفترة، وحماية المسيحيين من بطش المغول ردحا من الزمن، فقد تمتّع المسيحيون الشرقيون في ظل حكمهم بالحماية والعطف، وزال خطرهم جزئيا عن أوربا.

وفعلا لم يتوانى هيثوم الأوّل في بذل النفس والنفيس من أجل إرضاء أسياده الجدد، وغض الطرف عن كل ما ارتكبوه من فضائع ضد المسيحيين في بولندا وغيرها، وذلك سعيا منه لإبعاد خطرهم.

ومن ناحية أخرى يمكن القول بأنّ مصطلح تحالف غير وارد في القاموس المغولي، في هذه الفترة، في تعاملهم مع الأرمن، ذلك أنّ العلاقة هي علاقة سيّد بتابع له، وأنّ الجيوش المغولية الجرّارة لم تكن بحاجة إلى جنود الأرمن إلا في حالة استعمالهم في الصفوف الأماميّة أثناء المعارك، أو كأدلّة للمسالك بحكم أنّهم أهل المنطقة وأعرف بخباياها.

الـهـوامـش :

– كان هيثوم الأوّل ابنـا لقسـطنطين Constantin مـن عائلـة الروبينيـان Les Roupeniens، وصل إلى عرش أرمينيا الصغرى بالزواج من زابيل Zabel (أو إيزابيـل ou Isabel) بنـت الملـك ليـون الثاني Leon II الذي لم يكن له ذريّة غيرها. فكان تتويجـه ملـكً سـنة 1224م ثمّ اعتـزل لصـالح ابنـه ليونالثالث Leon III سنة 1269م ليصبح راهبًا تحت اسـم مكـار Makar. تحـالف هيثـوم الأوّل مـع كثير من أُمراء الفرنجبمُصاهرتهم، فقد تزوّجت أختهُ سـتيفاني مـن هنـري الأوّل ملـك قـبرص،و تزوّجـت أُخته ماريا من يُوحنّا أبلين كونت يافا، كما أنّبناته تزوّجن من أُمـراء مـن اللاّتـين، فزُوّجـت سـبيللبوهمند السادسأمير أنطاكية، بينما كانت إيفيميا ليوليان كونت صيدا، وماريا لجـاي أبلـين ابـن بلـدوين صـنجيل قبرص، أمّا ريتا فزُوّجتللأرمني الذيكان يتولّيأمر حصن سارونتيكار.

أنظر: Guiragos de Kantzag, Histoire d'Arménie, traduction Dulaurier, dans J.A., Paris, octobre 1833, T.XII, p.273, note. 1; Setton(Kenneth M.), A History of the crusades, ed. Marshall W. Baldwin, 5 Vol., Philadelphia, 1955-1985, T.II, p. 652 note 2.

انظر أيضًا :السيّد الباز العريني:المغول، دار النهضة العربيّة للطبـاعة و النشـر، بيروت 1981م، ص 198 هامش 1.

2- أنظر : Pasdermadjian (H.), Histoire d'Armenie des origines jusqu'au traité de Lausanne, Paris, 1964 (Deuxiéme Edition revue), p. 214.

3- نظر : Alem (Jean-Pierre),L'Armenie, ed. Que Sais-je, numéro 851, Paris1959, p. 34.

4– كان انهزام هذا الجيش السلجوقي بقيادة السلطان غيّاث الدين كيخسرو في أرمينيا أمام جيش المغول، و كانت عساكره تظمّاليونانيّين و الفرنج و الكرج والأرمن و العرب، فالتقى الجيشان بنواحي أرزنكان (بلدة من بلاد أرمينيا بين بلاد الروم وخَلاط قريبة من أرزن الروم)، بموضع يسمّى كوساذاغ.

أنظر : ياقـوت الحمـوي: معجم البلـدان، دار صـاور و دار بيروت للطبـاعة و النشـر، طبعـة لبنـان (1399هـ/1979م)، ج 1، ص 15ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت–لبنان– الطبعة الأولى (1418هـ/1997م)، ص 220.

و انظر: D'Ohsonn(C.); Histoire des Mongols depuis Tchinguiz- Khan jusqu'à Timour-Lang, Paris,1824, T.II, pp.461-462 ; Deguigne, Histoire générale des Turcs, des Mongols, et des autres Tartares occidentaux, Paris1756-1758, T.II, p.246.

5- رنسيمان(ستيفن): تاريخ الحروب الصليبيّة، ترجمة الدكتور السيّد الباز العريني، دار الثقافة،ط1، بيروت،1969م، ج3، ص507-508.

6- أنظر : Pasdermadjian(H.), Ibid, p. 214.;Alem (Jean-Pierre), Ibid, p. 34.

7- أرتساخ Artsakh هي البلاد التي يُسمّيها المسلمون حالياً بالكرباخ Karabakh ، أو البستان الأسود jardin noir ، وهوالاسم الذي يُناسب الجهةالجبليّة لهذه البلاد شمال الأراكس L'Araxes ، أمّا حاتشين Khatchen فهي حصن مبني وسط هذه الجبال.

أنظر : Tchamtchen, Histoire Arménienne, Traduction Dulaurier, dans J.A., T.XII, Paris,Septembre 1833, p. 206.

8- باجو Batchou أو بايجو نويان Batchou noyan من قبيلة ييسوت Yisout ، و هو قائد لعشرة آلاف رجل. أُرسل إلىبلادالفرس مع تشارمقان Tcharmaghan ، و بعد موته خلفه هذا الأخير.

أنظر : Tchamtchen, op.cit., p.205, note 1.

9- في الأناضول السلجوقي Roum أو Rum) Sultanat de Qoniya ou Iconium

أنظر : Grousset(R.), Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jérusalem: la monarchie Musulmane et l'Anarchie Franque, Paris, 1936, pp. 518-519.

10- أنظر : Tchamtchen, op.cit., p. 206.

11- أنظر : Tchamtchen, op.cit., p. 207.-12

أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., (Avril-Mais) 1858, p.463 Idem, octobre 1833, p. 273; Sĕmpad le Connétable, Chronique du royaume de la petite Arménie, dans R.H.C., D.A., publication de I.B.L. , Paris, 1869-1906, T. I, p. 651; Hayton, La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. II, chapitre XVI, pp. 163-164 et Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835; Saint-Martin(J.),Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819, T. I, pp. 395-396; Grekov(B.) et Iakoubovski(A.), la Horde D'Or: la domination tatare au XIII^{e} et au XIV^{e} siécles de la mer jaune à la mer noire, traduit du russe par François thuret, Payot, Paris, 1939, p. 131; Grousset(R.), op.cit., pp. 526-527.

13 – القورلتاي : في الاصطلاح المغولي عبارة عن مجلس عظيم حافل يضمّ جميع الأمراء وأركان الدولة، وينعقد عند تنصيب أحد أعضاء الأسرة المالكة إمبراطورًا أعظم على جميع المغول.

أنظر: رشيد الدين الهمذاني:جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، دراسة و ترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّاد،دار الثقافة للنشر،القاهرة، (1420ه/2000م)، ج1، ص234، حاشية1.

14– رنسيمان: المرجع نفسه، ص 508.

15- أنظر : Hayton, La Flor des Estoires., T. II, chapitre XVI, pp. 163-164 et Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835.

16- رنسيمان: المرجع نفسه، ص 508.

17 - أنظر : -18 Grousset(R), op.cit., pp. 526-527.

أنظر : Guillaume de Nangis, vie de saint Louis, Rec. Des historiens de Gaules et de La France, academie des inscriptions et belles letters, Paris,1840, T. XX, pp. 360 et suivant**;** Sĕmpad LeConnétable, op.cit., T.I, Note preliminaries, p. 606 **;** Richard (j), op. cit., La Papauté et les missions d'orient au moyen âge(XIII-XV siècle), collection de l'école Française de Rome, Paris(Palais Farnèse), 1977, p. 76**;** Grousset(R), Loc. cit.

19 - أنظر : Hayton, Loc. Cit.

أمّا المؤرّخ بول بيليوت (Paul) Pelliot فيُؤكّد أنّ سفر سمباد كان من (645ه/1247م) إلى(648ه/1250م).

أنظر: Grousset(R), op.cit., p.527, note 1.

20– رنسيمان: المرجع نفسه، ص 508.

21- أنظر : Tchamtchen, op.cit., p.208.

22- أنظر :- Orbêlian(Étienne, archeveque de Siounik), Histoire des Orpélians, in Saint-Martin(J.), Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819,

chapitre VII, T. II, pp. 129-139**;** Tchamtchen, op.cit., p. 212.

و حدث أن أمر أرغون Araghoun، نائب منكوخان على بلاد فارس، عُماله عام 1254م بالقيام بجرد كلّ أراضي البلاد التي يحكمها، و قد طلب منه الأمراء ببلاد جورجيا الموافقة على قتل سمباد، إلاّ أنّ طلبهم قوبل بالرفض، و رغم ذلك تمكّنوا من الاستيلاء على مجموعة من القُري التابعة لسمباد، و تخريب الباقي، مما جعل هذا الأخير يقدُم سنة 1256م على صديقهالخان منكو ليعرض شكواه، فوجد هناك القائد أرغون مصفّدا في الأغلال لتآمر بعض نوابه عليه، فاستطاع سمباد ان يشفع له،مما جعل العلاقة تتوطّد أكثر بينهما.

أنظر : Orbelian, op.cit., chapitre VIII, T. II, pp.141-145, et p. 283 note 5.

23- نظر : Hayton, Ibid, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. II, chapitre XVI, pp. 163-164 et Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835.

24 - أنظر : dans Vahram D'Edesse, Chronique Rimée des Rois de la petite Arménie, R.H.C., D. A.,publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. I, p. 519 **;** Ttchamtchean, op. cit., pp. 212-213 **;** Hayton, Loc. Cit.

25- أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p. 274., Avril-Mais, 1858, p.464 **;**Eracles,l'Estoire de Eracles empereur et la conquest de la terre d'Outremer, in R.H.C., H.O., Publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906, li trentequatriesmes livres, chapitre I, p. 441.

أمّا علاء الدين فهو ابن كيكباد Kaikobad سلطان أتراك سلاجقة قونيا Roum (Qoniya) أو آسيا الصغرى، و اعتلىالعرش منذ (616هـ/1219م)إلى (634هـ/1236م).

أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p. 274, note 2.

26- أنظر : Hayton, Loc. Cit. **;** Grousset(R), op.cit., p.527.

27- أنظر : Hayton, Loc. Cit.

28- أنظر : Vartan Le Grand, Histoire universelle, traduction Dulaurier, dans J.A., (octobre-novembre) 1860, T. XVI, p. 289**;** Hayton, Loc. Cit.

29- أنظر Grousset(R), op.cit., p. 527

يشرح القاموس الصيني أنّ التتار هو الاسم العام لجميع برابرة الشمال (أي المغول) فاللّفظ مغول Mongol et Mogoulيُترجم تاتا أو تتار Tata ou tatar فيبداية القرن الخامس عشر الميلادي تحت أسرة مينغ Dynastie Ming . ويُشير الصينيُّون إلىأنّ أمّة المغول كانت تنقسم في زمان جنكيزخان إلى أربعة فروع كبيرة، فهؤلاء المغول ينحدرون من الموهو Moho، و التايقوت TaidjotouTaidjigot، و الكريت Krait و التتار Tatar، و لكييميّز الصينيّون بين هذاالأخيروالتتار الذين قدموا في القرن الثامن الميلادي ليستقرُّوا في جبال يين شان Yin Chan، والذين أعطوا هذا الاسم لجميع المغول، فقد أعطوهم اسم تاتا Tata، و سُمُّوا قبيلة التتار بلفظ آخر.

ويذكر المؤرخ كبروث Klaproth أنّه لا خلاف بين المؤرّخين المسلمين والصينيّين في ذالك، حيث اعتادوا على تسميةمغول جنكيزخان بالتتار، ويقول أنّ شهادة أبو الفداواضحة في هذا الشأن حينما يتحدّثعن قراقورم Karakorum ou Kara-Koum، أوّل عاصمة لخلفاء جنكيزخان :"معناه الرمل الأسود بالتركيّة، قال بن سعيد: و قراقورم كانت قاعدة التتر و في جهاتها بلاد المغل و في خالصة التتر ومنهاخاناتهم. "وهكذا فإنّ هذاالمقطع يبرهن على أنّ اسم مغول جنكيزخان كان : التتار.

أنظر: Klaproth, Rapport sur les ouvrages du Professeur HyacintheBitchonrinski, Relatifs àl'Histoire des Mongols, dans J.A., Paris, juillet 1830, pp. 30-32.

30- رنسيمان: المرجع نفسه، ص 513.

31- أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p.279-32

أنظر : Hayton, op.cit.(traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), pp. 835-836 Idem, op.cit.(dans R.H.C.), T. II, chapitre XVI, pp. 164-165.

33- أنظر : Dardel(Jean), Chronique D'Arménie, dans R. H. C., D. A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. II, Chapitre XIV, pp. 11-12; Vahram D'Edesse, op.cit., p.519; Hayton, op.cit. (traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), p. 836; Idem, op.cit. (dans R.H.C.), T. II, chapitre XVII, pp. 165-166.

و يبدو أن منكوخان قد بدأ يتعلم طرق السياسة، و بدأ يتعلم الاعتماد على المظاهر و الكلمات المنمقة المختارة، فقد أقامنكوخان احتفالا كبيرا، واستقبالا رسميا مُهيبا لهيثوم الذي قدم نفسه على أنه من رعايا منكوخان، و عامله كملك لا كتابع، و إن كانت كلبنود الاتفاق بينهما لا تصلح إلا بين سيد و تابع، لا ملك و ملك. ثم بدأ منكوخان يُعطي وعودا كبيرة و هدايا عظيمة إلى هذا الملك،و هو يشتري بذلك ولاءه و تبعيته، و ذلك كله لا لشيء إلا لخططاستراتيجية تتمثل في:

-استفادة منكوخان من ملك أرمينيا في حرب المسلمين، و قد خبُـر الأرمـن بـلاد الإسـلام و طبـاعهم، و بذلك تكون المعلومات التي يحملها الأرمن إلى المغول سيكون لها أبلـغ الأثـر في حـرب المسـلمين، و هـو تماما ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية القوية المتحالفة مع إنجليترا الضـعيفة، فقـط لأن عنـدها الخـبرة في أرض المسلمين، و في أرض العراق بالتحديد.

-سيكون للاتحاد المغولي بالأرمن عاملا نفسيا خطيرا على المسلمين، لأن كلمة التحـالف لهـا وقعـا خـاص في نفوس الناس، وذلكمافعلته أمريكا تماما بتحالفها مع أوربا في حرب العراق.

-قد تُسند أخطر المهام للقوات الأرمينيـة في مواجهـة المسـلمين، و بـذلك تكـون الخسـائر في جانـب الأرمن وليس في جانب المغول.

و هكذا تكون المفاوضات بين الطرفين مُربحة تماما للمغول، وأنها بـين سـيد يملـك كـل شـيء و تـابع لا يملك إلا لقب باهر مثل"كبيرمستشاري ملك المغـول في غـرب آسـيا" أو "الملـك الصـديق" أو غيرهـا، و فرصة العيش إلى جوار المغول في ذل وهوان.

و انظر ردّ منكوخان على طلبات هيثوم الأوّل، الترجمة الفرنسيّة في مُلحق هـذه الدراسـة. أمّـا عـن أنبـاء تعميد منكوخان،وانتشارها فيأرمينيا وبلاد المشرق الإسلامي، فتبقى مجرّد إشاعات دون أساس.

(34) الحقيقة أنّ قرار الهجوم على بغداد و تكليف هولاكو بالمهمّـة كـان في حسـابات المغـول و اتُّخـذ قبل قدوم الملك هيثوم بأمد، و قدتطرّق الباحث إلى ذلك في مُستهلّ حديثه عن سفارة روبروك.

(35)رنسيمان: المرجع نفسه، ج3، ص 513.

(36) كان ابتهاج هيثوم الأوّل طبيعيًا لما أحرزه في بلاد الخان من وعود، ولكـن للمغـول سياسـتهم تجـاه المغلوبين، فإنّهم و إن جعلوا للمسيحيّة المترلة الأولىأمام سـائر الـديانات الأخـرى، فبالمقابـل لم يقصـدوا استمرار الإمارات المسيحيّة المستقلّة، و إنّما انطواءتحت الإمبراطوريّة المغوليّة.

37- أنظر : Saint-Martin (J.), op. cit. , T. I, p. 396; Grousset (R.), op. cit., p.529.

38- كان بيت المقدس قد حُرر مرة ثانية على يد الملـك الصـالح أيـوب سـنة 643هـ/1247 بعـد أن أهداه أُمراء الشام الأيوبيون إلىالصليبيينسنة 626هـ/1229م. و هكذا وعـد مَـنْ لا يملـك بإعطـاء مَـنْ لا يستحق.

39- نظر : Setton, op.cit.,T. III, pp. 652-653.

أما السبب في رفض بقية الأمراء الصليبيين في الشام هذه الفكـــرة، فـــيرى الباحـــث أنّ هـــؤلاء خـــبروا بـــأنّ المغول لا عهد لهم، وقديبيعونهم دون ثمن، أو يُضحون بهم في مقابـــل أي ثمـــن، أو ربمـــا دون مقابـــل، و لأن صليبيي الشام في قلب العالمالإسلامي، وخطورة المسلمين علـــيهم كخطـــورة المغـــول، بـــل لعلـــها خطـــورة أقرب، و من ثم لم يتحمس هؤلاء للتحـــالف المعلنمـــع المغـــول، وإنكـــانوا لم يرفضـــوا الأمـــر صـــراحة، و اختاروا أن يبقوا على الحياد بصورة مؤقتة إلى أن ترجح إحدى الكفتين، المغولية أوالإسلامية.

40- أنظر : First Setton, op. cit., p. 653 ; Runciman (Steven),A History of crusades, pub. Cambridge University Press, London,1951, pp. 195-197.

41- يؤكّد المؤرّخ هايتون Hayton في مُؤلّفه "La Flor des Estoires de la terre d'Orient" (أنظر الملحق)، أنّ الخانمنكو Mongka كان جدُّمتعاطفًا تجاه الكاثوليك (ربّما يرجع ذلك السلوك إلى أنّ جزءًا لا بأس به من ذويه و حاشيته كاننسطوريًا)، و أنّه منح امتيازات لرجال الدين و كنائسهمو أنّه جعل أرمينيا و شعبها تحت حمايته، كما كلّف أخاه هولاكوبتدمير بغداد و خليفتها(ألدّ أعدائه)، و وعد بإرجاع الأرض المقدّسة إلى المسيحيّين.

أنظر:-Hayton, op.cit.(traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), p. 836-837, et dans R.H.C.,D.A., T. II, chapitre (XVII-XVIII), pp.165-168; Grousset(R), op. cit., pp . 527-528.

(42) أنظر : Grousset (R), op. cit., p. 529.

(43)أنظر : Vartan, op.cit., p.293; Saint-Martin (J.), op.cit., T. I, p.396.

المـــلاحـــق:

الملحـــق الأول:

نصطلب هيثوم الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، وردّ منكوخان عليه (باللغة الفرنسيّة القديمة):

« L'epereor (Mongka) le réscent multe bénignement et cortoisement (et lui fist) tautes de graces et honours qe homes en parle jesqe au jour de hui.

Aprés ce que le roy d'Ermenie ot séjorné aucuns jors, il fist ses péticions a l'eperor des Tartars… Requist que perpetual pais e amor feust fermé entre les Tartars et les créstiens.

Aprés requist que en toutes les terres que les Tartars avoient conquises e que ils aquerroient, les eglises des cristiens et les prestres e les cliercs et lespersones religioses feussent frans et délivrés de tot servaige. Aprés requist le Roi que pleut a Mongo Can doner e conseil à délivrer la terre sainte de mains des Sarrasins, e rendre cela as crestiens. Aprés requist que deüst doner commandement as Tartars qui estaient en la Turquie que deüssent aller à destruire la cité de Baldach (Baghdâd) et le Chalif qui estoit Chalife en segneors dela fause Loi de Mahomet.

Aprés requist privileige e commadement de poeraver aide de ceaus Tartars qui seroient plus prés du roiaume d'Erménie, quant il les requerroit... ».

« Quant Mango Can ot entendues les requestes du roy d'Erménie, il fist venir le roy d'Erménie en sa présence et devant ses barons et toute sa cort, respendit et dist : « por ce que li rois d'Erménis, de tout de longues terres est venuz a notre empire de se bone volenté, digne choise et que nous feceons acomplir totes ses proieres...

Nous volons que pais et perpetuél amistie soit entre les Crestiens et les Tartars, més nous volons que soiez plye que les créstiens tenront bone pais et loial amistié vers nous, si come nos ferons vers eaus. E volons que totes les Eglises des crestiens, et les clercs, de quelque condition qu'ils soient, séculers ou religieus, soient frans et délivres de tout servage e soient gardez e sauvés sans modeste, en pers one e en avoir. Sur le faict de la Terre Sainte, dirons que nous irons vol entiers en persone. Més por ce que nous avons mult à faire en ces parties, nous

commanderons à notre frére Haloon(=Hulagu), que il deige aller e acomplir ceste besoigne e délivrer la terre sainte du pouer des Sarazins e rendre la als crestiens... E il ira a prendre la cité de Baldach (Baghdâch) et destruire le chalif come nostre mortel enemi. Du priveleige que le roy d'Ermenie requiest sur ce fait d'avoir aide des Tartars, nous le confermerons. E des terres que la roy d'Ermenie requiert que li soient rendues, nous l'otroions volentiers et commenderons a nostre frère Haloon, que li doie(faire) rendre toutes les terres qui furent de sa seignorie, Et li donons toutes celes qu'il pourra conquerre contre les Sarazins, e de special grace, lui donons les chasteus qui sunt près de sa terre.».

المصدر: Hayton, op. cit., T. II, pp. 164-166.

الملحق الأول:

نص ردّ منكوخان، خان المغول العظيم، بالموافقة على طلبات هيثوم الأوّل :

Mongka Khan accorde au Roi d'Armenie toutes ses demandes.

«Puisque le Roi d'Arménie est venu avec bonne volonté de terre si éloignées jusqu'à notre empire, il est convenable que nous exautions toutes ses prières. Nous vous disons, à vous, roi d'Armènie, nous qui sommes empereur, que nous nous ferons baptiser et croirons au Christ et que nous ferons baptiser tous ceux de notre hôtel et ils auront la même foi que les chrètiens. Nous conseillerons aux autres de faire de même, mais sans les contraidre, car la foi ne peut être imposée.

Pour la deuxième requête, nous répendons que nous voulons établir la paix et l'amitié entre les chrétiens et les Tartares, mais nous voulons que les chrétiens à garder bonne paix et amitié loyale envers nous comme nous le ferons envers eux. Et nous voulons que toutes les églises des chrétiens et les clercs, de quelques conditions qu'ils soient, séculiers ou religieux, soient libres et exempts de toutes servitudes et que leur personne et leurs biens soient conservés sans trouble.

Au sujet de la terre Sainte, nous disons que nous irions là-bas volontiers en Personne par respect pour Jésus-Christ, mais, comme nous avons fort à faire en notre pays, nous demandrons à notre frère Hulagu d'accomplir cette besogne et qu'il dèlivre la Terre Sainte de la domination des Sarrasins pour la rendre aux chrètiens. Nous enverrons nos ordres a Batu et aux autres Tartares qui sont en Turquie et aux autres qui sont dans ce pays d'aller prendre la citède Bagdad et d'abattre le Calife, notre ennemi mortel. Le Roi d'Armènie demande le privilège de recevoire l'appui des Tartares, nous voulons que ce privilège soit rèdigè selon ces dèsirs et nous le confirmerons. Et nous accordons bien volontiers que les terresdont le Roi d'Armènie demande la restitution lui soient rendues et nous demandr- ons à notre frère Hulagu de lui rendre toutes les terres qui ont ètè en la seigneurie du Roi d'Armènie et nous lui donnons toutes celles qu'il pourra conquèrir sur les sarrasins. Et, par grâce spèciale, nous lui donnons tous les chateaux proches de sa terre. »

المصدر: Hayton, op.cit., Paris , 1997, p. 836.

ترجمة الباحث للنص أعلاه إلى اللغة العربية:

بما أنّ ملك أرمينيا جاء إلينا من أرض البعيدة وبنية طيبة، فمن اللائق أن نحقق له كل طلباته. ونقول لكم يا ملك أرمينيا، بصفتنا إمبراطور، بأننا سوف نعتنق المسيحيّة، وننصح كل رعايانا بذلك دون إكراه لأحد، لأنّه لا إكراه في المعتقد.

وبالنسبة للطلب الثاني، فنجيب بأننا نريد أن نقيم السلام والمحبة بين المسيحيين والتتار، ونرج منكم بالمثل. سنأمر بأن تكون كنائس المسيحيين ورجالاتها أحرارا ومحترمة، وبعيدة عن الاضطهاد.

أمّا بالنسبة للأراضي المقدسة، فبودنا أن نتوجه إليها بأنفسنا احتراما للمسيح، ولكن لكثرة مشاغلنا ببلادنا، فسوف نطلب من أخينا هولاكو بأن يحرر الأراضي المقدسة من سيطرة المسلمين ويردها إلى المسيحيين. سوف نأمر القائد باتو وقواد التتار الآخرين الموجودين بتركيا للاستيلاء على بغداد وقتل، عدونا، الخليفة العباسي. لقد طلب منا ملك أرمينيا السند وهذا ما سنحققه له،

وبهذا سوف نأمر هولاكو بأن يرد إلى ملك أرمينيا كل أراضيه المسلوبة منه من طرف المسلمين، ونملكه كل أراضي المسلمين التي يمكنه احتلالها. إضافة إلى ذلك سنعطيه كل القلاع القريبة مـــن بلاده.

قائمة المصادر و المراجع :

أ- باللغة العربيّة :

1- المصادر العربيّة :

- **ابن العبري** :غريغوريوس أبو الفرج أهرون بن توما الملطي الطبيب Bar-Hebræus (623- 685هـ/1226- 1286م).

تاريخ مختصر الدول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، ط1،بيروت،(1418هـ/1997م)؛و طبعة المطبعة الكاثوليكيّة، ط1، بيروت، آب1958م.

- **المقريزي** : أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العبّاس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي(766-845هـ/1365-1441م).

السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره و علّق عليه الد كتور محمّد مصطفى زيادة، مطبعةلجنة التأليفوالترجمة والنشر، الطبعةالثانية، القاهرة، 1956م.

- **الهمذاني** : رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق لدولة(ت.716هـ/1316م).

جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، دراسة و ترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّاد،دار الثقافة للنشر، القاهرة، (1420هـ/2000م).

- **ياقوت الحموي** الرومي :شهاب الدين أبو عبد الله(ت.622هـ/1228م).

معجم البلدان، دار صادر و دار بيروت للطباعة و النشر، طبعة بنان، 1979م؛و طبعة منشورات مكتبة الأسدي رقم7، طهران1965م.

2- المراجع العربيّة :

- الباز العريني:

المغول، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، بيروت، 1981م.

- رنسيمان(ستيفن):

تاريخ الحروب الصليبيّة، ترجمة الدكتور السيّد الباز العريني، دار الثقافة،ط1، بيروت، 1969م.

ب- باللغة الأجنبيّة:

1- المصادر الأجنبيّة:

Dardel(Jean): - Chronique D'Arménie, in Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens, publication de l'academie des inscriptions et belles letters, Paris, 1869-1906.

Eracles:
l'Estoire de Eracles empereur et la conquest de la terre d'Outremer, in R.H.C., H.O., Publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Guillaume de Nangis :
- Vie de saint Louis, Rec. Des historiens de Gaules et de la France, A.I.B.L., Paris, 1840.

Guiragos de Kantzag:
-Histoire d'Arménie, tra. Dulaurier, J.A., Paris, octobre 1833.

Hayton:
- La Fleur des Histoires de la Terre d'Orient, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, Croisades et Pélerinage, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte XII^{e}-XVI^{e} siècle, éd. Robert Laffont, Société Asiatique, Paris, 1997.

- La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, in R.H.C., D.A., publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Orbêlian(Étienne, archeveque de Siounik):
- Histoire des Orpélians, in Saint-Martin(J.), Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819.

Pasdermadjian(H.):
-Histoire d'Armenie des origins jusqu'au traité de Lausan, 2e edition, Librairie orientale H. Samuelian, Paris, 1964.

Sĕmpad Le Connétable :
- Chronique du royaume de la petite Arménie, in R.H. C., D.A., publication de l'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Tchamtchen :
- Histoire Arménienne, Tra. Duraulier, J.A., Paris, Septembre 1833.

Vahram D'Edesse:
- Chronique Rimée des Rois de la petite Arménie, in R.H.C., D.A., publication de l'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Vartan Le Grand:
- Histoire Universselle,Tra. Duraulier, J.A., Paris, Octobre-Novembre1860.

2- المراجع الأجنبيّة :

Alem(Jean-Pierre):
-l'Armenie, éd. Que Sais-je, no 851, Paris 1959.

Deguigne :
-Histoire general des Turcs, des Mongols, et des autres Tartares occidentaux, Paris, 1756-1758.

D'Ohsonne(C.):
- Histoire des Mongols depuis Tchinguiz- Khan jusqu'à Timour-Lang, Paris,1824.

Grekov(B.) et Iakoubovski(A.) :
- la Horde D'Or: la domination tatare au XIIIe et au XIVe siécles de la mer jaune à la mer noire, tr. Du russe par François thuret, Paris, Payot, 1939.

Grousset(René) :
-Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jérusalem: la monarchie

Musulmane et l'Anarchie Franque, Paris, 1936.

-l'Empire des Steppes: Attiya, Gengis-Khan, Tamerlan, Payot, Paris (16, Boulevard St Germain), 1939.

Klaproth:

- Rapport sur les Ouvrages du Pr. Hyacinthe Bitchouvinski, Relatifs à l'Histoire des Mongols, J.A., Paris, Juillet 1830.

Richard(Jean):
- La Papauté et les missions d'orient au moyen âge(XIII-XV siècle), collection de l'école Française de Rome, Paris(Palais Farnèse), 1977.

Runciman(Steven):
-A History of crusades, first pub., Cambridge university press, London, 1951.

Saint-Martin(J.):
- Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819.

Setton(Kenneth M.):
- A History of the crusades, ed. Marshall W. Baldwin, 5 Vol., Philadelphia, 1955-1985.

الجهود الدبلوماسية البورقيبية لدعم الثورة الجزائرية

أ. سعيد جلاوي

جامعة البويرة

الملخص : يعالج هذا المقال إحدى المواضيع التاريخية المتعلقة بالعلاقات التونسية الجزائرية في الفترة المعاصرة ،و بالتحديد موقف تونس من الثورة الجزائرية التي طالت انعكاساتها على شبكة العلاقات المغاربية عامة و النظام التونسي خاصة ، هذه الثورة التي أوقعت القيادة التونسية بين ثنائية دعم الثورة و البحث عن حل دبلوماسي على عدة جبهات على مستوى الدول الغربية و الافرواسيوية و الدول الغربية و الأمم المتحدة ، مكنها ذلك من تدويل القضية الجزائرية و إخراجها من الثنائية القطرية أقنعت العالم بمدى شعبيتها و عدالتها. أضعفت بها الموقف الدبلوماسي الفرنسي الذي ساعد على حل هذه القضية

This article adresses one of the historical topics related to the Tunisian-Algerian relations in the cotemporary period ,and specifically the position of Tunisia about the Algerian revolution ,which affected the Magreb relations in general and the Tunisian regime in special,this revolution that made the Tunisian leadership between the bilateral support of the revolution and the search for a diplomatic solution to several to several fronts at the level of the Western countries and the Afro Asian,and Western and the United Nations ,it enabled the internationalization of the Algerian case and remove them from the Qatari bilateral convinced the world the extent of its popularity and fairness.Weakened by the French displomatic positin that contributed to the resolution of this issue .

تعالج هذه الدراسة احد موضوعات الجوار التي ترتكز على الروابط التاريخية بين دول المغرب الكبير، و هي دراسة تهدف إلى تشخيص طبيعة العلاقة بين هذه الدول وشعوبها، سيما موضوع العلاقة التونسية الجزائرية إبان الثورة التحريرية، الذي يعد من الموضوعات الشائكة و المتداخلة، لان هذه العلاقة لم تكن قائمة منذ البداية بين دولة و أخرى أو بين حكومتين متناظرتين، و إنما هي علاقة بين دولة مستقلة ناشئة مكبلة باتفاقية ذات أبعاد سياسية واقتصادية مع فرنسا ورجال يقودون ثورة تسعى للتحرر من ربقه فرنسا، حيث تشكل هذه الاخيرة السبب الكبير في تعقيد تلك العلاقة.

فبحكم انتماء تونس إلى هذه المنطقة الجغرافية المغاربية، فإنها تأثر وتتأثر بهموم المنطقة وطبيعة العلاقات القائمة بينها وبين هذه الدول.

انطلاق الثورة الجزائرية عام 1954 و استعار حربها، مثل تحولا استراتيجيا بالغ الأهمية في الإقليم المغاربي، الأمر الذي حمل مختلف الأطراف المعنية على إعادة النظر في حساباتها السياسية بما يتماشى مع مقتضيات الوضع الجديد الذي فرضته.

وبالفعل، فقد استهدفت هذه الحرب النظامين الناشئين في تونس والمغرب الأقصى في أسس وجودهما نفسها، فعلاوة على أنها قدمت البديل الممكن للسياسة التفاوضية القائمة على المنطق الحقوقي (LEGALISTE) التي لجأت إليها القوى السياسية بتونس والمغرب الأقصى في قسمها الأكبر، هدد انطلاق الرصاصة الأولى للثورة الجزائرية باتساع نطاق الحرب لتشمل كامل منطقة المغرب الكبير(1)، خاصة وأن قادة الثورة الجزائرية كانوا ينظرون إلى الإقليم المغاربي باعتباره وحدة إستراتيجية وسياسية وعسكرية، وقد أبدوا حرصا ظاهرا منذ البداية على توحيد العمل العسكري على المستوى المغاربي لإيمانهم بأهمية البعد المغاربي في التحرك ضد الاستعمار لتشتيت قواه واستنزافها(2).

أما على المستوى التونسي تحديدا فقد هددت الثورة التحريرية الجزائرية المشروع البورقيبي منذ اندلاعها، إذ تزامن انطلاقها مع بداية المفاوضات التونسية–الفرنسية بشأن الاستقلال الداخلي اعتمادا على مرجعية خطاب بيار منداس فرانس يوم 31 جويلية 1954 (3)، فكان من الممكن أن تحمل هذه الثورة الحكومة الفرنسية على مراجعة سياستها التونسية خاصة والمغاربية عامة، ذلك أن مشروع استقلال تونس، وان كان محدودا في نطاقه الداخلي، كان سيمنح الثورة الجزائرية عمقا استراتيجيا هاما خاصة وأن عناصر المقاومة التونسية كانت تتوفر على الاستعداد والقدرة

على تأمين الدور الاسنادي (اللوجستي) الذي كانت تحتاجه هذه الثورة، التي اثرت فعلا على تطور السياسة الفرنسية تجاه المحمية التونسية ولكن في اتجاه دعم استقلال تونس.

وإذا كان بورقيبة يربط بين الحدثين بالكثير من التعسف والمغالطة من خلال تأكيده أن "الشعب الجزائري كان أول المتأثرين" بالتجربة النضالية التونسية وأنه "ما كاد منداس فرانس يلقي خطابه التاريخي ويقدم لنا عروضه وما كدنا نخوض المفاوضات التي دعانا إليها حتى ثار الشعب الجزائري ثورته الكبرى وها هو ذا يواصل كفاحه الباسل حتى اليوم، وخاض المغرب أيضا كفاحه الايجابي وركن مثلنا إلى الجبال واستعان بالفلاقة الى أن استرجع سيادته "(4)، فان المؤكد أن الثورة الجزائرية قد لعبت دورا أساسيا في تسريع حصول الاستقلالين التونسي والمغربي نتيجة الضغط الهام الذي فرضته على السلطة الاستعمارية، بحيث إضطرتها الى إعادة النظر في كامل سياستها المغاربية والاستعمارية عموما. فقد رد كريستيان بينو CRISTIAN PINEAU وزير الشؤون الخارجية في حكومة GUY MOLLET على الانتقاد الذي وجه لقرار الحكومة بتمكين تونس والمغرب الأقصى من استقلالهما في 1956 بأنه كان يمثل الحل الأمثل أمام حرب شاملة محتملة في أفريقيا الشمالية إذ جاء في تدخله أمام المجلس الوطني الفرنسي " يجب أن يفهم هؤلاء الذين يساندون سياسة القوة في تونس والمغرب الأقصى أنهم يطالبون بتوفير 400 أو 500 ألف رجل إضافي، أين يفكر هؤلاء الزملاء إيجاد هؤلاء الرجال (...) إن من شأن سياسة القوة هذه أن تضعف العمل الذي نقوم به في الجزائر"(5)

لكن مثل الاستقلال التونسي في جزء منه –على الأقل – الوردة التي سقتها الثورة الجزائرية بدماء شهدائها، و لم يكن النظام البورقيبي(6) يستطيع مع ذلك قطفها دون أن ينجرح بأشواكها، ذلك أن التفاعلات الخطيرة التي كانت تشهدها القضية الجزائرية أصبحت تهدد هذا الاستقلال نفسه الذي ساهمت في تحقيقه، ليس فقط لأن نيران الحرب التحريرية الجزائرية يمكن أن تطال تونس في أي وقت، وإنما أيضا بل وخاصة لأن هذه القضية أصبحت بطبيعتها العسكرية وأسلوبها الصدامي وتحالفاتها الخارجية تستهدف الأسس السياسية والإيديولوجية نفسها التي قام كل من استقلال تونس والمغرب الأقصى. فقد أعادت الروح للخيار المغاربي واضعة بذلك شرعية الخيار القطري الذي أُقر في تونس والمغرب الأقصى موضع السؤال ، وقدمت من خلال مواجهتها المسلحة للسلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بديلا حيا وملموسا لأسلوب التفاوض الذي لجأت إليه الحركتان الوطنيتان التونسية والمغربية في جزئها الأكبر منذ مطلع الخمسينات، وفتحت

فضلا عن ذلك الباب المغاربي لتدخل قوى خارجية عديدة بما استتبعه ذلك من انتشار التيارات الأيديولوجية الحاملة لها كالتيار القومي الذي ما انفك يكتسح الساحة السياسية العربية منذ وصول القيادة الناصرية إلى السلطة بالبلاد المصرية، خاصة مع تحول الخطاب الناصري إلى نواة إنتاج إيديولوجي واسع "(7)

لقد مثلت الثورة الجزائرية بتفاعلاتها ونمط التحالفات الذي فرضته في المنطقة تهديدا جديا لمشروعي الدولة القطرية في المغرب الأقصى وخاصة في تونس، ولا شك أن استعار نيران الحرب التحريرية الجزائرية قد استثار قلق النظام التونسي ومخاوفه من أن تفجر هذه النيران الأسس الملغمة التي قام عليها استقلال الدولة التونسية، ذلك أن تصفية الاستعمار في هذا الجزء من الإقليم المغاربي لم تنته مع التوقيع على وثيقة 20 مارس 1956، بل بدأت معه فهي "لم تكن في واقع الأمر الا مجرد اعتراف بحق"(8).

وقد مثل تعثر المفاوضات التونسية–الفرنسية التي أعقبت التوقيع على هذه الوثيقة لترتيب تصفية التركة الاستعمارية بتونس، وانتقال السلطة إلى قيادة الاستقلال، أحد الألغام المهددة بالانفجار في أية لحظة حتى أن بورقيبة نفسه اضطر إلى تعليق هذه المفاوضات في 13 جويلية 1956 مهددا " باستئناف الكفاح " باعتبار أن "كفاح البناء والتشييد تعترضه في بعض الأحيان أزمات وعراقيل وعقبات يلزمنا أن نكون دائما وأبدا منها بالمرصاد حتى لا تتوقف أعمالنا ويتسنى لنا مواصلة مسيرتنا فكلما شعرنا بخطر يهدد سيادتنا أو يمس استقلالنا كنا متهيئين لرد الفعل وعلى أتم استعداد لاستئناف الكفاح إن لزم"(9). وكان بورقيبة يريد بهذا الموقف، وهذا التهديد أن يضرب عصفورين بحجر واحد: حمل فرنسا على فك هذا اللغم بتجسيم الاستقلال التونسي الذي اعترفت به بموجب وثيقة 20 مارس، وفي نفس الوقت التموقع في خندق المواجهة بما يمكنه من أن يكون ضمنه في صورة فشل رهان التفاوض وانفجار الأسس الهشة التي قام عليها الاستقلال.

ذلك أنه كان يعي أنه يواجه خطرا مزدوجا من الخارج والداخل بعد أن تحولت الثورة الجزائرية إلى موضوع رهان بين الشقين البورقيبي واليوسفي منذ ظهور البوادر الأولى لهذا الخلاف بعد الإعلان عن التوقيع على اتفاقيات 3 جوان 1955 كما تؤكد ذلك القراءة المقارنة لخطابات بورقيبة (10) وبن يوسف(11)، وكما اعترف بذلك بورقيبة نفسه حتى قبل الحصول على الاستقلال (12)، وبالفعل فقد بدأ التنسيق بين صالح بن يوسف وبعض فصائل الثورة الجزائرية الصاعدة منذ اندلاع الصراع اليوسفي–البورقيبي، ولا شك في أن هذا التنسيق قد زاد وثوقا مع

الانحصار المتزايد الذي كانت تعرفه الحركة اليوسفية في الداخل بعد الضربات الموجعة التي أصابتها قبيل مؤتمر صفاقس وبعده، وكانت الصحف الصادرة خلال هذه الفترة قد أكدت وجود هـــذا التنسيق كما أكدته الأوساط الرسمية التونسية نفسها"، فمن المؤكد أن بعض رجال الثورة الجزائرية " قد دخلوا التراب التونسي وتوغلوا فيه عميقا أحيانا وأن بعض التونسيين قد انضموا إلـــيهم "، الأمر الذي أدى الى بروز ما اصطلح على تسميته بحركة الفلاقة الجديدة الـــتي اســـتقوت بهـــذا الاتصال بين "المتمردين" التونسيين والجزائريين وتموقعهم في عدة جهات من البلاد ليس فقط على الحدود التونسية–الجزائرية بل وفي داخل البلاد أيضا بما في ذلك "منطقة الساحل" نفسها، بل أن بعض المجموعات التي كانت تحسب على الحركة اليوسفية كانت تتكون حصرا من عناصر جزائرية على غرار "جهة قفصة حيث يعد حوالي 25 متمردا جميعهم جزائريون(13).

وقد فرض هذا الوضع على النظام البورقيبي الناشئ أن يبلور مبكرا استراتيجيته في مواجهة تفاعلات القضية الجزائرية بمضاعفاتها الخطيرة على الوضع في المنطقة، **فما هي الإســـتراتيجية الدبلوماسية ؟ التي أنبنى عليها الخطاب البورقيبي في ظل تطورات القضية الجزائرية؟**

للإجابة على هذه التساؤل، اعتمدنا في هذه الدراسة على المخزون الصحفي المعاصرة لوقائع الثورة الجزائرية خاصة جريدتي: العمل[14] والصباح[15] التونسيتين التي خصصتا حيزا هاما من صفحاتهما لنصرة القضية الجزائرية، كما احتفظتا بكل الخطب والتصريحات والرسائل والمذكرات الصادرة عن قادة النظام التونسي خاصة الحبيب بورقيبة وقياداته من الهيئة الدبلوماسية أمثال المنجي سليم والصادق لمقدم و غيرهم.

و لمعالجة الموضوع اعتمدنا منهجيا على التسلسل الكرونولوجي للأحداث بداية بمرحلة استقلال تونس و قيام النظام التونسي الجديد وبروز معالم سياسته الخارجية، وموقفه من حركات التحرر على رأسها الثورة الجزائرية بعد انضمامها مباشرة إلى الأمم المتحدة، والتي ستبرز لا محالة مواقفه في إطارها السلبي والايجابي إزاء القضية الجزائرية في المحافل الدولية.

1. استقلال تونس وانضمامها إلى الأمم المتحدة

باستقلال تونس كان الحبيب بورقيبة عين وزيرا للخارجية في 1956، ثم أُنتخب رئسا للجمهورية سنة 1957. وكان رجلا عمليا لا يستسلم للأفكار المسبقة بل كان يتخذ قراره في ضوء التطورات التي كان يسعى إلى تقييمها بنفسه[16]. فكان من الذين أصدعوا بالحق لصالح

القضية الجزائرية في المحافل الدولية، فوجه العديد من الخطب والتصريحات، وأصدر مذكرات ولوائح وبيانات، وأجرى مباحثات ومشاورات حول القضية الجزائرية لدى الأمم المتحدة، وجند في نظامه سفراء ومبعوثين وممثلين ووزراء لقيادة الهيئة الدبلوماسية من شانها ان تدعم القضية الجزائرية في مختلف المحافل الدولية.

بتوقيع اتفاقية الاستقلال في باريس صرح بورقيبة لصحيفة "لوفيقارو" : لا اعتبار لاستقلالنا إلا إذا اقترن باستقلال الجزائر، وفي 22 مارس من نفس السنة قال في خطاب رسمي بملعب "جيو اندراي" : "لن يغمض لي جفن ما دام الدم يسيل في الجزائر"(17).

وحتى يتسنى للحبيب بورقيبة ترجمة مضمون خطبه على ارض الواقع أي دعم الشقيقة الجزائر في حربها ضد فرنسا كان على تونس الانضمام إلى الأمم المتحدة، حيث في 12 نوفمبر 1956 صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قبول تونس في عضويتها(18). وقد صرح بهذا الخصوص الحبيب بورقيبة في "حياتي جهادي" ص 148: "فأوليتها أهمية بالغة بصفتها الإطار الأساسي والشرعي الذي يستند إليه العمل الجماعي. فحرصت منذ ذلك، على التأكيد على التزامها بميثاقها و مبادئها و جعلتها مرجعا في عملها الدبلوماسي، حاولت من خلالها تجسيد انتماءها المتعدّد الأبعاد في نطاقه الإقليمي والدولي"، حيث حل بورقيبة بنيورك يوم 16 نوفمبر 1956 وألقى خطابا تناول فيه قضية الجزائر بالتعريف والتحليل مطالبا بحق الشعب الجزائري في الحرية والكرامة وبوضع حد للحرب الاستعمارية.(19).

وقد ظلت تونس تشارك بانتظام في أشغال الجمعية العامة وسائر أجهزة الأمم المتحدة الأخرى، فيما بين 1959 إلى 1962، وكان من أبرز محطات هذه المشاركة رئاسة تونس، في شخص مندوبها الدائم آنذاك، "المنجي سليم"(20)، للدورة العادية السادسة عشر للجمعية العامة سنتي 1961-1962 وكذلك انتخاب تونس بصفة عضو غير دائم بمجلس الأمن في الفترة من 1959-1960 مكنها ذلك من مساندة العديد من حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار في العالم واتخذت إجراءات تضامنية شجاعة، فكانت القضية الجزائرية في مقدمات هذه الحركات ضمن نشاطها الدبلوماسي.

فبحكم تبنيها للشرعية الدولية، والإيمان بمنطق الحوار والتفاوض كسبيل لفض الخلافات في سياستها الخارجية، بدأ بورقيبة العمل الدبلوماسي لصالح القضية الجزائرية. فمنذ استقلال بلاده أخذ نظامه يسير على حبل مشدود بين فرنسا والجزائر بين الحياد والاشتراك في الحرب، وعواطفه

مع الشعب الجزائري ولكنه أيضا في الحصول على المساعدة الاقتصادية الفرنسية هذا ما جعله يتأرجح بين السلب والإيجاب، نظرا للمقتضيات السياسية والعسكرية الراهنة، فتميزت المرحلة الأولى بالسلبية خاصة بعد زيارة لحبيب بورقيبة عام 1956 لواشنطن، أين تباحث مع الرئيس إيزنهاور حول إمكانية إيجاد حل وسطي القضية الجزائرية، و التي انتهت بتعهد لحبيب بورقيبة بمحاولة إقناع الثوار الجزائريين لوقف القتال، وحين عـــــاد إلى تونس صرح قائلا " لقد اتفقت مع الرئيس إيزنهاور على أن نتوسط لحل القضية الجزائرية ". لان استمرار حرب التحرير الجزائرية سيعرقل لا محالة النظام التونسي على بسط سيادته على أراضيه خاصة مع اصطدامه بحركية حدوده الغربية مع الجزائر والتي أصبحت موقعا استراتيجيا في المواجه السياسية بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف. هذا الأخير الذي استقر بطرابلس ويقول للتونسيين انه يكافح من اجل جلاء القوات الفرنسية ويقول لجزائريين انه يسعى للتخفيف من ضغط الجيش الفرنسي على الجزائر بفتح واجهة أخرى بتونس"(21).

فأمام عدم جدوى جهود بورقيبة في تقريب وجهتيْ نظر بينه وبين فرنسا، بالرّغم ممّا بذله من سعْي لإقناعها بوجوب التفاوض مع جبهة التحرير الجزائرية، وأمام تزايد الضغط الجماهيري عليه، والاعتداءات الفرنسية، ومشكلة قاعدة بنزرت، تحول موقف بورقيبة ليصبح أكثر ايجابية في دعم الكفاح المسلح. فوافق على تحويل نشاط للحكومة الجزائرية المؤقتة من القاهرة إلى تونس العاصمة في المرحلة الأخيرة (1960 1962). وهو ما كان مطلوبا من بورقيبة في الضغط على فرنسا للاستجابة لمطالب الجبهة بحكم الموقع الجغرافي والجوار والتواجد الاستراتيجي على مستوى البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى عروبة النظام السياسي التونسي، وبالتالي هذا دفع ببورقيبة إلى تبني مواقف ايجابية سياسية ودبلوماسية اتجاه القضية الجزائرية، ترتب عنها خلق قاعدة خلفية لهذه الثورة، توفر لها الإسناد اللوجستي ومختلف أشكال الدعم السياسي والدبلوماسي والإعلامي...حيث نشطت عمليات تهريب الأسلحة نحو الجزائر والتحق بصفوف الثورة الجزائرية العديد من المتطوعين التونسيين... وراحت الأحزاب التونسية تندد بالقمع الاستعماري وتطالب فرنسا بالاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الجزائري، وجدّت الهيئات والمنظمات القومية التونسية (الأطباء والمحامون والمهندسون) في حشد الدعم الجماهيري للثورة الجزائرية، وتحركت الدبلوماسية التونسية في المحافل الدولية لخدمة القضية الجزائرية ولتحسيس الرأي العام الفرنسي والغربي بضرورة إيجاد حلّ سياسي لها والتفاوض مع المجاهدين والاعتراف بحّقهم في تقرير مصيرهم،.و هو ما

تعكسه تصريحات الحبيب بورقيبة في اجتماع انتظم بالقيروان يوم 30 أكتوبر 1955 فقد قال " إنّ إخواننا الجزائريين نعينهم بلا شك عندما نواصل تجربتنا بصدق وإخلاص فنعمل على تعزيز موقف أنصار السلم في فرنسا ونعينهم على التغلب على غلاة الاستعمار إلى أن يفرضوا على الحكومة الفرنسية حلا وسطا للقضية الجزائرية مثلما تمّ بتونس وتنتهي الحرب في تلك الديار"[22].

فاقتناع بورقيبة بما يسميه بالحل المنقوص الذي يقوم على تجربة الاستقلال الذاتي جعله يقرن دعمه للثورة الجزائرية بضرورة انتهاج تلك التجربة، لأنها ستقوي من موقف الأحرار بفرنسا وستقدم لهم الدعم للانتصار على غلاة المعمرين ،وذلك بفرض حلّ للقضية الجزائرية على الحكومة الفرنسية شبيه بحلّ القضية التونسية، وبذلك تنتهي الحرب ويسود السلم ويتعزز في المنطقة[23].

ومن أجل تمتين العلاقة بين جبهة التحرّير الوطني الجزائرية والحكومة التونسية اتصل محمد البجاوي بالحبيب بورقيبة بعد تعيينه رئيسا للحكومة التونسية لتنسيق المواقف، واستقبله بورقيبة بحرّارة وقدم له البجاوي عشرين مطلبا، يرمي أولها إلى إنشاء منظمة لجبهة التحرّير في تونس بشكل غير معلن، ويدعو ثانيها إلى تقديم مساعدة للمقاومين الجزائريين، ويطالب ثالثها بالتدخل لإطلاق سراح الموقوفين في صفوف المقاتلين الجزائريين. واستجاب بورقيبة بتلقائية وصدر رحب لكل المطالب دون استثناء، و لم تكن هذه الموافقة التلقائية ثمرة النشاط الدبلوماسي وإّنما كانت نتيجة تضامنه الفعلي مع الشعب الجزائري المكافح من أجل استقلال الجزائر.

2.المساعي الدبلوماسية التونسية في الأمم المتحدة 1956 / 1962:

(أ).مرحلة 1956 / 1957:

عرضت القضية الجزائرية لأول مرة أمام هيئة الأمم المتحدة من خلال رسالة مؤرخة في 26 جويلية 1955 وجهتها مجموعة من الدول العربية والاسياوية، طالبت فيها بتسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة 10 العادية للجمعية العامة، وطبقا للمادة 10 من النظام الداخلي للجمعية العامة. وألحقت الرسالة بمذكرة تفسيرية، وأكد موقعو المذكرة على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها[24]، وتلتها بعد ذلك بقية الدول المحبة للسلام على السير في نفس الخط التحرري، فكانت تونس من بين هذه الدول التي وقفت إلى جانب القضية الجزائرية في المحافل الدولية بعد استقلالها سنة 1956. وانصبت معظم جهودها الدبلوماسية على دعم الثورة

الجزائرية منذ انطلاقها وهو ما أكده الباجي قايد السبسي قائلا "إن لتونس دبلوماسية حاذقة لم تكن تسعى فقط لاستصدار قرار رسمي من مجلس الأمن بل تسعى إلى دفع الولايات المتحدة للتدخل" [25] لحل القضية الجزائرية، لكنها فشلت بسبب التذبذب في مواقف هذه الأخيرة، وخيانتها خاصة عند إقدامها على القرصنة الجوية في حق الطائرة المغربية التي كانت تنقل الوفد الجزائري المتوجه إلى تونس للمشاركة في الندوة المتعلقة بالقضية الجزائرية. فاستنكرت الحكومة التونسية هذا الفعل فقرر بورقيبة التدخل لدى الأمم المتحدة

فوجه الحبيب بورقيبة مذكرة لها سماها بالرسالة الكبرى في شهر نوفمبر 1956 أوردتها جريدة الصباح تضمن النص التالي " لتضع حدا للمجازر والجرائم التي يرتكبها الجيش الفرنسي وغلاة المعمرين في حقه وإنها أكثر فظاعة من جرائم المحر وعليه أن تقول كلمتها ليستقر الحق ويتقلص ضل الاعتداء[26].

كما استغل فرصة استمرار جلسات الجمعية العامة ليقدم مقترحا لإنهاء الحرب برزت معالمه في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة قائلا: "نحن نشاهد اليوم حربا طاحنة تدور رحاها في الجزائر ضدّ شعب أبيّ لا ذنب له سوى تعّلق إرادته بالتخلص من السيطرة الأجنبية، وتشاهدها أمم العالم الحرّ منذ ما يزيد عن سنتين في غير اكتراث، وهي مجزرة فظيعة تبيد كل يوم شبابا من الجزائر فما بال الضمير المتمدن الذي استطاع أن يثور بسرعة واندفاع عندما أُستهدف الوطنيون في بودابست" المحر"، وكيف استطاع الصمت أمام الحرب المسلطة على الجزائر فهل يجب أن نعزي ذلك إلى التفرقة العنصرية أو الدينية؟ فالمنطق يفرض علينا أن نناهض العدوان أينما ظهرت معالمه ومهما كان مأتاه وعلى الأمم المتحدة أن تمدّ يدها إلى الشعوب التي مازالت تكافح لتحقيق مطامحها القومية، ومن واجب الأمم المتحدة مساعدة فرنسا على الخروج من المأزق الذي تورطت فيه وتحديد صيغة علاقاتها بالشعب الجزائري والاعتراف بحقه الطبيعي في الاستقلال، والحلّ الذي ننشده يمكن أن يتم بمراحلّ كأن يتحقق أولا وقف القتال وثانيا إرسال قوة بوليس دولي وثالثا إرسال لجنة وساطة مؤلفة من ثلاث أو أربع شخصيات تسعى إلى البحث عن شروط وقف القتال فإذا ما تم ذلك مهدت السبل وأعلن وقف إطلاق النار تحت ضمان الأمم المتحدة وأرسلت قوات البوليس الدولي"[27]

هذه الإستراتيجية الدبلوماسية التي اعتمدها بورقيبة في معالجة القضية الجزائرية في الأمم المتحدة كان يهدف من ورائها إلى إخراج المشكل الجزائري من مجاله الثنائي الضيق إلى مجاله

الدولي، وذلك بجعل ما يحدث في الجزائر من قمع وإبادة يقع على مسؤولية الأمم المتحدة والقائمين عليها. كما انتقد صمت العالم لعدم تحركه إزاء ذلك، ووضع فرنسا أمام أمر الواقع بين مثالية شعاراتها الناشدة للحرية والكرامة والاستقلال التي يطالب بها الشعب الجزائري وواقعية سياسيتها الإجرامية التي تقترفها في حق هذا الشعب الأعزل، كأن فرنسا المحتشمة في نظر بورقيبة أنها لا تعي ما تفعله في الجزائر بحكم وقوعها في مأزق يصعب الخروج منه، فوجب على الأمم المتحدة مساعدة فرنسا على تجاوز هذا المأزق، وذلك بالاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره وقدم مشروعا تضمن ثلاث نقاط لحلّ القضية الجزائرية وتتمثل في وقف القتال وإرسال شرطة و لجنة دولية للوساطة. وقد ناقشت اللجنة السياسية للأمم المتحدة القضية الجزائرية ،وتناول المنجي سليم الكلمة بالمناسبة واقنع بها الساسة على إعطاء أولوية لمناقشة القضية الجزائرية في دورتها الحالية[28].

وفي سياق الجهود الرامية إلى تسوية القضية الجزائرية في الأمم المتحدة، وحشد اكبر عدد ممكن من الوفود المعتمدة لتأييدها، قام المنجي سليم بتكثيف المساعي لدى الكتلة الإفريقية الأسيوية في 6 فيفري 1957 اقنع بفضلها وفود سبعة عشر دولة منها بتقديم بيان مشترك إلى اللجنة السياسية التابعة للأمم المتحدة، تضمن ما يلي" الجمعية العامة تلفت نظركم إلى الحالة المضطربة، وإلى الكفاح الجاري بالجزائر، والذي سبب آلاما بشرية عديدة تعكر التآلف بين الأمم. ولهذا نطالبكم بالاعتراف بحق الجزائر في تقرير مصيرها بنفسها طبقا لمبادئ وميثاق الأمم المتحدة، ونطلب من فرنسا والشعب الجزائري أن يدخلا حالا في مفاوضات من أجل إيقاف القتال، وتسوية نزاعهما سلميا وفقا لمبادئ الأمم المتحدة"فطلب المنجي سليم من أعضاء الوفود المعتمدة لدى الأمم المتحدة تأييد القضية الجزائرية خلال المناقشات[29].

هذا البيان المقدم للأمم المتحدة عن طريق الوفود الإفريقية يعكس حقيقة الوضع المضطرب في الجزائر بسبب الحرب التي باتت تهدد السلم العالمي، وهو يجعل من الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وفتح المفاوضات من الضرورات الملحة لإيقاف الحرب وتسوية النزاع وفقا لمبادئ ومقررات الأمم المتحدة.

وفي ظل الجهود المتواصلة أيضا، ألقى السفير التونسي كلمة في الأمم المتحدة فند فيها الادعاءات الفرنسية المزيفة للتاريخ، والقائلة بالجزائر الفرنسية وطالب بوقف القتال وفتح مفاوضات بين الجزائريين والفرنسيين والاعتراف بحق الشعب الجزائري، وقال: "إنّ الجزائر لم

تكن فرنسية في يوم من الأيام ودعا إلى وقف القتال وفتح مفاوضات على أساس الاعتراف بحق الشعب الجزائري في استرجاع كرامته والتمتع بسيادته وتقرير مصيره طبقا لميثاق الأمم المتحدة" (30)

و لم يكتفي المنجي سليم بذلك بل قدم انتقادات لاذعة لما تضمنته للائحة التي تقدمت بها دول أمريكا الجنوبية وإيطاليا مردها، "إنها تساند فرنسا في جرائمها المرتكبة بحق الشعب الجزائري وأفكارها خرافية ولا تعترف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره وفقا لمبادئ وميثاق الأمم المتحدة"(31).

وقد أصبح التعريف بالقضية الجزائرية، والدفاع عنها الشغل الشاغل للبعثة التونسية بالأمم المتحدة من خلال جهودها الحثيثة في التصدي للفرنسيين، وحلفائهم من أعداء الثورة والتي حملتهم مسؤولية الجرائم التي يقترفها الجيش الفرنسي يوميا في الجزائر من قتل وتشريد وتعذيب ونفي، أدت إلى هجرة حشود منهم إلى البلدان المجاورة كلاجئين، وأصبحوا في حالة مزرية للغاية، مما دفع بالسفير التونسي بالأمم المتحدة إلى طلب المقابلة مع الأمين العام بالأمم المتحد "داغ هامر شولد" قصد التباحث معه حول مشكل اللاجئين الجزائريين الذين تفاقم عددهم، وسلم للأمين العام تقريرا إضافيا حول الحالة التيكان يعيشها اللاجئون،كما انتقد التقرير ازدواجية التعامل بين الشعوب، وطالب أن يعامل اللاجئون الجزائريون مثل اللاجئين المجريين" (32)

وعند انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثانية عشرة بين 17 سبتمبر و14 ديسمبر 1957، عرضت القضية الجزائرية للمرة الثالثة، وانتهز محمود المسعدي(33) الفرصة فتدخل أمام اللجنة الاجتماعية الإنسانية والثقافية للأمم المتحدة، متهما فرنسا بخرقها لحقوق الإنسان لقيامها باعتقالات وإيقافات لا مبرر لها، ولا تركز على ضمانات عدليّة، ووتتم عادة لمدّد طويلة وبدون بحث أو تهمة" (34).

وهو ما شجع محمد يزيد ممثل جبهة التحرّير الجزائرية بالأمم المتحدة على اقتراح يقوم على تعبئة كل من تونس والمغرب للدفاع عن القضية الجزائرية عند بداية اللجنة السياسية في مناقشة هذه القضية وعرض وجهة نظر قادة جبهة التحرّير الوطني الجزائريّة(35)

ففي أول جلسة للجنة السياسية المخصصة لمناقشة القضية الجزائرية، عقد المنجي سليم اجتماعا نبه فيه وفود دول أمريكا الجنوبية العشرين، وأكد لهم في مداخلته على ضرورة تدخل الأمم المتحدة لفرض تسوية عادلة و سلمية عن طريق التفاوض(36). وهو ما ترجمه المنجي سليم في خطابه فعلا

في أول تدخل له في هذه الجلسة "حيث طالب بالدخول في مفاوضات بين الحكومة الفرنسية وجبهة التحرّير الجزائرية طبقا لمبادئ الأمم المتحدة، ووضع حد للقتال، والاتفاق بين الطرفين، وفند الاقتراحات الفرنسية وقال إنها تجاوزتها الأحداث والمتمثلة في ثلاث مراحلّ لوقف إطلاق النار وإجراء انتخابات والشروع في مفاوضات" [37]،كما رفض التصويت على المقترح الكندي وانتقده بشدة وكتفى بالتصويت على المسودة التي تقدمت بها المجموعة الإفريقية الآسيوية[38].

(ب). مرحلة:1958 / 1959 :

وتعد هذه المرحلة من أصعب المراحل التي مرت بها الثورة الجزائرية إذ تواصلت العمليات العسكرية وتوسعت بشكل ضخم، وهذا بعد أن أسندت قيادة الجيش الفرنسي للجنرال شال الذي شرع في تطبيق المشروع العسكري لإبادة الشعب الجزائري، فتعالت الأصوات المجاهرة والمنددة بهذا المخطط في الأمم المتحدة، خاصة من الدول الصديقة فسجلت القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة في الدورة الثالثة عشر بداية من 16 سبتمبر 1958 حيث قررت الجمعية العامة تسجيل القضية في جلستها العلنية تحت رقم 752 يوم 22 سبتمبر 1958، وأحيلت إلى اللجنة الأولى في عشر جلسات من 8 إلى 13 ديسمبر، وبذل المنجي سليم عدة جهود حيث قدم القضية على أنها نزاع دولي وابدي شكوكه في جدوى استفتاء ديسمبر و انتخابات نوفمبر 1958"[39].

بهذا الصدى البعيد للثورة الجزائرية في الأوساط السياسية العالمية أصبحت القضية الجزائرية قضية دولية، مما جعل الموقف الأمريكي يتغير تجاهها، وبرز جليا في تصريح كاتب الدولة للخارجيّة الأمريكية "مستر دلاس" الذي قال: " إن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت تعتبر قضية الجزائر مسألة عالمية، وهي عازمة على اجتياز الاعتبارات القانونية "فردت الصحافة العالمية حملة معادية للسياسة الاستعمارية الفرنسية القائمة على الحرب والإبادة، والتي وصفتها بالجرثومة تنخر عظام الدول الغربية وهي بتحالفها مع فرنسا لا يمكنها غضّ الطرف عن الحالة السيئة التي أصبحت تميز الوضع الجزائر"[40].

ولتثمين تطورات القضية الجزائرية، ومتابعتها والتباحث مع الأمين العام للأمم المتحدة، قامت الدبلوماسية التونسية برئاسة المنجي سليم بمساع لدى الكتلة الإفريقية الآسيوية بالأمم المتحدة لتأييد القضية الجزائرية، وتمكنت من عقد اجتماع لها قررت فيه تشكيل لجنة لمتابعة القضية الجزائرية برئاسة تونس، وتضم كل من المغرب واندونيسيا وسيلان ورومانيا وتركيا والحبشة [41].

و مع تطور الأحداث في المنطقة المغاربية و وقوع الغارة الفرنسية على ساقية سدي يوسف دفعت الجزائر – بفضل استغلال بورقيبة لها- إلى صدارة الأحداث الإعلامية والسياسية والدولية، و لم تعد القضية الجزائرية قضية فرنسية داخلية بل دولت بالتمام والكمال فلم يصبح الأمر خاصا بالإخوان العرب والمسلمين ودول عدم لانحياز والشيوعية دون غيرهم، وأن "فوستر دلاس" كاتب الدولة للخارجية الأمريكية أكد في 11 فبفري 1958 في رد فعل على الساقية "ان هذا الحدث يؤكد بطريقة قطعية انه من الصعب التفريق بين المشكلة الجزائرية و مشكلتي تونس و المغرب [42].

مَثّل هذا الحدث فرصة سانحة للدبلوماسية التونسية للتشهير بجرائم الاستعمار الفرنسي، وكشفها للرأي العام العالمي، حيث مكنت السفير التونسي بواشنطن من توجيه مذكرة إلى الأمين العام للأمم المتحدة؛ نقلتها جريدة العمل بتاريخ 28فيفري1958 نصها " يلفت فيها نظره إلى العواقب السيئة التي قد تترتب عن إنشاء المنطقة المحرمة بالجزائر على طول الحدود التونسية الجزائرية، وأصبحت تطرد الأهالي القاطنين في تلك المنطقة ويؤكد له أن نتائجها هي طرد وتشريد حوالي مائتين وخمسين ألف لاجئ جزائري من ترابهم"[43].

وفي ظل الجهود الدبلوماسية للنظام التونسي لتعبئة الرأي العام الدولي بالقضية الجزائرية اتصل المنجي سليم بوفود أمريكا اللاتينية وعقد اجتماعا مشتركا مع عشرين وفدا منهم وألقى خطابا يطلب الدعم منهم لحلّ القضية الجزائرية وفقا لمبادئ وميثاق الأمم المتحدة، والتقى كذلك بنائب وزير الخارجية الكندية وسفير ألمانيا بالأمم المتحدة والسفير الأمريكي بالأمم المتحدة وأثناء محادثاته أكد أنه لا يمكن أن ينفرج الوضع بشمال إفريقيا إلا بحلّ المشكلة الجزائرية.[43]

وأدلى كذلك بتصريح ردا على المقترحات الفرنسية التي تطالب بنشر قوّات أممية على الحدود التونسية الجزائرية وقال" إنّ الحكومة التونسية لن تقبل بأي حال من الأحوال أن تخضع الحدود التونسية الجزائرية لمراقبة أممية ممّا ينجرّ عنه إقامة ملاحظين بالتراب التونسي ووصف هذا الإجراء بأّنه ضرب من العبث لا يمكننا قبوله أبدا وخصوصا إنّ هذه التدابير قد يفهم منها أن تونس تعترف بأن لها قسطا من المسؤولية في عبور اللاجئين الجزائريين إليها".[44]

هذا المقترح الفرنسي القاضي بنشر القوات الأمم على طول الحدود التونسية الجزائرية بهدف مراقبة كل التحركات كان يهدف جليا إلى القضاء على الثورة الجزائرية و ليس حلها و يزيد من تعقيدها الأمر الذي دفع بالحكومة التونسية إلى رفضه جملة و تفصيلا ، و ضل المنجي سليم في المضي نحو الإمام لكسب المزيد من الأصوات المؤيدة للقضية الجزائرية من خلال ضبط

اجتماع ضم وفود دول أمريكا الجنوبية استعرض فيه المراحلّ والتطورات الأخيرة للقضية الجزائرية وطلب منهم تأييد الوطنيين الجزائريين أثناء الدورة المقبلة للجمعية العامّة للأمم المتحدة.[45]

و من اجل التحضير للدورة المقبلة للأمم المتحدة عقد المنجي سليم اجتماع تنسيقي مع الوفد الجزائري المغربي وآخر مع الكتلة الإفريقية حول دعم القضية الجزائرية.[46]

وفي نفس السياق ألقى السفير التونسي المنجي سليم خطابا أمام اللجنة السياسية التابعة للأمم المتحدة لمناقشة القضية الجزائرية "ندّد على النظرية الفرنسية القائمة على تحييد الدول عن القضية الجزائرية القائلة إن حرب الجزائر لاتهم إلا فرنسا وتحدث عن حرّكة اللاجئين بتونس الانتهاكات التي يقوم بها الجيش الفرنسي بالجزائر على الحدود التونسية وطالب الأمم المتحدة بالتدخل لحلّ القضية الجزائرية "[47]

و أضاف أيضا أنّ هذه الحرب أصبحت تهدد السلم والأمن بالمنطقة التي تشهد حركة نزوح للاجئين إلى تونس بسبب اعتداءات الجيش الفرنسي و لاحظ انه من اللازم على الأمم المتحدة التدخل لوضع الحدّ لهذه التجاوزات الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره. أقامت السفارة التونسية بالأمم المتحدة حفل استقبال على شرف وفد جبهة التحرّير الوطني الجزائرية المشارك في مناقشات الأمم المتحدة بحضور عدة شخصيات.[48]

و اعترافا بالجميل للسفارة التونسية بعث وزير الأخبار الجزائري ورئيس الوفد الجزائري بالأمم المتحدة السيد محمد يزيد(49) برقية إلى الرئيس بورقيبة بعد الانتهاء من مناقشة القضية الجزائرية قائلا فيها":نريد أن نُعبّر لكم عن ارتياحنا لما برهن به الوفد التونسي برئاسة المنجي سليم من مساندة فعّالة للقضية الجزائرية.[49] العمل ع/ 980 ، 16 .ديسمبر 1960 .

كما تحدث أيضا مع الأمين العام للأمم المتحدة همر شولد لمدّة ساعة بشأن الأوضاع بالجزائر ثمّ اجتمع مع الكتلة الإفريقية الآسيوية لتنسيق المواقف حول القضية الجزائرية[50]

واستعدادًا لدورة الرابعة عشر للجمعية العامة الأمم المتحدة التي ستنطلق مع نهاية عام 1959 لمناقشة القضية الجزائرية و بهدف تنسيق المواقف و توحيد وجهات النظر عقدت الدول المغاربية اجتماعا ضمّ وفودًا من تونس والجزائر وليبيا والمغرب وترأس الاجتماع المنجي سليم[51]

كما تمكنت الدبلوماسية التونسية من تحقيق توافق بين دول الكتلة الإفريقية والآسيوية توج بلائحة مشتركة قدمت للأمم المتحدة تتعلق بمناقشة القضية الجزائرية. وقد حصل فعلا اتفاق بين

الأعضاء العشرة المتفرعة عن الكتلة الإفريقية الآسيوية والتي تضم تونس والمغرب وليبيا ودولا أخرى بعد اجتماع دام ساعتين وستقدم لائحة مشتركة للأمم المتحدة.[52]

و عند شروع الجنة الأولى الأممية في مناقشة القضية الجزائرية بداية من 30 نوفمبر إلى 7 ديسمبر 1959 قام المنجي سليم باتصالات واجتماعات مع مندوبي الدول الإفريقية الجديدة وصرّح" أنها ستؤيد وتصوّت لصالح القضية الجزائرية عند عرضها على بساط البحث بالأمم المتحدة وتباحث أيضا مع وزير الخارجية السينغالي الذي يقوم بزيارة إلى الأمم المتحدة وطلب منه دعم القضية الجزائرية بالأمم المتحدة"[53]

ومع افتتاح أعمال اللجنة السياسية التابعة للأمم المتحدة حول مناقشات القضية الجزائرية ألقى المنجي سليم خطابا جامعا فغمر الارتياح الدوائر الأممية وعند انتهائه أدلى أعضاء الوفد الجزائري بالتصريح التالي ":نودّ أن نُعبّر عن ارتياحنا لخطاب المنجي سليم الذي ساهم مساهمة كبيرة في نجاح القضية الجزائرية بالأمم المتحدة."[54] وفي هذا السياق أيضا أبرق وفد الحكومة المؤقتة الجزائرية من نيويورك برقية شكر إلى الرئيس بورقيبة هذا نصّها":يطيب لنا أن نعبّر لفخامتكم باسم وفدنا وباسمنا الخاص عن عظيم ارتياحنا للبيان الهام الذي ألقاه أخونا المنجي سليم بالجمعية العامة للأمم المتحدة وأننا نعتبر خطابه القيّم حول المشكل الجزائري مساهمة ذات أهمية كبرى لفائدة نجاح القضية الجزائرية والمغرب العربي وتفضلوا يا فخامة الرئيس بقبول احتراماتنا الفائقة من كريم بلقاسم[56]، أحمد فرنسيس[57]

(ج). مرحلة 1960 / 1962:

شهدت الثورة الجزائرية في هذه المرحلة تطورات هامة كانت بمثابة تحدي لسياسة ديغول الذي ركن إلى الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره و تأسيس الحكومة المؤقتة و انطلاق المفاوضات و دعمها بالمظاهرات داخل و خارج الوطن أبرزت أهميتها على الساحة الدوليّة كثورة عادلة تستحق الدعم و المساعدة فقدم الوفد التونسي بالأمم المتحدة مذكرة تطالب بتقديم القضية الجزائرية على القضية الثانية المدّرجة بجدول أعمال اللجنة السياسية للجمعية العامة[58]

هذا ما شجع أيضا كل من المنجي سليم سفير تونس بواشنطن والحبيب بورقيبة الابن سفير تونس بفرنسا للحصول على المزيد التأييد داخل الأمم المتحدة لصالح القضية الجزائرية فقاما بجهود

حثيثة تمهيدا لمناقشة الأمم المتحدة القضية الجزائرية حيث كانا يجريان محادثات في معابر الأمم المتحدة مع مختلف الوفود وخاصة وفود الدول الغربية والإفريقية لإقناعهما بالوقوف إلى جانب الوطنيين الجزائريين في مناقشات اللجنة السياسية التي ستفتح يوم 5 ديسمبر .1960[59]

كما واصل المنجي سليم مشاورات ومباحثات مع وفود دول أمريكا اللاتينية حيث اجتمع مع عشرين وفدا حثهم على اتخاذ موقف إيجابي إزاء القضية الجزائرية وقال" إنّ غرضنا هو وضع حدّ لحرب الجزائر ودعا ممثلي دول أمريكا اللاتينية إلى تأييد حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره [60].

ففي صباح يوم 15 ديسمبر 1960 وافتتحت جلسة الأمم المتحدة للجنة السياسية لاستئناف مناقشة القضية الجزائرية وأخذ الكلمة مندوب تونس المنجي سليم" وعبّر عن أسفه لموقف السنغال وتأسف لعدم مشاركة فرنسا في المناقشات وقال إنّ العدالة والحق يفرضان ربط مصير شعبنا نهائيا بمصير الشعب الجزائري وإنّ حرّية الجزائر لا بدّ أن تتم وتحصل عليها مهما تكن الوسائل ومهما يكن الثمّن وهذا الثمّن وهذه الوسائل هي تد خل الأمم المتحّدة"[61]

عالجت اللجنة السياسية القضية الجزائرية حيث تدخل سفير تونس بالأمم المتحدة بورقيبة الإبن وقال "بأنّ هناك تضارب بيّن في الإشاعات التي أحكم نسجها والقائلة بأن مفاوضات جزائرية–فرنسية سرّية تجري الآن، وستنتهي قريبا جدّا إلى مفاوضات علنيّة، وفي الواقع الذي نشاهده هو أعمال القمع المتواصلة، خاصة ضدّ الجزائريين الذين ينظمون مظاهرات سلميّة. وعلى الرغم من أنّ الجانبين يصرّحان برغبتهما في التفاوض وأن عقبة الصحرّاء التي كانت قائمة في الطريق قد زالت غير أنّ العالم ينتظر أن تصبح الأقوال أفعّالا وأن ترى التصريحات عن المبدأ وعن النوايا نور الواقع ....وأنّ وجود منظمة الجيش السرّي وانعدام الفاعلية من جانب الحكومة الفرنسية في مقاومة واضعي شحنات البلاستيك يُثيران الشك في حسن نية أحد الطرفين المتقاتلين... وإنّ الحكومة المؤّقتة الجزائرية ترغب في السلم لأنها في أمس الحاجة لطاقتها حّتى تنفقها في تجديد بناء البلاد الجزائريّة"[62]

فالسفير التونسي وبدهائه السياسي نبه إلى المناورات الفرنسية، والإشاعات التي ترّوجها لعرقلة وتأخير مناقشة القضية الجزائرية في الأمم المتحدة، والقائلة بوجود مفاوضات سرية مع الجزائريين وستظهر إلى العلانية .غير أن الواقع اثبت العكس بحكم تزايد القمع الفرنسي في حق الجزائريين وغض الحكومة لبصرها عما تحدثه منظمة الجيش السري من أعمال إجرامية التي تحصد

الأبرياء من الجزائريين، وهو ما يثير الشك في صدق الفرنسيين وحسن نواياهم تجاه الجزائريين رغم النية الخالصة لقيادة الجزائرية في السلم والتفاوض لتقرير مصيرهم للشروع في بناء دولتهم.

لكن إصرار فرنسا على البقاء على سياستها المبنية على المناورات للهيمنة على المفاوضات دفع بالحبيب بورقيبة إلى التصريح في حديث للتلفزة الأمريكية قائلا: "لن تُستأنف المفاوضات بين الجزائر و فرنسا ما لم يحدث تغير جذري في السياسة الفرنسية"[63].

فأمام ضغط الرأي العام الدولي، ورفض الطرف الجزائري تقديم أي تنازل عن ارض الجزائر وتمسكه بشروط وقف إطلاق النار المنصوص عليها في المواثيق الرسمية للثورة، بدأت الحكومة الفرنسية تتنازل شيئا فشيئا إلى أن أجبرت على توقيع اتفاقية الاستقلال في 18 مارس 1962 و توقيف القتال في 19 مارس 1962 و الاتفاق على الترتيبات الأخيرة كالاستفتاء حول تقرير المصير[64].

فبمجرد الإعلان عن وقف القتال هلل أحرار العالم، وشاركوا الشعب الجزائري المظفـــر فرحته فكتب محمد مزالي يقول :"بعد أكثر من سبع سنوات من الكفاح المرير والدماء والدموع، أعلن يوم 19 مارس المنصرم عن وقف إطلاق النار بالجزائر على أساس اتفاق بين الطرفين حول الاستفتاء الشعبي الذي سيعلن بعده عن استقلال الشقيقة الجزائر. ان وقف إطلاق النار ستواكبه مرحلة هامة يقرر فيه الشعب الجزائري مصيره بواسطة الاستفتاء الشعبي الحر الذي نضم فعلا يوم 1 جويلية 1962 [65].

هذا النصر المبين في نظر محمد مزالي لم يسجله المجاهدون الجزائريون لوطنهم فقط، و لم يثبتوا فيه أنهم جديرون بالحياة الكريمة فحسب، " بل هو أيضا تسجيل للحق على الباطل، وللخير على الشر، إنه خطوة في طريق تحرر الإنسان، وبلوغه أسمى المراتب وأقدس القيم في كل مكان، إنه قوة معنوية عارمة في خدمة التآخي و التقارب والغد الأسعد البسام."[66]

إن الدبلوماسية البورقيبية رغم حداثتها، ووقوعها على حبل مشدود بين فرنسا والجزائر وبين الحياد والاشتراك في الحرب، وحتمية الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري، فانه جديرة بالتقدير للدور الفعّال في التعريف بالقضية الجزائرية، واستغلال المنابر الدولية لخدمتها ونصرتها والدعاية لها. كما عملت على تدويل القضية الجزائرية وإخراجها من الثنائية الُقطرية والتأثير على الموقف البريطاني والأمريكي، إذ دافعت على القضية الجزائرية في منابر منظمة الأمم المتحدة

واستطاعت تفنيد الإدعاءات الفرنسية وكشف جرائمها في حق الشعب الجزائري والتونسي وكسب أنصار لها، وحقق ما لم تحققه الدول الأخرى، وذلك للاعتبارات التالية:

اولا: انفراده الايجابي بين الدول العربية وتضامنه المطلق مع القضية الجزائرية رغم الظروف السياسية الراهنة.

ثانيا: عمل على إخراج القضية الجزائرية من الثنائية القطرية بتدويلها وإدخالها في حظيرة الأمم المتحدة مستغلا منبرها للدعاية، والتعريف بها لكسب أنصار ومؤيدين، وفضح الممارسات القمعية الفرنسية في حق الشعب الجزائري، وجند الدول المعتمدة بها للتصويت لصالح القضية الجزائرية.

ثالثا: أثبت على قدرته على المناورة السياسية والتحكم في دواليب العمل الدبلوماسي بفضل كفاءات سياسية مثل بورقيبة و المنجي سليم، و ذلك بشهادة البعثة السياسية لجبهة التحرّير الجزائرية بالأمم المتحدة.

الـــهـــوامـــش :

(1) Bruno,(Etienne); L'unite maghrebine à l'épreuve des politiques étrangères nationales, p 102.

(2) Bruno,(Etienne); opcit, p 76.

(3) حول سياسة فرنسا التونسية التي قادت الى خطاب بيار منداس فرانس في 31 جويلية 1954 ثم إلى التوقيع على اتفاقيات الاستقلال الداخلي في 3 جوان 1955 ، ونتائج هذه السياسة فرنسيا ومغاربيا، انظر

(4) Gross,(Simone) : La politique de carthage.

.

(5) انظر خطابه يوم 7 جانفي 1960 في : بورقيبة (الحبيب) : " خطب " ، تونس، كتابة الدولة للإعلام 1977، الجزء التاسع، ص 296.

(6) Hadhri,(Mohiédine) : L'URSS et le Maghreb ; de la révolution d'octobre à l'Indépendance de l'Algérie, p 131.

(7) حاول النظام التونسي بدون شك استغلال الأوضاع الجديدة التي فرضتها حرب التحرير الجزائرية من أجل اقتلاع مزيد من التنازلات الفرنسية على طريق استقلال تونس فقد أكد المجلس الملي للحزب الدستوري الجديد في بيانه الصادر عقب اجتماعه أيام 21 و 22 و 23 نوفمبر 1956 ان " استقرار النظام لا يتحقق الا بإدخال تعديلات على الاتفاقيات تجعلها متسقة مع الواقع التونسي (...) ويدعو لتمكين الشعب الجزائري من التفاوض الحر".

(7) انظر نصر ،(مارلين): التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر (1952ـــ 1970) مرجع سابق، ص 15.

(8) انظر خطابه يوم 14/07/1956 في : بورقيبة (الحبيب): " خطب "، تونس ، كتابة الدولة للإعلام 1975، الجزء 2 ، ص 198.

(9) انظر خطابه يوم 14/07/1956 في: بورقيبة (الحبيب): "خطب"، تونس، كتابة الدولة للإعلام 1975، الجزء 2 ، ص 196.

(10) الحبيب بورقيبة: ولدى بمدينة المنستير بالساحل الشرقي من تونس في 3 أوت 1903 من عائلة متواضعة، زاول تعليمه بالمدرسة الصادقية ثم معهد كارنو ثم تحصل على الإجازة في الحقوق، انخرط في العمل السياسي مبكرا بانضمامه إلى الحزب الدستوري الحر التونسية 1922، مارس المحاماة منذ عودته من باريس سنة 1927 اشتغل بالصحافة واسس مع رفاقه جريدة "صوت التونسي"، وفي 1932 انشأ جريدة" العمل التونسي" تزعم حركة الانشقاق في صلب الحزب الدستوري وأعلن عن ميلاد حزب جديد تمخض عن مؤتمر قصر الهلال سنة 1934 وأطلق عليه اسم" الحزب الدستوري الجديد" انتخب أمينا عاما له، حيث تلقى عدة اعتقالات من طرف الإدارة الاستعمارية منذ 3 سبتمبر 1934 إلى 4 أكتوبر 1954 بلغت مدة سجنه 10 سنوات و 4 أشهر، قام بتوجيه المفاوضات التي قادت إلى توقيع اتفاقية الاستقلال الداخلي في 3 جوان 1955، انتخب في 8 افريل 56 رئيسا للمجلس التأسيسي، أعلن الجمهورية في 25 جويلية 1957 و انتخب رئيس للجمهورية في نوفمبر 1959 مكنه من ذلك من تأسيس للدولة التونسية الحديثة الى غاية عزله في 7 نوفمبر 1987. و توفي في 6 افريل 2000.

(10) صالح بن يوسف: صالح بن يوسف (1907 - 1961)، هو أحد أبرز القادة السياسيين التونسيين اشتغل كأمين عام للحزب الحر الدستوري الجديد كما عارض اتفاقية الاستقلال الداخلي ادخل مع بورقيبة في صراع مفتوح.

(12) انظر خطابه يوم 12جانفي 1952 في: بورقيبة (الحبيب): "خطب"، تونس، كتابة الدولة للإعلام 1974، الجزء 1 ، ص 316.

(13) انظر مقالا حول حركة الفلاقة الجدد ومناطق عملياتهم في:

-LE PETIT MATIN DU 29/01/1956

(14) العمل: جريدة نصف أسبوعية ثم أسبوعية وهي سياسية إخبارية لسان حال الحزب الدستوري الجديد وأصدرت أول أعدادها 1 جوان 1934 ومديرها الحبيب بورقيبة. وبعد 1955 .أصبحت يومية وآخر أعدادها 198 .

(15) جريدة سياسية إخبارية جامعة أصدرت أول أعدادها يوم 1 نوفمبر1851 قريبة من الحزب الدستوري الجديد ومديرها الحبيب شيخ روحه.

(16) لباجي،(قايد السبسي): الحبيب بورقيبة المهم والاهم ، دار الجنوب للنشر تونس فيفري 2011 ص 225.

(17) الباجي، (قايد السبسي): المصدر نفسه، ص 312

(18) الحبيب،(بورقيبة): الحبيب بورقيبة حياتي جهادي ص 148.

(19) الحبيب،(بورقيبة): نفسه، ص148.

(20) المنجي سليم (1908 1969)، ديبلوماسي تونسي قلد عدة مناصب في الدولة منها وزيرا للداخلية ثم الشؤون الخارجية و سفيرا بالولايات المتحدة

(21) خطاب بورقيبة يوم 18 جوان 1956في: بورقيب الحبيب ، خطب ، تونس كتابة الدولة للإعلام الجزء الثاني ص 134.

(22) - بورقيبة ، خطب، الجزء الأول، تونس 1974 ، ص100

(23) حبيب (حسن اللولب) : التونسيون و الثورة الجزائرية، رسالة دكتورة ، غير منشورة ، ص 222.

(24) مجلة اول نوفمبر ع/ 155 / 156 سنة 1997 القضية الجزائرية في الامم المتحدة ، ص30

(25) الباجي (قايد السبسي): المصدر السابق ، ص 313.

(26) الحبيب بورقيبة خطب 9 نوفمبر 1956 ج3 ص 112.

(27) الصباح، ع/ 1513 ، 23، نوفمبر 1956 ، ص 1 .

(28) العمل، ع/ 373 ، 4جانفي1957 ، ص1 .

(29) الصباح، ع/ 1587 ، 07 فيفري1957 ، ص 1 و 4

(30) العمل ،ع/ 403 ، 8فيفري1957 ، ص 1 و6

(31) العمل، ع/ 408 ، 14فبفري1957 ، ص1

(32) العمل، ع/ 497 ، 29ماي 1957 ،ص1 .

(33) محمود المسعدي (1915 – 2005) كاتب ومفكر تونسي. انخرط في السياسة، حيث تولى مسؤولية شؤون التعليم في حركة الاستقلال الوطني ا عام تولى وزارة التربية القومية، و وزارة الشؤون الثقافية.

(34) العمل ع/ 606 ، 5اكتوبر1957 ، 1ص 1 و2

(35) العمل ع/،637 ، 9نوفمبر1957 ، ص1

(36) العمل ع/ 653 ، 28نوفمبر1957 ، ص1.

(37) العمل ع/ 655 ، 30نوفمبر1957 ، ص 1 و2

(38) العمل ع/ 661 ، 7 ديسمبر 1957 ،ص1 و2

(39) . مجلة اول نوفمبر ع/ 155 / 156 سنة 1997 ، ص30

(40) العمل ع/ 717 ، 12فيفري1958 ، ص 1 و2 .

(41) العمل ع/ 721 ، 15فيفري1958 ، ص1

(42) الهادي،(بكوش): الاعتداء الفرنسي على ساقية سدي يوسف الوقائع و التداعيات ، تعريب احمد العايد و محمد بلحاج ، جامعة منوبة منشورات المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنية ، 2008 ص 65.

(43) العمل ع/ 748 ، 19 .مارس 1958 ، ص1

(44) العمل ع/ 760 ، 2 .أفريل 1958 ، ص 1 .

(45) العمل ع/ 970، يوم 4 ديسمبر 1958 ، ص 1 ،

(46) العمل ع/ 972 ، 6 ديسمبر 1958 ، ص 1 ،

(47) العمل ع/ 974 ، 9 ديسمبر 1958 ، ص 1

(48) الزهرة ، ع 15 ، ، 15 ديسمبر 1958 ، ، ص1

(49) محمد يزيد: و من مواليد البليدة بالجزائر سنة 1923 ، انخرط في صفوف حزب الشعب الجزائري عام 1942، انتخب كاتبا عاما لجمعية مسلمي شمال إفريقيا 1946 - 1947. في سنة 1948 أنتخب عضوا في اللجنة المركزية من سنة 1950 إلى 1954 .. مثل الجزائر في مؤتمر باندونغ 1955. عين ممثلا لجبهة التحرير الوطني في أمريكا من 1955 ثم صارا عضوا في المجلس الوطني للثورة سنة 1956 و في تشكيلة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كوزير للأخبار و الناطق الرسمي لها من 1958 إلى 1962.

(50) العمل ع/ 990 ، 16ديسمبر 1958 ، ص 1

(51) الصباح ع/ 1071 ، 1افريل 1959 ، ص1 .

(52) الصباح ع/ 1071 ، 1افريل 1959 ، ص 1 و 2.

(53) الصباح ع/ 1274 ، 27نوفمبر 1959 ، ص 1 .

(54) الصباح ع/ 1272 ، 2ديسمبر 1959 ، ص 1

(55) الصباح ع/ 1540 ، 2 اكتوبر 1960 ص1 و 4 .

(56) كريم بلقاسم (1922 - 1970) هو أحد مفجري الثورة وأحد أعضاء المجموعة الستة وقائدا للمنطقة الثالثة "القبائل"، وصار عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ بعد مؤتمر الصومام. شغل منصب وزير القوات المسلحة ثم الشؤون الخارجية وأخيرا وزيرا للداخلية. في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وقع اتفاقيات ايفيان بعد الاستقلال .

(57) احمد فرانسيس: من مواليد مدينة غليزان سنة 1912 ، متحصل مارس نشاطه السياسي مع فرحات عباس.شارك معه في تأسيس حركة أحباب البيان و الحرية . و الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ، انظم الثورة التحريرية سنة 1956 و عين عضوا إضافيا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، ، عين وزيرا للمالية في لحكومة المؤقتة الاولى للجمهورية الجزائرية برئاسة فرحات عباس ثم شارك في مفاوضات إيفيان الأولى .

(58) الصباح ع/ 1548 ، 12 اكتوبر 1960 ، ص1.

(59) الصباح ع/ 1572 ، 9 نوفمبر 1960 ، ص 1 .

(60) الصباح ع/ 1582 ، 20نوفمبر 1960 ص 1 و 4 .

(61) العمل ع/ 980 ، 16 .ديسمبر 1960 .

(62) الصباح ع/ 1918 ، 20ديسمبر 1961 ، ص6 .

(63) الصباح ع/ 1918 ، 20ديسمبر 1961 ، ص6 .

(64) الصباح ع/2590 ، 11ديسمبر 1960 ص1

(65) محمد مزالي، من وحي الفكر، منشورات الفكر ص 106

(66) المصدر نفسه، ص 106

المـــلاحـــق:

صور للحبيب بورقيبة مساعيه الدبلوماسية في مجلة الشباب التونسية

أصداء دبلوماسية على صفحات جريد الصباح التونسية تخص القضية الجزائرية1959

عبد الرحمن بدوي بين الفلسفة والسياسة

د. أحمد سليماني.

– جامعة البويرة –

الملخص: يعالج هذا المقال بعض جوانب الفكر السياسي لدى الفيلسوف الوجودي العربي عبد الرحمن بدوي، ذلك لأن فكره السياسي يعد الجانب الأفقر في كتاباته الفلسفية، ومرد ذلك إلى فلسفته الوجودية التي تتسم بالذاتية والفردية، وبالتالي تهمل الجانب الاجتماعي ولا تأبه به، لكن وبالرغم من ذلك، فإننا نجد أن بعض مؤلفاته الفلسفية وردت بتأثير من الظروف السياسية والاجتماعية لعصره، حيث أظهر فيها بعض الآراء والمواقف السياسية التي تنم عن فكر سياسي في مؤلفاته وأعماله، وإن لم يظهر بصورة واضحة و لم يعرض في نسق محدد.

Abstract : We deal from this article some aspects of political thought in the Arab existentialist philosopher, Abderrahmane Badawi. In fact, this thought has the poorest side in his philosophical writings, certainly due to his existentialist philosophy based on subjectivity and individuality while neglecting social conditions. However, some of his works reflect the influence of political and social conditions of his time.

مقدمة: يحتل المفكر العربي عبد الرحمن بدوي (1917-2002)، مكانة بارزة في تاريخ الفكر العربي المعاصر، وهي مكانة يكاد لا يضاهيه فيها أحد من أعلام الفكر العربي، وذلك لما قام به من جهود ضخمة وإسهامات عديدة في مجال الدراسات الفلسفية والأدبية، حيث أغنى الثقافة العربية بما خلفه من مؤلفات كثيرة ومتنوعة، وهي بحق ثروة فكرية، أثرى بها المكتبة العربية، بالتأليف والترجمة، وبجهود بارزة في تحقيق كنوز التراث العربي الإسلامي، بالإضافة إلى الجانب الهام من مؤلفاته التي قدم فيها مشروع الوجودية العربية.

بيد أن الفكر السياسي يمثل الجانب الأفقر في كتاباته الفلسفية، ذلك لأنه عنى بالسياسة، و لم يعن بها فلسفيا و لم يضع نظرية في السياسة أو الدولة أو الحكومة أو السلطة[1]، ومرد ذلك إلى نزعته الوجودية التي تتسم بالذاتية والفردية، وإلى طابع الوجود الذاتي الأصيل، أما الوجود الاجتماعي والسياسي، فهذا معناه حسب عبد الرحمن بدوي الابتعاد عن الذاتية والذوبان في النزعة الجماعية. وهذا ما يفيد أن الوجود الذاتي هو وحده الوجود الحق والأصيل، وما عداه فوجوده زائف. ومثل هذه الفلسفة تقوم على الانفصال بين الذوات، لا على اتصالها أو تواصلها، فهل ظل عبد الرحمن بدوي حبيس ذاتيته التي غلق من دونها الأبواب والنوافذ، و لم يعن بالمسائل

السياسية والاجتماعية؟ ويحسن بنا قبل الإجابة عن هذا السؤال، أن نتحدث بصورة موجزة عن فلسفته الوجودية.

وجودية عبد الرحمن بدوي:

لم يتجرأ أحد من كبار المشتغلين بالفلسفة في العالم العربي كجرأة عبد الرحمن بدوي، عندما أطلق على نفسه لقب الفيلسوف، وراح يقدم نفسه- وهو في ربيع العمر- على أنه صاحب فلسفة، وفلسفته هي الفلسفة الوجودية في الاتجاه الذي بدأه الوجودي الألماني هيدغر((Heidegger)1889-1976)، وأنه أسهم أيضا في تكوين الوجودية من خلال كتابيه: "مشكلة الموت في الفلسفة الوجودية" و"الزمان الوجودي".[2] وخلاصة مذهبه الوجودي نعرضها فيما يلي:

الوجود عند بدوي نوعان: وجود الموضوع ووجود الذات، والمقصود بوجود الموضوع، وجود الموضوعات الخارجة عن الذات العارفة، أي وجود الأشياء في الزمان والمكان، وهي أدوات أي أشياء يحيل بعضها إلى بعض، فهو وجود ليس يعرف ذاته[2]. كما يسمي بدوي وجود الموضوع أيضا بالوجود الفيزيائي.[3]

أما وجود الذات أو الأنا، فالأصل فيه أن يعرف ذاته، وقيمته الكبرى في هذه المعرفة الذاتية الباطنية التي يكون فيها الأنا في علاقة ونسبة مع نفسه، والإحالة هنا تختلف عن الإحالة في وجود الموضوع، فالذات لا تحيل إلا إلى نفسها، ولا تتسم بسمة الأداة، وإنما بسمة التوتر الحي، فوجود الذات يمتاز بأنه وجود شاعر بوجوده، بينما وجود الموضوع وجود محيل إلى غيره.[4]

وينتهي بدوي إلى أن الوجود المعين هو إما وجود الذات أو وجود الموضوع، ولا يمكن فهم أحدهما دون الآخر، ذلك لأن وجود الذات لا يفهم مستقلا عن عالم من الموضوعات، فيه تحقق الذات إمكانياتها عن طريق الفعل وممارسة الأدوات، وما دام التحقق لا يتم إلا في عالم من الموضوعات، فإن الذات لا بد أن توجد في العالم، فالوجود-في -العالم صفة ضرورية للوجود الممكن.[5] ووجود الذات عند بدوي ينقسم بدوره إلى نوعين اثنين: ذات مريدة حرة لا تحتوي غير إمكانيات لم تتحقق بعد، وذات قد اختارت فتحقق بعض إمكانياتها، وهي في طريقها إلى تحقيق الكل، وهذا التحقيق يتم في وسط الأشياء.

والوجود على النحو الأول هو ما يسمى بالوجود الذاتي الممكن، ولما كانت هذه الإمكانيات جوهر الذات وماهيتها فيمكن أن تسمى بالوجود الماهوي، أي الوجود الذاتي على صورة إمكانيات ذاتية لم تتحقق كلها بعد، أو لم يتحقق منها شيء، وأخص ما يمتاز به الوجود الماهوي هو الحرية المطلقة[6]. كما أنه هو الوجود الحقيقي لأن الصلة فيه تقوم بين الذات وبين نفسها، وهذه الذات ليست كلية بالمفهوم الهيغلي، بل فردية إلى أقصى درجات الفردية، إنها فردية مطلقة، فهي الوجود الأصيل، أي الأصل الذي منه تصدر كل أفكار الذات وأفعالها[7]، أما وجود الموضوع، أو الوجود بين الموضوعات، فهو وجود زائف فيه تشتت وضلال، وتزييف للذات الحقيقية، لأني -كما يقول بدوي- لا أكون فيه مالكا لذاتي، وهنا ينشأ السقوط أي سقوط الذات. والسقوط هنا لا ينبغي أن يؤخذ بالمعنى الأخلاقي، بل بمعنى الحضور بين الأشياء.

ويأتي السقوط عندما تنتقل الذات من حال الوجود الماهوي أو الممكن إلى حال الوجود العيني المتحقق في العالم، وهذا هو النوع الثاني من وجود الذات الذي يسميه بدوي بالآنية أو الدازين *"Dasein" بلغة هيدغر، أي الوجود هناك. ويقصد بدوي بالآنية ظهور الوجود دون اتضاح الماهية[8]. كما يرى أن الوجود يتكون من ذوات، كل منها قائم بنفسه، مغلق عليه في داخل ذاته، ولا اتصال بين ذات وأخرى، مما يعني أن تصورنا للوجود يكون على نحو الكم المنفصل.[9] والذات في حال الوجود الماهوي، تكون في عزلة تامة، ولا صلة لها البتة مع الذوات الأخرى، أو مع الأشياء في العالم، ففي ذلك تدنيس لها وتعكير لصفائها وفض لبكارتها.[10]

أما وجود الغير فلا نسبة له إلى الذات إلا من حيث الفعل، ذلك لأن الفعل ضرورة للذات، ففيه تحقيق لإمكانياتها، والذات كيما تحقق نفسها لا بد لها إذن أن تفعل، ولا يتم الفعل إلا في وجود الغير.[1] كما أنه أن ليس ثمة فارق ضخم بين وجود الغير كذوات واعية أو كأشياء جمادية، فكلاهما بالنسبة إلى الذات المفردة من ناحية المعنى سيان[2]، فالغير إما أن يكون ذوات أخرى أو أشياء[3].

---

* – كان طه حسين هو الذي أشار إلى بدوي كي يترجم الكلمة الألمانية دازاين Dasein بالآنية، وهذا بالرغم من صعوبة ترجمتها إلى اللغات الأخرى. انظر بدوي: الزمان الوجودي، حاشية الصفحة 05. ويكاد اليوم يجمع الكثير من الباحثين والدارسين من العرب وغير العرب انه من العسير أن نجد للكلمة الألمانية Dasein مقابلا دقيقا في أية لغة أخرى. ويفضل الكثيرون الإبقاء على المصطلح بلغته الأصلية دون ترجمة.

ولما كان الوجود الذاتي وجود مستقل بنفسه، معزول عن غيره، فلا مجال -كما يرى بـــدوي- للتفاهم بين ذات وأخرى، فكل ذات هي عالم قائم بذاته، وينفي بدوي كل اتصال بين الذوات لأن «كل ذات مستقلة على نفسها (...) والاتصال معدوم بين الذوات، فهي على هيئة وحدات عددية لا سبيل مطلقا إلى اجتياز ما بينها من هوات بطريقة متصلة، إنما السبيل إلى ذلك الطفـــرة من الذات إلى الذات».[4]

ولا شك أن تأكيد الذاتية يفضي إلى تأكيد الحرية، والشعور بالذات يقتضي الشعور بالحريـــة[5]، كما أن انتقال الذات من الوجود الممكن إلى الوجود الواقع يكون بفضل الحرية، وبواسطة الحرية التي للذات الممكنة تختار الذات بعضا من أوجه الممكن وتحققه عن طريق الإرادة ، وهذا التحقق العيني يتم في العالم ويسمى حينئذ بالآنية.[6] وطالما كانت الذات داخل نفسها وحيدة وإياها، فهي في حال من الحرية المطلقة، وتقل هذه الحرية حين تنتقل من عزلتها إلى الاتصال، وأقل الناس حرية أكثرهم ارتباطا بالناس وبالأشياء،وأكبرهم حرية اقلهم ارتباطا بالغير.[7]كما أن الشعور بالـــذات يزداد بمقدار ما يزداد الشعور بالحرية، والذات البكر هي التي تستمد وجودها من الينبوع الصافي للوجود الحقيقي، وهي الذات الحرة إلى أقصى درجات الحرية، والحرية هي رمـــز الإلوهيـــة في الإنسان.[8]وهكذا إذن تتأسس الحرية عند بدوي ضمن تصوره للوجود وخصائصه. فالوجوديـــة معناها الفردية والفردية معناها الذاتية والذاتية معناها الحرية.[9]

وخلاصة القول إن الوجود وجودان: وجود الذات أو وجود الموضوع، مع تجاهل كلي للوجود السياسي والاجتماعي، أي التاريخ والمجتمع كما لاحظ ذلك أحد الباحثين[10]، غير أن مثل هـــذا التجاهل يتناسب وفلسفة بدوي الوجودية، ذلك لأن الوجود الاجتماعي لا يمثل شيئا بالنسبة إليه، فهو مجرد تجريد أجوف، ومع ذلك فالوجود الاجتماعي يمكن إدراجه ضمن النوع الثـــاني مـــن تصنيف بدوي للوجود، أي وجود الموضوع. ذلك لأن الوجودية كما يرى "جون ماكوري"، هي «في أساسها فلسفة فردية شخصية حتى في تلك الصور التي سعت فيها إلى تطوير فهم للعلاقات بين الأشخاص، بحيث إنه عندما يود المرء أن يدرس الأمم والشركات الكبرى واتحادات العمال والأحزاب السياسية وما إلى ذلك فلن يجد للوجودية علاقة تذكر بهذه الموضوعات»[11]. فهل يعني هذا أن الوجودية لا سياسية؟ أو أن التنظيمات السياسية هي موضوع لا يكترث به أصـــحاب الفلسفة الوجودية؟ [12] بالطبع كلا، ذلك لأن غياب الفلسفة السياسية عند الوجـــوديين عمومـــا وعند رائد الوجودية العربية خصوصا، لا يعني غياب مضامين سياسية وجهت فكرهم الفلسفي،

كما يمكن القول أيضا إن «قلة عناصر السياسة العملية والنظرية في كتابات عبد الرحمن بدوي- هي بذاتها- موقف سياسي، وشحوب الفلسفة السياسية في مذهبه الفلسفي -بذاته- موقف فلسفي»[13].

وسنحاول فيما يلي عرض بعض مواقف وآراء عبد الرحمن بدوي السياسية من خلال نشاطه الحزبي، وهذا من شأنه أن يعكس لنا الفترة التاريخية التي عايشها، وهي من دون شك، فترة غنية بتحولاتها وانقلاباتها، ولا يمكن لهذا الأمر أن يتضح إلا بمعرفة المناخ السياسي الذي كان سائدا وقتذاك،سواء أكان داخل مصر أم خارجها. فمن الناحية السياسية، كان بدوي في عنفوان شبابه مناضلا حزبيا،كما كان مخضرما، عاش عصري الملكية و الجمهورية في بلاده مصر العربية، مما يعني أنه كان شاهدا على ما سمي بالثورة المصرية في يوليو من عام 1952، كما كان أيضا شاهدا على الاستعمار الإنجليزي لبلاده، ونكبة فلسطين عام 1948، وقيام الحركة النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، وأهم حدث عاصره كان اندلاع الحرب العالمية الثانية، ويضاف إلى ذلك كله ،هزيمة حزيران المعروفة بنكسة 1967، وغير ذلك من الأحداث التي لا بد أن يكون لها بعض التأثير في فكره وأعماله.

عبد الرحمن بدوي ونشاطه السياسي الحزبي:

يمكن تتبع مواقف عبد الرحمن بدوي وآرائه السياسية في بداية اتصاله بالعمل السياسي الحزبي، وهو لايزال طالبا جامعيا، فلم تكن الحياة الجامعية العلمية لتمنعه من الاهتمام بما يجري على الساحة الوطنية والدولية،فقد عرفت مصر إبان العهد الملكي وقبل ما سمي بثورة يوليو 1952، حركة سياسية نشيطة، و تعددية حزبيةغير معهودة، وكان أشهر الحركات السياسية آنذاك حزب الوفد الحاكم وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطني، بالإضافة إلى جماعة الإخوان المسلمين.

بيد أن بدوي لم ير في هذه الأحزاب القائمة، ما يحقق له بغيته ويتجاوب مع طموحاته، ولهذا لم يكن متحمسا للعمل السياسي في بادئ الأمر، غير أنه بعد ذلك، سيكون له نصيب من المشاركة السياسية، ففي سنة 1938، انضم إلى حزب راديكالي وهو حزب "مصر الفتاة" الذي أسس سنة 1933، من قبل جماعة تأثرت بزعيم الحزب الوطني المصري "مصطفى كامل"(1874-1909) والذي كان ينادى باستقلال مصر عن التاج البريطاني داعيا إلى مجد مصر، وقد أشاد بدوي

في سيرته بهذا الرجل، الذي اطلع على رسائله وخطبه الحماسية، التي حركت فيه الوطنية وألهبت فيه الحماسة والإخلاص نحو الوطن.[14] وما يعرف عن هذا الحزب، أنه كان أكثر ميلا إلى الثقافة الألمانية وإلى دول المحور كألمانيا وإيطاليا، ولا يخفى عنا أن الفترة التي شب فيها بدوي هي فترة العالم ما بين الحربين العالميتين، وفترة ظهور النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا.

وما يعرف أيضا عن حزب "مصر الفتاة" أنه ذو ميول نازية، وفي هذا يحدثنا المفكر العربي "محمود أمين العالم"(1922-2009)، أن« زعيم هذا الحزب "أحمد حسين" أصدر كتابه "إيماني"،على غرار كتاب هتلر "كفاحي" (...) وكانت فلسفة القوة والاستعلاء متمثلة في شعار "مصر فوق الجميع"، و"المجد لمصر"، متماثلة مع شعارات الحزب النازي. لقد كان حزب مصر الفتاة في الحقيقة يسير على الخطى والمفاهيم والقيم الفلسفية المثالية واللاعقلانية للحزب النازي»[15].

عبد الرحمن بدوي والنازية:

كتب عبد الرحمن بدوي مقالات سياسية عن النازية والفاشية في الجريدة التابعة لحزب "مصر الفتاة"، بوصفه محررا للشؤون الخارجية، كما أنه يبدي أيضا في كتابه "سيرة حياتي" إعجابا مفرطا بـ"هتلر" وبمبادئ الحزب النازي[16]، وهنا نتساءل ما إذا كان عبد الرحمن بدوي المناضل في حركة "مصر الفتاة" ذا ميول نازية أو فاشية؟ ثم ما صلة ذلك باتجاهه الفكري والفلسفي؟ وما حقيقة العلاقة التي تربط رائد الوجودية العربية بالنازية؟ وما الصلة بين نزعته الإنسانية الوجودية وانتمائه إلى حركة سياسية ذات ميول نازية؟

وفي هذا الصدد، يذهب الدكتور مراد وهبة إلى أن أعمال بدوي الفلسفية وآراءه، تعد تجسيدا للأفكار النازية، زاعما بقوله: « إن بدوي لم يكن ينتقي من منتجات العقل الأوربي إلا ما يتفق ومتطلبات النازية من تمجيد للفرد القائد والمجموع الخاضع، وهذا هو مغزى انتقاء "نيتشه" كمفتتح لسلسلة خلاصة الفكر الأوربي»[17]. كما يصر مراد وهبة، على وجود تشابه بين بدوي وهيدغر، من حيث إعجابهما بهتلر والنازية.[18]

أما الأستاذ" يحي هويدي"- أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب- فقد ذهب إلى حد توكيد صلة وطيدة بين الفلسفة الوجودية والحركة النازية، وذلك في مقاله الموسوم بـ"الوجودية تلقى حتفها"، حيث يعلن قائلا: «إنه لا حياة للوجودية إلا في ظل النازية وما شابهها من أنواع الحكم،

أما وقد انتهت النازية إلى غير رجعة، فقد آن للوجودية كذلك أن تفارقنا (...) وعلى كتابنا الأفاضل الذين يتحمسون غاية التحمس للوجودية، أن يطامنوا قليلا من حماستهم »[19]. ولا شك في أن هذا الكلام موجه ضمنيا إلى رائد الفلسفة الوجودية العربية، من أستاذ ذي توجه فكري وسياسي ينهل من الفلسفة الاشتراكية، وينادي صاحبه بتطبيق عربي للاشتراكية، بل بالأحرى يدعو إلى إضافة عربية جديدة للاشتراكية[20]. وبالإضافة إلى ذلك، نجد باحثا آخر يؤكد نازية بدوي بقوله: « ليس هناك إذن من شك في نازية عبد الرحمن بدوي»[21].

وفي رأينا أن المسألة لا تبدو بهذه البساطة، فما لم يذكره مراد وهبة وغيره ممن عرضنا مواقفهم، هي الظروف والعوامل التاريخية التي جعلت بدوي يميل إلى ألمانيا ويؤيدها، ولم يكن وحده في ذلك، لندع بدوي بنفسه يوضح لنا سر تعلقه بألمانيا النازية، حيث يقول في كتابه "سيرة حياتي":

« نشأت في وسط شديد الإعجاب بألمانيا، وكان يتمنى لها الانتصار في الحرب العالمية الأولى (...) وهذه الحماسة لألمانيا وترجي انتصارها (...) ترجع إلى عدة عوامل منها: أنها كانت حليفة لتركيا ونحن كنا في مصر لا نزال متعلقين بتركيا بوصفها مقر الخلافة الإسلامية(...)ومنها أن عدونا الحقيقي انجلترة، لهذا كنا نتمنى لها الهزيمة، ومن ذا الذي كان عليه أن يهزمها آنذاك إلا ألمانيا؟- وهو نفس السبب الذي جعل المصريين بعامة أثناء الحرب العالمية الثانية يبتهجون لانتصارات ألمانيا و يتمنون لها النصر الأخير»[22].

أضف إلى ذلك، زيارته لألمانيا، والتي كانت دافعا وراء تبلور أفكاره السياسية، وأهمها فكرة حب الوطن، أي الوطنية النابعة من صميم الشعور بوطنه مصر ومكانتها في الماضي، وما يأمله من استرداد مكانتها في المستقبل، ولهذا رأى أن أحسن نموذج لتحقيق أمله هذا، هو احتذاء النموذج النازي الألماني، ولا يرى حرجا في ذلك طالما أن ألمانيا لم تستعمر مصر ولا أي بلد عربي أو إسلامي، كما أن الإعجاب بألمانيا كان أصيلا في الشعب المصري بل وسائر الشعوب العربية والإسلامية[23].

وبهذا، يتبين لنا بوضوح السر وراء كل هذا التأييد و النصرة لألمانيا، لا لشيء إلا من أجل الوطن، والسعي إلى التحرر والاستقلال عن بريطانيا، فالتوجه نحو ألمانيا والنازية كان سياسيا أكثر منه فكريا أو فلسفيا، فهو توجه أملته الظروف السياسية، و كان بدوي يدرك وبوعي سياسي، أن

اختلال موازين القوى في العالم آنذاك، قد يؤدي إلى حدوث تغيير ما، فإذا انتصرت ألمانيا على انجلترا فستكون الفرصة مواتية لتتخلص مصر من احتلال بريطانيا لها ، ومعها باقي الدول العربية المحتلة من قبل الحلفاء، ولما كانت النازية أيضا معادية لليهود، فسيتخلص العرب كذلك من الصهيونية، وتصير فلسطين عربية خالصة[24].

ولئن سارت عجلة التاريخ بغير ما كان يتمناه بدوي ويشتهيه ، إلا أن صلته بألمانيا النازية اقتضتها الظروف السياسية التي عاشها، إنها- كما ذكر محمود أمين العالم-«مرحلة في حياة عبد الرحمن بدوي، بل في تاريخنا الحديث غير منعزلة عن واقع مصر السياسي والاجتماعي والصراع العالمي المحتدم آنذاك (...) وبعض أبناء جيل هذه المرحلة، من تاريخ مصر (...) كانوا يبحثون عن صياغة جديدة لمعالم ذاتيتهم، وهويتهم العميقة الخاصة، وقد اتخذ هذا البحث اتجاها وطنيا مثاليا استعلائيا في حركة مصر الفتاة»[25]. والمقالات التي كان بدوي يكتبها عن النازية والفاشية « فما هي إلا كتابة حزبية ضد الأحزاب الأخرى التي تؤيد الملك والإنجليز، وتشيد بحزب مصر الفتاة، فالسياق هنا يأتي عبر الصراع السياسي الحزبي»[26].

أما عن علاقة بدوي بالفيلسوف نيتشه(Nietzsche)(1844-1900)، فجدير بالذكر أن أول كتاب يؤلفه بدوي كان حول "نيتشه" الذي أصدره سنة 1939 ضمن سلسلة سماها "خلاصة الفكر الأوربي". ويعد هذا الكتاب الذي أنتجه وهو ابن الثانية والعشرين، -وفي حدود ما نعلمه-، أول دراسة عربية شاملة لفلسفة نيتشه،كما أنه يقر بتأثره الكبير بنيتشه، فقد عده إلى جانب "هيدغر" ثاني اثنين كان لهما التأثير القوي على تطور فلسفته.[27]

وما أثير عن وجود آراء نازية في مؤلفات بدوي الفلسفية، من خلال تأثره الكبير بنيتشه وهيدغر، فهي التهمة نفسها التي اتهم بها هذين الفيلسوفين، فالأول قيل عن أفكاره مثل الذاتية والإنسان الأعلى وإرادة القوة، أنها كانت السبب في ظهور النازية، فأنتجت بذلك أشد الحركات عنصرية وتطرفا وقادت العالم إلى حرب كونية مدمرة. غير أن مسألة ارتباط النازية بنيتشه، مسألة فيها نظر، فهذا الفيلسوف "برتراند رسل" (1872-1970) (B. Russel)، يرى أنه « ليس من العدل أن نعده - أي نيتشه- مسؤولا عن شرور أناس لم يفهموه في أحسن الأحوال إلا فهما سطحيا. ذلك لأن نيتشه كان خليقا به أن يعارض بقوة ما طرأ على بلده ذاته من تطورات سياسية، لو كان العمر قد امتد به حتى يشهد هذه التطورات»[28].

هذا عن نيتشه، أما هيدغر، فقد «أثير جدل طويل عما إذا كانت فلسفته تستتبع النازية بالضرورة*، وفي هذا رأى بعض الدارسين أن النازية لا تلزم عن الفلسفة الوجودية بالضرورة.»[29] ولهذا، لا ينبغي الخلط بين الموقف الفلسفي والموقف السياسي الآني الذي تمليه الظروف وتحـــدده دواعي الانتماء الوطني، مما يعني كذلك أنه لا علاقة البتة بين الوجودية و النازية، ثم كيف نفسر مقاومة الوجودي الفرنسي سارتر للنازية وهو في جبهات القتال ، وبهذا فمن «التعســـف أن نجعـــل الوجودية مرادفة للنازية، وإلا تجاهلنا بهذا مفهوم الحرية الفردية التي تقوم عليهـــا هـــذه الفلسفة، سواء عند كيركغار أو هيدغر أو مارسل أو سارتر، فالإنسان في الوجودية محكوم عليه بالحرية...»[30] . فلا جدوى إذن من الحديث عن آراء نازية في أعمال بدوي ومؤلفاته ولا حتى في فلسفته الوجودية، فلا صلة للفلسفة الوجودية بالنازية. فلم يكن بدوي نازيا كما أشيع عنـــه، ذلك لأن اتجاهه الفكري والفلسفي لا يتمشى والنظام النازي الاستبدادي المعادي للحريـــات، ولهذا كان يميل ميلا كبيرا نحو الليبرالية والديمقراطية، وهذا نجده واضحا صريحا في كتابه سيرة حياتي، حيث يكشف لنا عن اتجاهه السياسي نحو الديمقراطية الليبرالية، وهذا عند تعيينه عضوا في لجنة إعداد دستور جديد لمصر بعيد إسقاط الملكية، وحري بنا قبل عرض بعض آرائه الليبرالية، أن نبرز موقفه من حدث تاريخي هام وهو قيام ما سمي بالثورة المصرية في سنة 1952، والتي أطاحت بالنظام الملكي.

بدوي و"الثورة المصرية":

ما يلاحظ في شهادة الوجودي العربي على ما سمي بالثورة المصرية سنة 1952، تردد بـــين تسميته بالثورة تارة، وهذا في موسوعته الفلسفية[31]، وبين تسميته بالانقلاب تارة أخرى كما ورد في كتابه "سيرة حياتي"[32]، وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال، أن موقفه من ذلـــك الحـــدث متناقض، بل كان له في بادئ الأمر موقف إيجابي، لحسن ظن منه أن التغيير نحو الأفضل سيكون على يد "الضباط الأحرار"، ولهذا كان شديد الحماسة لهم، فعمل على تأييدهم، وجدير بالذكر أن بعضهم كان قد سمع عنه،أو قرأ بعض كتبه [33]، ولهذا اختاروه بعد ذلك عضوا في اللجنة الـــتي

*-عندما تولى هتلر السلطة عام 1933، قبل هيدغر منصب مدير جامعة فرايبورغ، ورحب بتولي هتلر السلطة، باعتبار ذلك فجر عهد جديد. ينظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة،ترجمة فؤاد كامل وآخرين،مراجعة وإشراف د/زكي نجيب محمود، دار القلم بيروت د/ت ص520،مادة هيدجر

كلفت بوضع دستور جديد لمصر[34]، كما عينوه أيضا مستشارا ثقافيا ورئيسا للبعثة التعليمية في سويسرا.

وفي لجنة الدستور، انحصر دور عبد الرحمن بدوي في وضع وصياغة المواد الخاصة بالحقوق والحريات، مثل حرية الفكر والعقيدة، والبحث العلمي والمساواة بين الرجل والمرأة، والحق في الإضراب وتشكيل النقابات وغيرها من المبادئ الديمقراطية الليبرالية [35]. وتحدث أيضا في كتابه "سيرة حياتي" عن أنظمة الحكم، مفضلا النظام البرلماني على النظام الرئاسي، حيث يرى أن « الأول لا يساعد على قيام الديكتاتورية بينما الثاني من السهل أن يجنح إلى الديكتاتورية... إن الإنسان بطبعه يميل إلى السيطرة واقوي ملكاته هي إرادة القوة، ومتى أتيحت له الفرصة للسيادة على الغير لم يتردد في التضحية بكل قيمه ابتغاء تحقيق هذه النزعة»[36].

ولهذا فإن النظام الأمثل للحكم هو الأقدر على الحد من سلطة الحاكم، أما الدولة في نظر الوجودي العربي فلا بد أن تكون وسيلة، والشخص المفرد هو الغاية، «ولهذا ينبغي أن تكون مهمة الدولة هي خدمة المحكومين لا الحاكمين. ولهذا كان الشعار الأمثل شخص حر في أمة حرة: فهو شخص وليس مجرد رقم في مجموع أو ذرة رمل في كثيب، بل ولا خلية في جسم عضوي. وهو حر في الفعل والقول والملك»[37].

ويبدو أن مثل هذه المبادئ التي كان بدوي يحلم بتجسيدها، ظلت حبرا على ورق، ذلك لأن القائمين على "الثورة" وضعوا سنة 1956 مبادئ أخرى في دستورهم الجديد، وهو الدستور الذي وصفه بدوي بالاستبدادي الزائف الذي صادر الحقوق والحريات مصادرة تامة وأحل مكانها القيود التي نسفت حقوق المصريين وحرياتهم،[38] هذا بالإضافة إلى النموذج الاشتراكي الذي أخذ به "عبد الناصر" في السياسة والاقتصاد، الأمر الذي ساعد الماركسيين المصريين آنذاك، أن يتغلغلوا في دهاليز السلطة، ليتولوا بعد ذلك السيطرة على مقاليد الأمور، فاستولوا على كل وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة ومسرح وسينما، فضلا عن المطابع ودور النشر ، ترويجا للمبادئ والأفكار الاشتراكية[39]. وهكذا قضى الشيوعيون المصريون -في نظر بدوي- على الفكر الحر في مصر كلها [40]. وهكذا بدأ حماس صاحبنا للثورة يتزعزع ،فيصفها بعد ذلك بالانقلاب، بل بأكبر كارثة عانتها مصر منذ الفتح العثماني[41].

وبهذا يتبين لنا، أن التوجه نحو الاشتراكية، كان أحد أسباب سوء علاقة بدوي برجال الثورة وتوترها، ولاسيما إذا علمنا أن مفكرنا، كان من أشد خصوم الفكر الاشتراكي السياسي منه والفلسفي. لكن ينبغي من باب الإنصاف، أن نذكر أن ما سمي بالثورة المصرية التي رفعت شعار الاشتراكية، عملت على تغييب الاشتراكيين العرب الحقيقيين وهمشتهم، وألقت بالكثيرين منهم في السجون والمعتقلات. فقد كان التوجه الرئيسي لثورة يوليو توجها قوميا معاديا للأمبريالية، وكبار ملاك الأراضي، ومع ذلك فقد حاربت الثورة المشروع الماركسي إيديولوجيا وإداريا وسياسيا باستمرار، وإن تحالفت معه أحيانا سياسيا، وتبنت بعض شعاراته الإيديولوجية[42].

هذا، ويتأسف بدوي على العهد الملكي البائد الذي كان -برغم مساوئه ومفاسده التي لا تعادل واحدا في الألف مما حدث بعد يوليو 1952- عهدا فيه قدر ضئيل من الحريات، ولاسيما الفكر والثقافة حيث كانا في أوج ازدهارهما[43]. كما يهاجم بشدة وعنف رمز الثورة جمال عبد الناصر، واصفا إياه «بالحاكم الطاغية المستبد الطياش»[44]، و«الكابوس الرهيب الذي أبهظ صدر مصر طوال ثمانية عشر عاما»[45]، محملا إياه وحده، مسؤولية الهزائم الكبرى التي أحاطت بمصر، وذلك لتصرفاته التي جنت منها مصر الهزيمة تلو الهزيمة، وهذا منذ العدوان الثلاثي عام 1956، ومن بعد ذلك الهزيمة النكراء في يونيو 1967 في حربها مع إسرائيل، والمعروفة بالنكسة، إلا أن بدوي يعدها «هزيمة من أنكر الهزائم التي عرفتها مصر في كل تاريخها»[46] .

أما استقالة عبد الناصر إثر الهزيمة وتراجعه عنها، كانت في نظر بدوي مسرحية من أحقر المهازل وأخسها، وكذلك الجماعات التي خرجت تطالب بعودته إلى الحكم، فقد كانت على حد وصفه، جماعات مأجورة، ذلك أن التاريخ لم يعرف قائدا هزم هذه الهزيمة ثم طالبت الجماهير بعودته[47]. ثم إن مثل هذه المناشدة أو المطالبة بعودة قائد مهزوم إلى الحكم هي أشد "هولا من الهزيمة نفسها"[48].

ويبدو أن مثل هذه الأحكام القاسية على أحد رموز "الثورة المصرية"، هي تعبير عن موقف سياسي، بل عن موقف وطني، وعاطفي، نابع من فرط حبه للوطن، لكن يبدو أن الوطن كان يختزل دوما في شخص القائد، فالقائد هو الوطن، ولا يسأل القائد عما يفعل ولا يحاسب، منتصرا كان أم مهزوما، بل حتى الشعب المصري نفسه آنذاك، لم يسلم من أحكام شديدة القسوة شنها بدوي عليه، منها: أنه شعب ساذج أبله مسلوب العقل، وصاحب موقف الخزي والاستسلام والخنوع، ومطواع لكل ظالم قاهر[49].

ونحن في هذا المقام، لا يسعنا إلا أن نعذره عن كل هذه القسوة على شعبه، ولعل ذلك راجع إلى حالة الغضب واليأس، وإلى تجرعه مرارة الهزيمة التي اصطلى بنارها، ويمكن القول أيضا إنه كان ينظر نظرة سلبية لكل اتجاه يتخذ من الشعوبية أو الجماهيرية وقودا لتقوية النفوذ والسلطة، وفي هذا الشأن يقول: « واهم إذن كل زعيم يدعي الشعبية، أو يصدق ما تتصيح به الجماهير وهو في عنفوان سلطانه، إن هذه الجماهير نفسها، هي التي ستصب عليه أو على ذكراه أبشع اللعنات حين يزول سلطانه »[50].

كان هذا هو موقف بدوي من الثورة ورجالها ، فهل كانت الأسباب السالف ذكرها كافية لتفسير عدائه لها وحملته الشعواء عليها وعلى رموزها ؟ أم أن ذلك راجع إلى سياسة التأميم التي اعتمدها الرئيس عبد الناصر، والتي جردت عائلته من الأراضي الزراعية الكثيرة التي كانت تملكها، وكذلك قرار فرض الحراسة عليه وعلى أسرته وعلى أموالها؟ صحيح أن بدوي يذكر- باستياء شديد- سياسة التأميم والأذى الذي ألحقته بعائلته، وكذلك قرار فرض الحراسة عليه وعلى أموال أسرته، ولا ينكر ذلك[51]، غير أن بعض الدارسين يركزون على هذه المسألة وحدها لتفسير عدائه للثورة[52]. ونحن نرى بخلاف ذلك، أن الاتجاه الفكري والفلسفي لعبد الرحمن بدوي أو بالأحرى فلسفته الوجودية، وما تحمله من أفكار كالحرية والفردية وغيرهما، كانت وراء تغيير موقفه من الثورة، كما أن رفضه التأميم والحراسة، ينسجم كل الانسجام مع أفكاره الليبرالية كالحرية والملكية الفردية المقدسة، وبالتالي ليس هناك فرق بين أن نقول إنه خالف الثورة لأنها صادرت الحريات أو أنها أممت الأراضي الزراعية لعائلته، ذلك أن تجريد الإنسان مما يمتلكه انتهاك صارخ للحرية ذاتها. وهذا ما يقودنا الى عرض موقف بدوي من الماركسية.

بدوي والماركسية:

من الصعب أن نحدد بدقة الفترة التي تعرف خلالها المفكرون العرب على الفلسفة الماركسية، غير أننا يمكن تحديد ذلك، بالأصداء التي خلفتها الثورة الروسية سنة 1917، والتي نقلت الفلسفة الماركسية من افقها النظري إلى الممارسة الواقعية التأسيسية[51]. ولما كانت الماركسية وقت ذاك، فلسفة العصر ، فليس غريبا أن يتأثر بها بعض أعلام الفكر والثقافة في العالم العربي، وأن تنجذب إليها شرائح واسعة من المثقفين والعمال فيعجبون بقيمها ومبادئها، ولاسيما الجانب

الاجتماعي من تلك الفلسفة التي بشرت بالفردوس الأرضي، بمجرد تطبيق النظام الاشتراكي الذي يزيل التفاوت الطبقي، ويقضي على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

أما الجانب النظري أو الفلسفي للماركسية، فقد تم الاطلاع عليه من خلال مؤلفات "لينين" (Lénine)(1870-1924)، فأصبحت بذلك اللينينية بوصفها صيغة خاصة للماركسية، هي الفلسفة التي تم تبنيها من قبل العرب الاشتراكيين منذ أربعينيات القرن الماضي. فتأسست بذلك الأحزاب الشيوعية والاشتراكية ووصل بعضها إلى السلطة. وهذا طبعا راجع إلى الدعم السوفياتي لها، وليس لأنها أحزاب جماهرية أو ثورية أو تقدمية، فكيف لهذه الجماهير التي تنتشر فيها الأمية بكثرة، والتي تعتمد على الخطاب الديني التقليدي في مرجعياتها، أن تفهم الاشتراكية والشيوعية، ومقولاتها كالحتمية التاريخية والصراع الطبقي والبرجوازية وهذا فضلا عن قبولها.

هذا في المجال السياسي، أما إذا أتينا إلى المجال الفكري والفلسفي، فإننا سنجد أعلاما بارزين للماركسية في نسختها العربية، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، المفكر الماركسي العربي "محمود أمين العالم"، الذي كان ولا يزال يرى أن الاشتراكية "العلمية" « ستعجل بتحقيق أرقى وأنبل أشواق الإنسان إلى الثقافة الشاملة، والرفاهية الكاملة، والحرية الحقيقية»[52]. ذلك أن طريق الحرية، ليس في إتباع الأفكار والمبادئ الليبرالية، كالبرلمانية والتعددية الحزبية، بل عن طريق التحالف الثوري لقوى الشعب العامل، والتنظيم الثوري القائد في إطار الاتحاد الاشتراكي وتنظيمه الطليعي. [53]

وإذا ما أردنا أن نعرف موقف عبد الرحمن بدوي من ماركس والماركسية عموما، فإننا لا نعثر إلا على شذارت قصيرة، وإشارات عابرة، يتناول فيها الماركسية، من دون أن يفوت الفرصة ليوجه لها أهم وأشهر الانتقادات، وهي انتقادات كبار الفلاسفة من أمثال جورج زمل وبرغسون ورسل وغيرهم.

وعندما يتعرض في موسوعته الفلسفية إلى ماركس، فإنه كما يقول عنه: «مفكر اقتصادي وسياسي ألماني (...) وصاحب مذهب اقتصادي سياسي إيديولوجي، عرف بالماركسية»[54]، فماركس إذن كما يرى ، ليس فيلسوفا بل مفكرا، والماركسية إيديولوجية وليست فلسفة.

وأثناء عرض المادة حول ماركس، يركز صاحبنا على أهم الانتقادات الموجهة للماركسية*. كما نجده يعمل على تحجيم دور ماركس الفكري، والسعي إلى تجريده من كل أصالة فكرية، من ذلك مثلا مفهوم الاغتراب، حيث يرى أن هذا المفهوم « أخذه ماركس عن هيجل دون أن يضيف شيئا من عنده (...) وكل ما كتبه ماركس في هذا الباب تكرار مسهب لما قاله هيجل بإحكام وتدقيق»[55].

والماركسية والدين سواء، ذلك أنها –على حد وصف بدوي –هي « نوع من المسيحية "بالمعنى الاشتقاقي الأصلي لهذا اللفظ"، أي القول بمخلص فاد للبشر من الخطيئة الأولى (...) ولكنها مسيحية مادية. فكما انتظر اليهود مخلصا"مسيحا" كذلك يؤمن الشيوعيون الماركسيون في مجتمع قائم على العمل والحب، (...) لكن هذا المخلص لم يعد –كما كان في المسيحية– إلها صار إنسانا، بل طبقة بأكملها.» [56]، ذلك لأن الماركسية تقوم في أساسها على مفهوم الطبقة لا على مفهوم الإنسان.

وعندما تركز الماركسية على الظروف المادية وحدها، فتقسم الفلاسفة إلى معسكرين اثنين: هما معسكر المثالية و معسكر المادية، وهذا ما تسميه بـ: المسألة الأساسية في الفلسفة، فإن مثل هذا التفسير يعده بدوي مبالغة من الماركسية[57]، التي لا تأبه بالميول الفردية والعوامل الذاتية، وهنا يعتصم بموقف خصوم الماركسية ليؤكد مع الفيلسوف الفرنسي" برغسون" (H.Bergson) (1859–1941) على ذاتية الفيلسوف، ولا يحفل بالظروف الخارجية التي يوجد فيها، ويرفض معه أن تكون فلسفة الفيلسوف مجرد انعكاس للظروف المادية، بل بالأحرى هي شيء أصيل له حياة ذاتية.[58] فليس بالمادة وحدها يحيا الإنسان، بل له مطامح عقلية أو روحية تدور حول فهمه لنفسه وللكون المحيط به وللناس الذين يعيش بين ظهرانيهم...فالإنسان يريد أن يعرف نفسه وأحوال وجوده الإنساني ومركزه في هذا العالم وما يعانيه من تجارب حية.[59]

---

*– مثل نقد برتراند رسل الذي وصف كتاب ماركس "رأس المال" بـ" إنجيل مشاعر الانتقام البروليتارية" وبرناردشو الذي قال عن الماركسية أنها" مثل الفاشية والامبريالية وكل المذاهب التي تريد أن تكون في الواقع كاثوليكية –جماعة– النزعة" ينظر: بدوي في موسوعة الفلسفة ،ج2، ص 419.

ومن الطبيعي جدا، أن تلقى بعض النظريات السياسية الماركسية رفضا ومعارضة من طرف بدوي، ذلك أنها لا تتناسب مع نزعته الوجودية، وما تحمله من مبادئ كالفردية والحرية، ولما كانت الماركسية تنظر إلى الذات من حيث هي في المجموع، فهي تعمل على إفنائها في المجموع، وهذا ما يترتب عنه القضاء على الذاتية والتفرد. ويعلق بدوي على إحدى مواد الدستور السوفياتي، وهي المادة التي تنص على أن الحرية الفردية مكفولة ووفقا لمصالح الشعب ومن أجل تقوية النظام الاشتراكي. فإن هذا كما يقول: «يعد إهدارا تاما للحرية الشخصية، ذلك لأن التعبير: "مصالح الشعب" تعبير مطاط يمكن الحاكم من إدراج أي شيء يريد تحته، والتعبير "تقوية النظام الاشتراكي" هو إهدار لكل حرية سياسية واقتصادية وفكرية واجتماعية. ذلك لأن عصب الحرية يقوم في استقلال الإرادة الذاتية Autonomie، وكل التزام بمبدأ معين مفروض من الخارج إنما هو إهدار مشين لمعنى الحرية»[60].

أما عن الاتجاه الماركسي في الفكر العربي، فقد كان بدوي يناصبه العداء ويحاربه على مستوى الفكر من خلال بعض مؤلفاته الفلسفية، ذلك أن توجهه الفكري والفلسفي نحو الفلسفة الوجودية كان يهدف إلى تأكيد «معنيين رئيسيين: وهما الحرية والفردية، وهما المعنيان اللذان تحاربهما الإيديولوجية الماركسية أشد المحاربة، لأنها تنكر الحرية وتؤكد ديكتاتورية البروليتاريا، وتنكر الفردية وتؤكد الجماعية »[61]. وهكذا بدا للوجودي العربي « أن أقوى سلاح فكري ضد الإيديولوجية الماركسية هو الفلسفة الوجودية »[62].

وإذا كانت الوجودية أقوى سلاح فكري على الماركسية، فإن المثالية الألمانية، تعد في نظر بدوي السلاح الأمضى، ولهذا جاء كتابه عن "المثالية الألمانية" ليهدف -كما يذكر- «إلى مقاومة المادية التاريخية بأمضى سلاح لمقاومتها، وهو المثالية الألمانية ممثلة في فشته وهيجل وشلنج[63]».

وبهذا يتضح لنا، أن بعض مؤلفات بدوي كان تحمل أهدافا وغايات، ذلك أنها وردت بتأثير الظروف السياسية والاجتماعية لعصره، وهذا خلافا للرأي القائل بعدم وجود أهداف محددة في بعض مؤلفاته[64]. فالزمن الذي عايشه بدوي كان زمن الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي بريادة الاتحاد السوفيتي، والغربي بريادة الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الحرب ألقت بظلالها على الثقافة والفكر في العالم العربي، وهو العصر الذي كان فيه المد اليساري عموما ماسكا بزمام الأمور، وذلك بتأييد ورعاية من طرف السوفيات، ولهذا يقول بدوي: « وفي مثل هذا الزمن لا شيء أنجع في رد الإنسان إلى مكانه الحقيقي، أعني رده إنسانا أولا، يتميز عن سائر الكائنات

بالفكر، ويسعى إلى الغايات العليا التي استهدفتها الإنسانية ممثلة في الصفوة من كبار مفكريها على مر العصور، نقول لاشيء أنجع من الفلسفة المثالية،والمثالية الألمانية منها بخاصة »[65].

ولا بفوتنا أن نذكر في هذا السياق أن كثيرا من الفلاسفة الوجوديين يعارضون الماركسية بشدة، فهذا مثلا الوجودي الروسي "بيرديايف" (Berdiaev) (1874-1948) يرى أن الماركسية لا تؤمن بالحرية والاستقلال النهائي للشخص الإنساني، كما أنها تعرض المبدأ الحي للحرية والشخصية للخطر.[66] وهذا ما حدا به إلى أن يفر بجلده وبفلسفته من روسيا الماركسية إلى فرنسا، حتى يستطيع التنفس هناك في منفاه بحرية أكثر. و لم يكن إبعاده أو نفيه قائما على أسس سياسية، بل على أسس إيديولوجية،[67] مما يعني أن اختلافه مع نظام الحكم القائم ليس اختلافا سياسيا بل كان فلسفيا وفكريا بالدرجة الأولى. وهذا لدليل على تعذر التعايش بين الفلسفتين: الوجودية والماركسية أو الجمع بينهما، ولاسيما عندما تصل فلسفة ما من الفلسفات إلى السلطة، فإنها سوف تتحجر وتصبح أداة قهر وتسلط، أي تغدو لا فلسفة، عندما تعادي حرية الفكر وتضطهد المفكرين الأحرار.

وإذا كان الفيلسوف الفرنسي "ألتوسير"(Althusser) ، يرى بأن الفلسفة صراع سياسي على مستوى الفكر، فيمكن القول إن بعض كتابات بدوي الفلسفية كانت تعبر عن موقف سياسي، ذلك لأنه لم يكن ليجرأ وقتذاك، على النقد المباشر، ولهذا استخدم على حد قوله :«أسلوب الحكيم كما يقال في كتب البلاغة العربية أو "الخطاب غير المباشر" كما يقال في البلاغة الأوربية، لأن الرقابة كانت بالمرصاد لكل من يجرؤ على الهجوم المباشر على الماركسية والاشتراكية "العلمية"»[68]. كما يقر بأن بعض مؤلفاته قصد منها « إلى مقاومة المد اليساري الذي فرضه عبد الناصر ومن ورائه الاتحاد السوفييتي وأتباعه في مصر»[69].

بدوي والإسلام السياسي:

وكما قاوم بدوي المد اليساري قاوم أيضا المد الإسلاموي أو التيار الأصولي الذي تطور ليشتد عوده في الفترة التي كان فيها شابا يافعا. وكانت أولى نواة تشكل هذا التيار في جماعة الإخوان المسلمين، التي بدأت تمارس نشاطها في الجامعات المصرية، و كان بدوي شاهدا على تأثير هذه الحركة على طلاب الجامعات المصرية وتغلغل الكثيرين فيها آنذاك[70]. يرى بدوي أن جماعة

الإخوان المسلمين، برزت علانية كحركة سياسية، بعد أن كانت تتظاهر بأنها دعوة دينية محض، ودعوتهم مزيج من السلفية واللامعقول، ومصادرة حقوق الإنسان لصالح حقوق الله[71].

أما الانتشار الكبير لدعوة الإخوان، فقد كان بين طلبة كليتي الهندسة والعلوم، وهذا مرده –حسب بدوي – إلى افتقار طلاب هذين الكليتين إلى العلوم الإنسانية التي من شأنها وحدها أن تبث التنوير العقلي في أذهان الطلاب، في حين لم يكن لها أي صدى أو استجابة في كلية الآداب. ذلك لأن طلاب الآداب والإنسانيات عموما، هم أكثر الناس ميلا إلى الفكر الحر والتفكير العقلي والسلوك النقدي بإزاء العقائد[72].

وهنا يشير بدوي إلى مسألة سوسيولوجية تبدو في غاية الأهمية، وجديرة بالتبصر، ألا وهي مسألة الانتشار الكبير للتوجه الأصولي في أوساط الذين لهم تكوين علمي وتقني، وأغلب هؤلاء يجهلون كل شيء عن التكوين في مجال الآداب والإنسانيات. وهذا ما يقودنا إلى ربط موقف بدوي الرافض لدعوة الإخوان المسلمين بالنزعة التي يريد إرساءها وتأكيدها في الثقافة العربية، وهي النزعة الإنسانية، التي لا يمكن لها أن تتجلى إلا من خلال الاهتمام بالآداب والإنسانيات. وهكذا يعزو بدوي انتشار دعوة هذه الحركة إلى غياب النزعة الإنسانية، وإلى افتقار الكثير من أصحابها إلى الثقافة الإنسانية، وانعدام تكوينهم في مجال الإنسانيات.

ولهذا فإن تنامي الظاهرة الأصولية، يمكن أن نعزوه إلى غياب الدراسات الإنسانية الحديثة، ذلك أن الكثير من الأصوليين هم من ذوي التخصصات العلمية الدقيقة كالفيزياء والهندسة والطب وغيرها، فهؤلاء لا يعرفون شيئا عن الآراء النقدية السائدة في بيئات العلوم الإنسانية والاجتماعية وخصوصا علم التاريخ[73].

ويتحدث بدوي أيضا عن بؤس الفكر الأصولي وإفلاسه في التيارات الدينية المتطرفة، لإهمالها الفكر والنظر واهتمامها بالشكليات فحسب، من ذلك مثلا، أنها تجعل من المرأة مشكلتها الأولى، وهذا ما ينبئ عن إفلاس بعضها، من العلم والأخلاق التي هي الفضائل في التعامل مع الناس، فلم يجدوا وسيلة للإثارة وجذب الاهتمام طمعا في نيل السلطة، غير هذا الهوس حول المرأة[74]. فهذا التيار لم يعد يهتم بتطوير تلك الفعالية الفكرية والتفسيرية كما كان يفعل الإسلام الكلاسيكي، أيام الإنتاج والإبداع والازدهار[75].

وجدير بالذكر، أن بدوي وفقا لنزعته الإنسانية الوجودية، التي تقوم أساسا على الفردية والحرية، كان يرفض بشدة الانضواء تحت أي شكل من أشكال الإيديولوجيات الحديثة، مثل الإيديولوجية القومية والماركسية وغيرهما، أضف إليهما إيديولوجية حركات التطرف الديني، فليس هناك فرق بينها وبين التطرف السياسي لإيديولوجيا ما من الإيديولوجيات الحديثة، بل التطرف السياسي الإيديولوجي أشد خطرا من التطرف الديني الذي لا يمتلك الوسائل والأدوات التي تمكنه من السيطرة، وهي الوسائل التي تمتلكها تلك الإيديولوجيات الحديثة والتي بواسطتها تمارس إرادة القوة[76].

ومثل هذه الإيديولوجيات الشمولية، يقارنها بدوي بما كان يقوم به المذهب الباطني*في التاريخ الإسلامي، وذلك في مقال له حول "راهنية الغزالي"** ، حيث يرى أن الإمام المعصوم لدى الباطنية ،يناظره "الفوهرر" -Führer- في الإيديولوجية النازية، كما أن الوصي يناظره فريدريك أنغلز بالنسبة إلى ماركس[77].

ولئن كانت هذه المناظرة أو المطابقة غير دقيقة في معظمها، إلا ما يجمع بين الإيديولوجيات المعاصرة والباطنية قديما، هي الصفات نفسها التي حددها الغزالي وهي: إرادة السلطة، والحقد، والتميز عن العامة، وتقليد القادة الكبار، والرغبة في التحرر من القيود الدينية والتخلص منها، وهذه الصفات يراها بدوي حاضرة إلى يومنا هذا عند أولائك المنخرطين في الإيديولوجيات الحديثة[78].

---

*- الباطنية من الشيعة الإسماعيلية، وكانت هي الإيديولوجية الرسمية للدولة الفاطمية ، كان لهم دور خطير في تاريخ الإسلام السياسي، والباطنية «تقوم بتأويل النص الظاهر بالمعنى الباطن تأويلا يذهب مذاهب شتى...فهو يعني أن النصوص المقدسة رموز وإشارات...وحقائق خفية وأسرار مكتوبة...وأن عامة الناس هم الذين يقنعون بالظواهر والقشور،ولا ينفذون إلى المعاني الخفية المستورة،التي شأن أهل العلم الحق،علم الباطن». بدوي:مذاهب الإسلاميين،ج2، دار العلم للملايين،بيروت 1997،ص751.

**- كان الغزالي قد تصدى للباطنية التي استفحل أمرها في عهد الدولة الفاطمية، فألف كتابه " فضائح الباطنية " ، مفندا دعواها ومبرزا فضائحها.وكان يريد أن يناضل الباطنية من حيث المذهب،كما كان أمراء السلاجقة يكافحونها من حيث السلطان السياسي.ينظر إلى : بدوي: ضمن مقدمة التحقيق لكاتب فضائح الباطنية للغزالي، الدار القومية للطباعة والنشر،القاهرة 1964، ص ح و ي من التصدير العام.

وفي علاقة العالم بالسلطة، يأخذ بدوي برأي الغزالي، فمن بين صفات العالم عند أبي حامد الغزالي: «أن يكون مستقصيا عن السلاطين، فلا يدخل عليهم البتة مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم، وإن جاؤوا إليه، فإن الدنيا حلوة خضرة، وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في مرضاتهم واستمالة قلوبهم، مع أنهم ظلمة... فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه،... أو يتكلف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم، وذلك هو البهت الصريح، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم، وذلك هو السحت»[79].

ولهذا دعا بدوي إلى استقلالية العالم عن السلطة وابتعاده الكلي عن الممارسة السياسية، ذلك لأن السياسة مهمة قذرة، تقوم أساسا على الحيلة والخديعة، وعلى التسلط والطغيان وعلى الجور والظلم، والعالم المخالط لأصحاب السلطة تمسه القذارة، فيلجأ مكرها إلى النفاق ويتقاسم معهم مسؤولية الجرائم السياسية[80]. ويبدو أن هذا ما حدا بالوجودي العربي إلى اعتزال العمل السياسي نهائيا، والتفرغ للعلم والبحث. وما يمكن ملاحظته من خلال ما استعرضناه من بعض جوانب الحياة السياسية لعبد الرحمن بدوي قبل وبعد سنة 1952، أن تجربته في عالم السياسة، كانت تجربة غير ناجحة، لكن رغم خيبة طموحه في النشاط السياسي، لم يكن أمامه سوى التفرغ للبحث والانكباب على التأليف والإنتاج العلمي، وللأستاذية، التي تعد أشرف من أي منصب سياسي، ذلك أن الأستاذ الجامعي-كما يرى بدوي- لديه في البحث العلمي والتفوق فيه، ما يغنيه عن التطلع إلى أي منصب سياسي أو إداري[81]. ولعل السياسة كانت ستشغله عن التأليف والكتابة، فالتفرغ للأعمال السياسية لا يترك للمرء فرصة الانصراف إلى الدراسة والبحث.

وعلى الجملة والختام، نرى أن الفلسفة الوجودية عند عبد الرحمن بدوي،كانت أداة أو وسيلة للتعبير عن الهموم والمشاكل الثقافية والفكرية التي عاصرها، وبالتالي فترعته الإنسانية الوجودية كانت وثيقة الصلة بالواقع السياسي والاجتماعي كما أن الوجودية وما تتضمنه من مفاهيم كالحرية والذاتية والفردية، اتخذها ليعبر بها فلسفيا عن رفضه للشمولية والطغيان وعن كل ما من شأنه أن يصادر حرية الفرد.

الهـــــوامش:

1- وائل غالي: دفاع بدوي عن الزمان، دار النشر للثقافة والتوزيع، القاهرة 1997،ص.07

2- عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة، ج1 ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر،ط 1، بيروت 1984،ص294.

3- عبد الرحمن بدوي : الزمان الوجودي، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة 1955،ص 34.

4- المصدر نفسه، ص 147.

5- المصدر نفسه، ص 35.

6- المصدر نفسه، ص36.

7- المصدر نفسه، ص 39.

8- المصدر نفسه، ص 41.

9- بدوي: المصدر السابق، ص 04.

10- المصدر نفسه،ص188.

11- المصدر نفسه، ص 42.

12- المصدر نفسه، ص 153.

13- المصدر نفسه، ص 153.

14- المصدر نفسه، ص189.

15- المصدر نفسه، ص190

16- المصدر نفسه، ص38.

17- المصدر نفسه، ص44.

18- المصدر نفسه، ص135 وما يليها.

19- المصدر نفسه، ص39.

20- المصدر نفسه، ص34.

21- محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر،مركز دراسات الوحدة العربية،ط6،بيروت1999 ،ص 171.

22- جون ماكوري: الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام،سلسلة عالم المعرفة،الكويت 1982، ص257.

23- المرجع نفسه ص 260

24- عبد المنعم تليمة: الفلسفة السياسية في كتابات عبد الرحمن بدوي، مقال ضمن كتاب دراسات عربية حول عبد الرحمن بدوي،إشراف أحمد عبد الحليم عطية، دار المدار الإسلامي، ط1،بيروت 2002 ، ص 191.

25- بدوي: سيرة حياتي، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1، بيروت 2000 .ص49.

26- محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية،دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1989، ص 457.

27- بدوي: المصدر السابق، ص 52 وما يليها.

28- مراد وهبة: رؤيتي لعبد الرحمن بدوي .مقال ضمن مجلة إبداع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد 10،أكتوبر 1995، ص 17.

29- المرجع نفسه، ص19.

30- يحي هويدي: نحو الواقع-مقالات فلسفية-دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة 1986، ص 408 وما يليها.

31- المرجع نفسه ص316 وكذلك ص 320.

32- وائل غالي: المرجع السابق، ص 15.

33- بدوي: سيرة حياتي، ج1،ص53.

34- المصدر نفسه، ص 94.

35- المصدر نفسه، ص213.

36- محمود أمين العالم: بدوي ذلك المجهول، مقال ضمن مجلة إبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد 11 ،نوفمبر 1995، ص 35 وما يليها.

37- أحمد عبد الحليم عطية: رؤيتي لرؤيته كيف نظر مراد وهبة إلى عبد الرحمن بدوي، مقال ضمن مجلة إبداع، العدد 11 ،نوفمبر 1995، ص 42.

38- بدوي: موسوعة الفلسفة، ج1، ص 295،مادة بدوي .

39- رسل: حكمة الغرب ج2، ، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1983 ،ص 148.

40- الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص520،مادة هيدجر

41- محمود أمين العالم: عبد الرحمن بدوي ذلك المجهول ، مرجع سابق،ص .36

42- بدوي:موسوعة الفلسفة،ج1 ص296

43- بدوي: سيرة حياتي، ج1،ص328 وما بعدها.

44- المصدر نفسه ، ص 377.

45- المصدر نفسه ص 331. وكذلك: موسوعة الفلسفة ج1 ص .296

46- المصدر نفسه، ص337 .

47- المصدر نفسه، ص 349.

48- لمصدر نفسه، ص 350.

49- المصدر نفسه ،ص 338، وكذلك موسوعة الفلسفة ج1، ص 296.

50- بدوي:سيرة حياتي ج1، ص 355 وما يليها.

51- المصدر نفسه، ج2 ، ص 255.

52- المصدر نفسه ، ج1 ،ص 245 .

53- محمود أمين العالم: ثلاث رؤى للثورة، مقال في مجلة أدب ونقد،عدد40،السنة الخامسة، القاهرة أغسطس 1988، ص 22.

54- بدوي : سيرة حياتي،ج1، ص 325

55- المصدر نفسه، ج2، ص95.

56- المصدر نفسه،ج2، ص 237.

57- المصدر نفسه، ج2، ص 05.

58- المصدر نفسه، ص 61.

59- المصدر نفسه، ص 90.

60- المصدر نفسه، ص 91 وما يليها.

61- المصدر نفسه ،ج1، ص 109.

62- المصدر نفسه، ص 377، وص 379.

63- سعيد اللاوندي : عبد الرحمن بدوي فيلسوف الوجودية الهارب إلى الاسلام،مركز الحضارة العربية، ط4،القاهرة 2001،ص33.

64- محمود أمين العالم: الفكر العربي بين الخصوصية والكونية،دار المستقبل العربي،ط2،القاهرة 1998،ص155.

65- محمود أمين العالم: معارك فكرية،دار الهلال، القاهرة 1965، ص186.

66- المرجع نفسه، ص 172 وما يليها.

67- بدوي: موسوعة الفلسفة،ج2، ص 418. مادة ماركس.

68- بدوي: المصدر نفسه، ص 455. مادة المغايرة .

69- المصدر السابق، ص 422.

70- بدوي: مدخل جديد إلى الفلسفة،وكالة المطبوعات، الكويت د/ت، ص55.

71- المصدر نفسه،ص 57 .

72- المصدر نفسه، ص 46 .

73- بدوي: سيرة حياتي،ج1،ص 350.

74- المصدر نفسه ،ص 354 وما بعدها.

75- المصدر نفسه، ص 355.

76- المصدر نفسه، ص 354.

77- حسن حنفي. الفيلسوف الشامل، مقال ضمن دراسات عربية حول عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 80.

78- بدوي : المثالية الألمانية، دار النهضة العربية،القاهرة 1965،ص ز من التصدير العام.

79- بيرديايف : الحلم والواقع،ترجمة فؤاد كامل،الهيئة المصرية للكتاب،القاهرة 1984، ص 242.

80- المرجع نفسه، ص 240.

81- بدوي:سيرة حياتي،ج1 ،ص 355.

82- المصدر نفسه، ص 354.

83- المصدر نفسه ، ص 223.

84- المصدر نفسه ،ص 129.

85- المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها.

86- محمد أركون:الفكر الإسلامي-قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح،مركز الإنماء القومي،ط2،بيروت1996، ص 181.

87- بدوي: سيرة حياتي ج،1ص 265.

88- محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صالح ،دار الطليعة،ط3،بيروت 2004، ص 174.

89- Abdurrahman Badawi :Diversité des cultures et universalité des valeurs, Colloque international ,Ottawa Canada ,Aout 1983,P03.voir le site web: http://unesdoc.unesco.org/images/0005/000560/056026FB.pdf, date d'entrée: le 06/06/2009

90- Abdurrahman Badawi: l'Actualité d'Alghazali,P73. voir le site web: :http://www.ghazali.org/articles/lactualite-badawi.pdf, date d'entrée: le 06/06/2009

91- Ibid,PP 75.76

92- الغزالي :كتاب العلم-من إحياء علوم الدين-تحقيق رضوان السيد،دار إقرأ،ط2،بيروت1985، ص 192.

93- Badawi: l'Actualité d'Alghazali,Op-cit,P81.

94- بدوي : سيرة حياتي،ج1 ، ص 362

مصادر ومراجع البحث:

المصادر:

1-عبد الرحمن بدوي : الزمان الوجودي، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة .1955

2-عبد الرحمن بدوي : سيرة حياتي، جزآن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1، بيروت .2000

3-عبد الرحمن بدوي : المثالية الألمانية، دار النهضة العربية،القاهرة .1965

4-عبد الرحمن بدوي : مدخل جديد إلى الفلسفة،وكالة المطبوعات، الكويت د/ت، ص55

5-عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة، جزآن،المؤسسة العربية للدراسات و النشر،ط 1، بيروت 1984.

6- Abdurrahman Badawi :Diversité des cultures et universalité des valeurs, Colloque international ,Ottawa Canada ,Aout 1983.voir le site web: http://unesdoc.unesco.org/images/0005/000560/056026FB.pdf, date d'entrée: le 06/06/2009

7- Abdurrahman Badawi: l'Actualité d'Alghazali. voir le site web: :http://www.ghazali.org/articles/lactualite-badawi.pdf, date d'entrée: le 06/06/2009

المراجع:

1-أحمد عبد الحليم عطية: رؤيتي لرؤيته كيف نظر مراد وهبة إلى عبد الرحمن بدوي، مقال ضمن مجلة إبداع، العدد 11 ،نوفمبر .1995

2-بيرديايف : الحلم والواقع،ترجمة فؤاد كامل،الهيئة المصرية للكتاب،القاهرة 1984

3-جون ماكوري: الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام،سلسلة عالم المعرفة،الكويت 1982.

4-حسن حنفي. الفيلسوف الشامل، مقال ضمن دراسات عربية حول عبد الرحمن بدوي، إشراف أحمد عبد الحليم عطية، دار المدار الإسلامي، ط1،بيروت 2002.

5-رسل: حكمة الغرب ج2، ، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1983.

6-سعيداللاوندي : عبد الرحمن بدوي فيلسوف الوجودية الهارب إلى الاسلام،مركز الحضارة العربية، ط4،القاهرة 2001.

7-عبد المنعم تليمة: الفلسفة السياسية في كتابات عبد الرحمن بدوي، مقال ضمن كتاب دراسات عربية حول عبد الرحمن بدوي،إشراف أحمد عبد الحليم عطية، دار المدار الإسلامي، ط1،بيروت 2002 .

8-الغزالي : فضائح الباطنية ،تقديم وتحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر،القاهرة 1964

9-الغزالي :كتاب العلم-من إحياء علوم الدين-تحقيق رضوان السيد،دار إقرأ،ط2،بيروت1985،

10-محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صالح ،دار الطليعة،ط3،بيروت 2004.

11-محمد أركون:الفكر الإسلامي-قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح،مركز الإنماء القومي،ط2،بيروت1996.

12-محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر،مركز دراسات الوحدة العربية،ط6،بيروت1999 .

13-محمود أمين العالم: الفكر العربي بين الخصوصية والكونية،دار المستقبل العربي،ط2،القاهرة 1998

14-محمود أمين العالم: بدوي ذلك المجهول، مقال ضمن مجلة إبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد 11،نوفمبر 1995.

15-محمود أمين العالم: ثلاث رؤى للثورة، مقال في مجلة أدب ونقد،عدد40،السنة الخامسة، القاهرة أغسطس 1988.

16-محمود أمين العالم: معارك فكرية،دار الهلال، القاهرة 1965.

17-محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1989.

18-مراد وهبة: رؤيتي لعبد الرحمن بدوي .مقال ضمن مجلة إبداع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد 10،أكتوبر 1995.

20-الموسوعة الفلسفية المختصرة،ترجمة فؤاد كامل وآخرين،مراجعة وإشراف د/زكي نجيب محمود، دار القلم بيروت د/ت.

21-وائل غالي: دفاع بدوي عن الزمان، دار النشر للثقافة والتوزيع، القاهرة 1997.

22-يحي هويدي: نحو الواقع-مقالات فلسفية-دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة 1986.

الدين والنظرية النقدية قراءة في مواقف إرنست بلوخ وإيريك فروم وماكس هوركهايمر حول الدين

أ.نابت عبد النور

- جامعة البويرة -

الملخص: تحاول الدراسة فهم موقف فلاسفة النظرية النقدية ا. بلوخ، وإفروم، وماكس هوركهايمر من الدين من منطلق تعدد التخصصات التي بحثوا فيها: التحليل النفسي (فروم)، والانثرولوجيا السياسية (بلوخ)، وعلم الاجتماع (هوركهايمر). وما يثير اهتمامنا هنا هو قدرة هؤلاء على الجمع بين الماركسية والتقليد اليهودي ومحاولة الاستفادة من المقولات الدينية.

Summary: Understand the position of the philosophers of critical theory (E. Bloch, Erich Fromm, Max Horkheimer on religion) is the aim of this study based on multidisciplinary positions (psychoanalysis, political anthropology, sociology). These philosophers could marry between Marxism and the Jewish tradition trying to invest religious categories.

مـــقـــدمـــة:

ساهمت الأزمات الروحية التي عاشها الغرب في بدايات القرن الماضي، والعودة إلى الدين في فتح النقاش بين عموم المختصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية حول الظاهرة الدينية ومن المدارس الفكرية التي أولت الظاهرة الدينية اهتماما خاصا من كافة الجوانب مدرسة فرانكفورت التي ظهرت في العشرينات من القرن الماضي ومن أهم الأسماء التي برزت وهي محل اهتمام مقالتنا هذه نجد إرنست بلوخ (1885-1977) وإيريك فروم (1900-1988) وماكس هوركهايمر (1885-1973).

وتماشيا مع هذا الاهتمام الذي أولاه هؤلاء الفلاسفة للموضوع نطرح التساؤل التالي: هل بقي للدين دور يلعبه في ظل هذه الأزمات الروحية؟

تاريخيا يمكن القول بأن النظرية النقدية أوتيار مدرسة فرانكفورت تمد بجذرها إلى الماركسية، عبر حلقات أسبوع الأعمال الماركسية، التي انبثقت منها فكرة تكوين معهد البحوث الاجتماعية، وكذلك يمكن الإشارة إلى أنه خلال مرحلة التكوين، عقد المعهد علاقات قوية مع لوكاش وكورش حيث أخذ عنها أعضاؤه تحليلهم لفكرة حتمية تخطي النظام الرأسمالي، التي احتلت لب النظرية النقدية، خلال إدارة جرونبيرغ للمعهد[1].

إرنست بلوخ: في البحث عن معنى ايجابي للدين:

من الأسماء التي تواصلت مع معهد الأبحاث الاجتماعي، نجد والتر بنجامين، هربت ماركوز، إرنست بلوخ، هذا الأخير يمثل أهم الأسماء الفلسفية المجددة للفلسفة الماركسية، ولكن ماركسية بلوخ لا يجب أن تفهم في سياق إيديولوجي أو سياسي، لقد كان يرى في الماركسية النتيجة المنطقية لبحوثه الاستقصائية وصك بياض أمامي نحو أنسنة الإنسان، ذلك أن الفلسفة مع ماركس أصبحت إنسانية بالفعل، فلقد رسم ماركس طريقا جديدا والمستقبل لا يمكن أن يتجاهل أفكار ماركس، فما حدث من تغييرات اجتماعية وسياسية واقتصادية في القرن العشرين أعطى قدرا من الأهمية للفكر الماركسي.

إن تقدير إرنست بلوخ لماركس لا ينف عن هذا الفيلسوف الألماني تواصله مع النصوص الدينية خاصة العهد القديم والإنجيل والسؤال المطروح هنا: كيف يمكن فهم هذه المفارقة بين ماركسية بلوخ واستخدامه لغة فلسفية مشبعة بمضامين لاهوتية؟

هذا التوجه نحو الربط بين الماركسية كإيديولوجية ثورية واللاهوت نلحظه في النصوص الأولى لبلوخ في مؤلفه الأول: "توماس مونزر، لاهوتي التحرير"، وهذا لتأكيد فكرة القوة الثورية الكامنة في الدين، ومحاولة لتأصيل المفاهيم الاشتراكية كالثورة والعدالة الاجتماعية والمساواة.

بداية يجب الإشارة إلى أن الوثائق المتعلقة بحياة وفكر توماس مونزر تبقى غامضة، وما هو موجود يعبر عن وجهة نظر مارتن لوثر[2] الذي كان معاصرا لمونزر، ومعارضا للرجل ولثورة الفلاحين التي ساندها مونزر وكانت سببا في إعدامه من طرف الأمراء الألمان عام 1525، لكن هذا لا ينف وجود دراسات تاريخية وفكرية عن مونزر ارتبطت عادة بالثورة الفرنسية وبكتابات المنظرين الماركسيين كانجلزوكاوتسكي.

يعتقد إرنست بلوخ أن هبات الفلاحين، وخارج مظاهرها الاقتصادية يجب النظر إليها في جذورها العميقة وهذا إذا أردنا فهم الأحداث في ظروفها الزمنية، ولهذا يجب عدم إغفال الدوافع الخاصة في الروح الإنسانية خاصة في الفترات الزمنية التي تهيمن فيها العاطفة الدينية[3].

هناك توجه لدى بلوخ لإبراز أثر المسار الروحي والديني لفهم تمرد الفلاحين الألمان، ذلك أن أية دراسة اقتصادية تبقى غير قادرة وبشكل كلي على تفسير شروط وأسباب ظهور حرب

الفلاحين، كما أن التحليل الاقتصادي ينذر بتحطيم الطابع الأصلي لهذا الحدث التاريخي والمتمثل في المضامين العميقة للتاريخ الإنساني الكامنة في حلم الناس بتحقيق مملكة الإخوة[4].

وهكذا فإن رؤية بلوخ حول تفسير التاريخ تقترب من ماكس فيبر الذي أبرز دور القيم الأخلاقية في توجيه مسار الحداثة الغربية، ومبتعدا عن ماركس، فهذا الأخير في نظر بلوخ وتحت تأثير الوضعية نقل الشيوعية من المجال اللاهوتي ليضعها في ميدان الاقتصاد السياسي نازعا عنها أبعاد الألفية[5].

إن الأساطير التي كانت سائدة في القرن السادس عشر والتي مفادها إمكانية تحقق مملكة الأخوة والألفية الثالثة ظلت في نفوس الناس وهذا ما ساهم في انبعاث الإيديولوجية الاشتراكية الوطنية.

لقد استخدمت النازية مصطلحات قديمة من منوال "الرايخ الثالث" والذي يحمل طابعا ثوريا ولكن بشكل عكسي، صحيح إن مصطلح الرايخ الثالث هو بمثابة تتويج ثالث لألمانيا بعد الإمبراطورية الوسيطية، والإمبراطورية البسماركية، ولكن مجدد هذه العبارة مرلرفان بروك أضاف لها تقاليد صوفية جاءت من زمن مضى لأن مصطلح الرايخ الثالث كان يعبر عن حلم مثالي ذو طابع ثوري اجتماعي مصدره الهرطقة المسيحية والذي ارتبط أساسا بفكرة مجيء الإنجيل الثالث[6].

في هذا السياق التاريخي، يحاول بلوخ أن يربط الأفكار السائدة أثناء الحكم النازي بالماضي ومضمون هذه الأفكار الاعتقاد بهتلر كقائد ومحرر لهذه الأمة الألمانية له ما يبرره نفسيا وطبيعيا وتاريخيا، فالرغبة في البحث عن مرشد وقائد أمر قديم، هذا الأمر يوجد في العلاقة بين الابن والأب في عالم الحيوانات. وتاريخيا مَثل موسى الصورة الأول لقائد المضطهدين والذي قادهم نحو الأرض الموعودة[7].

وهكذا فإن فكرة المحرر والقائد أو الفوهرر ارتبطت أساسا بفكر الألفية الثالثة، وكان الأب جواكيم دوفلور (ق12)، أول من نشر هذا الفكر مبشرا بعهد ثالث: فالمرحلة الأولى سماها جواكيم بعبودية القانون (العهد القديم)، أما العهد الثاني فهو حالة وسيطة بين الجسد والروح افتتحه المسيح بعهده الجديد، أما العهد الجديد الثالث الذي يسبق نهاية العالم والذي يولد الآن وفي هذه الفترة تنتفي رسالة إنجيل المسيح وتنزل الطائفة المسحية الأول من السماء إلى الأرض وتبدأ

الأخوة الشيوعية ويسود السلم، لقد مثلت الفترة الأولى الخوف والثانية البحث والحكمة والثالثة مرحلة الحب والنور[8].

لا يمكن إغفال حقيقة أخرى مفادها أن فكر الألفية الثالثة وجد في التمثلات اليهودية المبشرة بالخلاص بعد نفي اليهود، وقد وردت هذه الأفكار في نبؤة إشعيا[9].

بأي حال من الأحوال لا يمكن وصف إرنست بلوخ بأنه لاهوتي لأنه اشتراكي الفكر ولكن اشتراكيته واقعية، فاشتراكيته لا تريد أن تحول حياة الناس إلى جحيم ولكن تهدف إلى وضع السماء على الأرض، إن الاشتراكية تريد أن تمرر كل جوهر للتاريخ فالهدف الأساسي لكل تغيير مستقبلي هو تحقيق المثل العليا على أرض الواقع.

إن اعتماد بلوخ لغة لاهوتية في التبشير بمستقبل واعد وخلاصي للبشر لم يمنعه من نقد رجال الاكليروس الذين دافعوا عن الأغنياء وبرروا الجرائم والاضطهاد الممارس ضد اليهود والهراطقة[10]، وكان هذا الواقع التاريخي سببا مقنعا لاتهام الدين بأنه أفيون الشعب.

يعتقد بلوخ أن عبارة ماركس: "الدين أفيون الشعب" يجب قراءتها في السياق ما قامت به الماركسية المبتذلة عندما نزعت العبارة من سياقها، وهنا يعيد بلوخ العبارة المقتبسة من كتاب ماركس: "مقدمة لنقد فلسفة الحق عند هيجل"، وفيها يقول ماركس: "الدين هو التحقق الخيالي للجوهر الإنساني لأن الكائن الإنساني لا يملك حقيقة الواقع...فمن جهة يعتبر البؤس الديني التعبير عن الواقع الحقيقي وفي نفس الوقت هو تعبير عن الاحتجاج ضد هذا البؤس الحقيق، إن الدين هو صرخة الكائن المضطهد وقلب عالم بلا قلب وروح ظروف بلا روح، إنه أفيون الشعب، إن إلغاء الدين هو إلغاء لسعادة الشعب الخيالية وهذا الأمر يمثل شرطا أساسيا للسعادة الحقيقية"[11].

إن إعادة عبارة "الدين أفيون الشعب" ركز فيها بلوخ على عبارة الصرخة، الاحتجاج وهي مناسبة للتذكير بما كان يردده الفلاحون خلال حربهم في قسمهم، وكانت هذه الحرب وبدون تحفظ غطاءا دينيا كما قال كاوتسكي وجاء نوع هذا القسم من الإنجيل كما لو لم يكن الدين عودة إلى أحضان الكنيسة[12].

إيريك فروم: الدين من وجهة نظر تحليلية نفسية:

ولد إيريك فروم (1900-1980) لعائلة يهودية متدينة وكان والديه، مثل والدي ماركس، تحدرا من سلالة مليئة بالأحبار، وكان فروم يروي قصة أحد أجداده الذي كان يملك متجرا ولكنه يقضي الوقت في قراءة التلمود حتى أنه إذا جاءه زبون ربما صرفه إلى متجر آخر لكي لا يعيقه عن القراءة. ومن ناحية أخرى يشير كيلنر[13]، إلى أن فروم كان في بداياته على صلة وثيقة بالحاخام نوبل ليهيبايم وبالمدرسة اليهودية الحرة في فرانكفورت التي أسسها هذا الحاخام...، و لم تكن تلك الصلة غريبة لأن فروم كان طوال حياة كما يقول كيلنر، "غارقا في دراسة التلمود"[14].

يعد فروم من أبرز المجددين في التحليل النفسي، وصاحب الثورة الثالثة في علم النفس التحليلي، وكان من أهم كتبه: الهروب من الحرية (1941)، الإنسان من أجل ذاته (1947)، تشريح التدميرية البشرية (1973).

تركز اهتمامه في الظاهرة الدينية من خلال أربعة كتب: ستكونان مثل إلهين (1966)، عقيدة المسيح (1931)، التحليل النفسي والدين، وإصدار بالاشتراك مع "د.ت.سوزكي" وريتشارد دي مارتينو كتاب "بوذية الزن والتحليل النفسي" (1960).

وتفصيلا لما قلناه سابقا عن الجو الثقافي الديني الذي عاش فيه فروم، نجد أن معلم فروم وأفراد عائلته ينتمون إلى الأرثوذوكسية اليهودية" قولا وعملا، و لم ينتج الجانب التقليدي لهذا النمط في الحياة من خلفية تقليدية سلطوية، بل كان تعبيرا عن الإصلاح اليهودي الليبرالي الذي يريد الاندماج في المجتمع الرأسمالي والتضحية بنمط حياة متأثر بما ورث عن اليهود منذ قرون[15].

وهكذا فإن اليهود ظلوا محتفظين بهوية دينية خاصة ترفض الاندماج في المجتمع الغالب، وكان هذا سببا في توجس الأغلبية المسيحية، ورفضهم لهم مما أثر في نمط عيشتهم المنغلق وتنامي العنصرية ضدهم.

إذن لعب التقليد الديني دورا مهما في الانغلاق، وهذا التقليد مؤسس لكل ميادين الحياة انطلاق من الفكر والإحساس والسلوك وكل العلاقات التي تجمع الفرد بمحيطه الإنساني والطبيعي على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي، وينتج عن ذلك أن كل منافسة لأنواع أخرى من الإيتوس عند نفس الشخص والمعتنقين لنفس الديانة تكون غائبة. في هذه الحالة هناك

نمط حياة مشترك قوامه التقليد الديني الذي يعتبر أحسن سلاح للفرد وللجماعة التي يعيش فيها من أجل عيش هويته الذاتية، ولهذا السبب لابد من رفض أنماط الحياة التي تقترحها الليبرالية ومجتمع التنافس وهكذا فإن الأرثوذوكسية اليهودية التي تربى فيها فروم كانت تتميز بدفاعها عن فكرة المحافظة على الهوية الأصلية بالمحافظة على وحدة الدين والاحتراس من عدم الاختلاط بأنماط أخرى من الحياة المجتمعية[16].

كانت أطروحة فروم فرصة لفهم منطق التجربة الدينية اليهودية، وحملت الأطروحة عنوان "القانون اليهودي: مساهمة في سوسيولوجيا الشتات اليهودي" والتي تناول فيها ثلاث جماعات يهودية هي القراؤن والحسيديون ويهود الإصلاح، والملاحظ هنا أن المرء يجد الاهتمام الاجتماعي النفسي لفروم في أطروحته على الرغم من أنه لم يكن في ذلك الوقت يتوفر على أداة تحليل نفسية تمكنه من فهم وظيفة التضامن من اليهودي عن طريق اللاوعي، وقد وعى فروم في أطروحته بأنه مهما كان تنظيم نمط عيش مجموعة بشرية ما. والمقصود هنا طريقة الإنتاج، تنظيم العمل، أشكال العلاقات الاجتماعية في الثقافات، والممارسات السياسية والأخلاقية والدينية...الخ، وحتى في حالة تغيير هذه الظروف، فإن أشكال الإيتوس الموروثة تلعب دور المحافظة على التحام هذه المجموعة. ولم يرى فروم أشكال الإيتوس هذه كبنيات سيكولوجية ذات قوة ديناميكية خاصة بها إلا بمساعدة التحليل النفسي الفرويدي، ولكنه استطاع وهو في 22 سنة من عمره التعرف على التأثير المتبادل بين نمط عيش ما وأشكال الإيتوس[17].

إن توضيح موقف إيريك فروم يسبقه طبيعيا ومنطقيا استجلاء تحليل فرويد للدين. والدين عند فرويد أصله كامن في ضعف الإنسان في مواجهة قوى الطبيعة خارجة والقوى الغريزية في داخله، فالدين في مرحلة مبكرة من التطور البشري، حين يكون الإنسان غير قادر بعد على استخدام عقله للتعامل مع هذه القوى الخارجية والداخلية ويجب أن يكتبها أو يسوسها بمعونة القوى العاطفية الأخرى، وهكذا فهو بدلا من أن يتغلب عليها بواسطة العقل يتغلب عليها بواسطة العواطف المضادة، بالقوى الانفعالية الأخرى[18].

يضيف فروم موضحا تصور فرويد قائلا: "وفي هذه السيرورة ينشأ الإنسان ما يدعوه فرويد "الوهم" الذي تستمد مادته من خبرته الفردية بوصفه طفلا، فهو بمواجهته مع القوى الخطرة التي لا يمكن له التحكم فيها وفهمها في داخل نفسه وخارجها يتذكر، إن صح القول، وينكص

إلى الخبرة التي عاشها وهو طفل، حين كان يشعر بحماية الأب الذي يعتقد أنه ذو حكمة وقوة متفوقتين والذي يستطيع أن يكسب محبته وحمايته بطاعة أوامره وتجنب مخالفة نواهيه[19].

بالنسبة لإريك فروم فإن الدين كما يستخدمه في تحليلاته لا يعني نظاما يتضمن مفهوما معينا للرب، أو لمعبودات بعينها، أو حتى نظاما ينظر إليه باعتباره دينا، وإنما نظاما للفكر والعمل تشترك في اعتناقه جماعة من الناس يعطي لكل فرد في الجماعة إطارا للتوجه وموضوعا يكرس من أجله حياته[20].

يوضح فروم فكرته هذه مؤكدا أن هذا التعريف لا يصف لنا محتواه الخاص، فالناس قد يعبدون حيوانات أو أشجارا أو آلهة مصنوعة من الذهب، أو من الحجارة، أو إلها غير منظور، أو بشرا قدسيا أو زعيما كالشيطان وقد يعبدون أسلافهم، أو أوطانهم، أو الطبقة، أو الحزب الذي ينتمون إليه، أو يعبدون المال أو النجاح، ويمكن أن يقودهم دينهم إلى تنمية نوازع التدمير أو روح المحبة، إلى تنمية النزوع للتسلط والسيطرة أو روح التكافل والتضامن إلى تنمية قدراتهم العقلانية أو إصابتها بالشلل[21].

هناك حاجة دائمة للدين فالغرب في أزمة روحية باتفاق الملاحظين النقديين. إنها أزمة توصف بأنها توعك وسأم وداء القرن وخمود الحياة وأتمتة الإنسان واغترابه عن نفسه وعن أخيه الإنسان وعن الطبيعة. لقد اتبع الإنسان العقلانية إلى الحد الذي حولت فيه العقلانية نفسها إلى نفي كامل للعقلانية، ومنذ ديكارت أخذ الإنسان يفصل التفكير عن العاطفة على نحو متزايد، فالتفكير وحده يعد عقليا، والعاطفة بصميم طبيعتها غير عقلية، والشخص "أنا" قد انشطر إلى عقل يشكل ذاتي، وهو الذي يجب أن يسيطر علي كما يسيطر على الطبيعة، وأصبحت السيطرة على الطبيعة بوساطة العقل، وإنتاج الأشياء أكثر فأكثر، هما الغايتان الساميتان للحياة، وفي هذه العملية حول الإنسان نفسه إلى شيء وأصبحت الحياة خاضعة للملكية، إذ هيمن التملك على الكينونة[22].

إن واقع الإنسان المعاصر مناقض لغاية الحياة في الثقافة الغربية (اليونانية والعبرية والمسيحية على حد سواء)، فبينما كانت غاية الحياة كمال الإنسان في الفكر الغربي القديم، اتجه الإنسان الحديث إلى كمال الأشياء ومعرفة كيفية صنعها، والإنسان الغربي في حالة العجز الفصامي عن

خبرة العاطفة، وهو من ثمة قلق ومكتئب ويائس ولا يزال يبرقل يقول: "الكلام الذي لا يتبعه عمل" في غايات السعادة والفردانية وروح المبادرة ولكنه ليست له فعليا أية غاية[23].

بالعودة إلى تاريخ الفكر الغربي، كان فلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون وأرسطو يتكلمون بحجة العقل وباسم اهتمامهم بسعادة الإنسان وتفتح روحه، وكانوا يهتمون بالإنسان بوصفه غاية في ذاته على أنه الموضوع الأهم في بحثهم، وكانت رسائلهم البحثية في الفلسفة والنظام الأخلاقي أعمالا في علم النفس في الوقت ذاته[24].

وإذا رجعنا إلى رؤية فروم للمسيحية وهي الدين الغالب في المجتمع الغربي، فإن تصوره حول تاريخ الدين المسيحي لا يختلف عن القراءات اللاهوتية المعهودة، ذلك أن المسيحية كان يمكن أن تظهر كحركة مشيحانية ثورية ذات أهمية تاريخية، كحركة يوحنا المعمدان، لكن المذهب المسيحي الأول لا يتوجه نحو المتعلمين ولا نحو الملاك وإنما وجهته الفقراء والمضطهدين والبؤساء والأشخاص الذين يعانون[25].

لقد كان المسيح يدعو إلى فكرة قرب مملكة الرب وكان يعلم أتباعه إلى أن يرو أفعاله كبداية لسيادة عهده[26]. وأن الوصول إلى هذه المملكة يتطلب تغييرا كاملا لحالة الروح يكون فيه الإنسان مستعدا للتنازل عن ملذاته والتضحية بما يملك لإنقاذ روحه...وهكذا فإن إعلان هذه السيادة موجهة نحو الفقراء والدين يعانون والجوعى والعطشى وهم مستعدون للدخول في مملكة الرب، أما الأغنياء فإن الجحيم مصيرهم[27].

لم يبق هذا الوضع، فلقد تحولت المسيحية من ديانة المضطهدين الذين ينتظرون يوم الحساب وعودة المسيح إلى ديانة الأغنياء والطبقات الوسطى المؤثرة في المجتمع، لقد كانت المسيحية ديانة مجتمع الإخاء والمساواة دون تراتبية ولا بيروقراطية، وتحولت الكنيسة إلى انعكاس للملكية المطلقة للإمبراطورية الرومانية[28].

يفهم هذا التغير ضمن تحول المسيحية إلى ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، وتم ترسيم أسس العقيدة المسيحية في مجمع نيقية في عهد الإمبراطور قسطنطين وترسيخ الطبيعة المزدوجة للمسيح (بشرية وإلهية) ورمي كل من يرفض هذه الحقيقة بالكفر والهرطقة.

في نظر إيريك فروم، تحولت المسيحية من ديانة إنسانية إلى ديانة تسلطية، عندما تحولت من ديانة الفقراء إلى ديانة الذين يحكمون الإمبراطورية الرومانية، حينئذ، أصبح الاتجاه التسلطي في المسيحية مهيمنا. مع ذلك، لم يتوقف التراع بين المبدأين التسلطي والإنساني في المسيحية. وكان ذلك هو التراع بيت أوغسطين وبيلاجيوس، وبين الكنيسة الكاثولوكية والجماعات المهرطقة الكثيرة، وبين مختلف الطوائف ضمن البروتستانتية[29].

في حقيقة الأمر، إن مأساة الأديان الكبيرة كلها هي أنها تنتهك وتحرف مبادئ الحرية حالما تصبح ضخمة تحكمها بيروقراطية دينية، وإلى حد ما تتولى المنظمة الدينية والرجال الذين يمثلون الدور الذي تقوم بع الأسرة، والقبيلة والدولة، وهم يبقون الإنسان في العبودية بدلا من تركه حرا، وهذا ما حدث في كل الأديان فلا يعود الله هو الذي يعبد بل الجماعة التي تزعم أنها تتكلم باسمه[30].

في مقابل الدين التسلطي هناك الدين الإنساني الذي تتعدد صوره بتعدد الأديان، و لم يخفت العنصر الإنساني، الديمقراطي في التاريخ المسيحي أو التاريخ اليهودي، ووجد هذا العنصر تعبيرا من أقوى تعابيره في التفكير الصوفي في كلا يحتاج إلى الإنسان كما يحتاج الإنسان إلى الله، وفهموا الجملة التي تقول إن الإنسان د خلق على صورة الله بأنها تعني الوحدة الجوهرية بين الله والإنسان، وليس أساس الخبرة الصوفية الخوف والخضوع بل الحب وتأكيد المرء قدراته، ليس الله رمزا لسلطان على الإنسان بل هو رمز لقدرات الإنسان[31].

- ماكس هوركهايمر والحنين اللاهوتي:

لقد كان ماكس هوركهايمر اشتراكيا ملحدا، أما نظريته للدين فقد كانت مادية وأمبيريقية وتاريخانية وطبيعية، بالنسبة له فإن كل التمثلات حول الإله هي نتاج الإحساس الإنساني ونفس الشيء يقال عن إسقاطات الإنسان الفاقدة للموضوعية، يمكن القول بأن نظرية هوركايمر للدين إلحادية[32]، يقول ماكس هوركهايمر: "ماذا نعني بالدين بالمعنى الايجابي للكلمة؟ إنه يمثل الاندفاعية المحافظة على منطلقاتها ضد الواقع والمبتعدة دائما عن الاختناق والتي تهدف إلى تغيير الأشياء وتدمير الإغراءات وتسيير للأحداث بشكل جيد" وبالمثل يكون الدين سلبيا إذا كانت الانطلاقة تتحول إلى تأكيد وإعلان حقائق مزيفة للواقع وداعمة للأكاذيب... إذا كانت الانطلاقة صادقة فهي لا تحتاج إلى خطابات وعظية ولا إلى تأكيد وتبرير وحده الواقع يستطيع إظهار ذلك"[33].

هذا الكلام يؤكد ارتباط تصور هوركهايمر حول الدين بالتصور الهيجلي والماركسي والفيورباخي، ذلك أن الدين نتاج تاريخي للأمل ورغبة إنسانية، لأن فكرة الإله متجذرة في الإحساس الإنساني، لكن هوركهايمر، وتماشيا مع فلسفته الإلحادية يعتقد أنه يمكن إثبات وجود إحساس بالإله لدى الكثير من الناس، ولكن لا يستطيع تقديم إثبات ميتافيزيقي...إن هوركهايمر يأمل في أن يكون الإله موجودا ويتزعج من كل فكرة تثبت العكس.

إننا نعيش في قرن الماركسية والفرويدية والوضعية لأننا نعيش في قرن بدون إله[34] بالنسبة لهوركهايمر، وفي الزمن الحاضر الإله غير موجود، وهذا بالنظر إلى قوة المذاهب المذكورة آنفا.

إن تصور هوركهايمر للدين لا يجب أن ينسينا تناوله للمسألة اليهودية، فلقد عاش اليهود في أوروبا حياة العزلة لأسباب دينية وسياسية بحتة رغم نجاحهم المالي والثقافي.

هذا الرفض والاحتقار الذي لاقاه اليهود أيام الحكم النازي في ألمانيا يسمى بمعاداة السامية، والذي يريد أن يفسر هذه المعاداة فإنه يجب عليه أن يرجع إلى الإيديولوجية الاشتراكية الوطنية، ذلك أن هذه الموجة الجديدة لمعاداة السامية تمثل رسالة النظام التوتاليتاري المنبثق من الليبرالية، إنه يجب العودة إلى توجهات الرأسمالية[35].

يمكن فهم ذلك بالرجوع إلى كتاب ماكس هوركهايمر جدل التنوير[36] الذي ألفه مع زميله تيودور أدورنو، إذ يقول م.هوركهايمر: "فالعمل المنتج للرأسمالي الذي يبرر ربحه بالعائدات التي تعود إلى صاحب المشروع في زمن الرأسمالية أو بمرتب المدير كما هو الحال في أيامنا، كان إيديولوجية تغطي الطبيعة الحقة لعقد العمل وجشع النظام الاقتصادي، ولهذا السبب راح الناس يصرخون: أوقفوا اللص ثم يشيرون بالإصبع على اليهودي، لقد صار كبش محرقة لا للمناورات والتحركات الطردية وحسب بل وبمعنى عام لكل الإجراءات الظالمة التي تقترفها طبقة كاملة"[37].

لقد كانت معاداة السامية والاستعمار والإبادة مظاهر لفكرة العقل الأداتي وعلامة على فشل مشروع التنوير الذي طمح إلى تجسيد العدالة والحرية والسعادة وهي مثل نظرية لم تتحقق بشكل كلي.

هذه المواضيع كانت محاور مهمة لدى رواد النظرية النقدية (فروم، بلوخ، هوركهايمر)، ففي محاضرة ألفها ماكس هركهايمر عنوانها النظرية النقدية بين الأمس واليوم كتب هذا الأخير:

"إن ما يثير قلق النظرية النقدية هو مصير سلطة الفرد التي تضيع شيئا فشيئا ونفس الشيء يحدث بالنسبة لمصير اللاهوت والدين في مجتمعنا الراهن فالدين واللاهوت ليسا فقط في أزمة وفي بعض البلدان انطفأت جذوتهما"[38].

هذه العودة للاهوت والذين تفسر بالنظر إلى طبيعة المشكلات البشرية (الغنى الفاحش، تناول المسكرات، الفضاعة، اللاعدالة، التي عددها مؤسس معهد البحث الاجتماعي، وهذا فإن العودة إلى التقليد والمقولات الدينية مهم لا كحقائق عقائدية وإنما وجب تحويلها إلى فكرة الحنين إلى الآخر والإحساس بمعاناته وهذا هو جوهر اليهودية المؤمنة بكائن أبدي كامل الصفات وعادل[39].

هذه العودة إلى الدين وبالتحديد إلى الفكر اللاهوتي ليست غريبة فالنظرية النقدية منطلقها نظريتين دينيتين: أولهما نظرية الخطيئة الأصلية، فاسعادة الإنسانية ثمنها الأم البشر، كما أن الثقافة الحالية هي نتاج ماض مروع (الثورة الفرنسية مثلا)، أما النظرية الدينية الثانية فهي مستخلصة من مقولة تراثية تؤكد على أنه لا يمكن للإنسان أن يتشبه بالإله، ويفهمها هوركهايمر على أنه يستحيل تحديد الحق المطلق ولهذا السبب فإن كل الأحكام المعرفية والأخلاقية تظل نسبية، ذلك أننا نستطيع أن نبين أين هو الشر ولكن لا نستطيع تحديد الحق المطلق.[40]

خـــاتـــمـــة:

خلاصة القول رغم أن هؤلاء الفلاسفة ينتمون فكريا للماركسية (بلوخ، فروم، هوركهايمر) إلا أنهم ظلوا يفكرون في إطار التقليد اليهودي، ذلك أن نقدهم للمجتمع يظهر من خلال إدراكهم لمسألة المحرقة النازية متخذين من وجهة نظرهم حول الحياة المعطوبة والبربرية، والأنظمة الشمولية منطلقا لهم في تشخيصهم النقدي للحضارة الغربية، كما أن مواقفهم للدين أثبتت ايجابية المقولات الدينية وضرورة استعادتها بما يخدم الإنسانية.

الهـــــــوامش:

1) توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعد هجرس، مراجعة د.محمد حافظ دياب، دار أويا (ليبيا)، ط2، (2004)، ص25.

2) Ernst bloch, Thomas Munzer, théologien de la révolution, traduit de l'allemand par Maurice de gandillac union d'édition générale France, 1975, p20.

3) Ernst Bloch, Thomas Munzer, théologien de la révolution, op-cit, P79.

4) libid. P80.

5) libid. P81.

6) Ernst Bloch, héritage de ce temps, traduit de l'allemand par Jean la Coste, Payot (France) ; 1978, p117.

7) libid. p118.

8) libid. p124.

9) libid. p129.

10) Ernst Bloch, l'athéisme dans le christianisme, la religion de l'exode et du royaume, traduit de l'allemand par Eliane kaufolz et Gérard Raulet, Gallimard (France), 1978, p77.

11) lbid. p81.

12) Ernst Bloch, l'athéisme dans le christianisme, la religion de l'exode et du royaume, op-cit, p82.

13) دوغلاس كيلنر: أستاذ كرسي فلسفة التربية بجامعة كاليفورنيا (لوس أنجلس).

14) سعد البازعي، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، ط1، 2007، ص313.

15) إريك فروم: الإنسان المستلب وآفاق تحرره، ترجمة وتعليق د.حميد لشهب، تقديم د.راينرفونك، شركة نداكوم للطباعة والنشر (المغرب)، 2003، ص24.

16) المصدر السابق، ص25.

17) إريك فروم: الإنسان المستلب وآفاق تحرره، ص25-26.

18) إيريش فروم، التحليل النفسي والدين، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار (سوريا)، الطبعة الأولى 2012، ص74.

19) إيريش فروم، التحليل النفسي والدين، ص 74.

20) إيريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة وتقديم لطفي

21) عظيم، سلسلة عالم المعرفة، 1989، العدد 140، الكويت، ص127.

22) نفس المصدر.

23) إيريك فروم، د.ت.سوزكي، ريتشارد دي مارتينو، بوذية الزن والتحليل النفسي، ترجمة محمود محمد الهاشمي، أزمته للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006، ص115.

24) المصدر السابق، ص116.

25) إيريش فروم، الدين والتحليل النفسي، ص64.

26) Erich Fromm, le dogme du christ et autres essais, traduit de l'américain par Paul Alexandre, éditions complexe (Belgique), 1975, p40.

27) Erich Fromm, le dogme du christ et autres essais, op-cit, p41.
28) Ibid, p41.
29) Ibid, p61.
30) إيريش فروم، الدين والتحليل النفسي، ص110.
31) إيريش فروم، الدين والتحليل النفسي، ص146.
32) نفس المصدر، ص110-111.
33) Rudolf Siebert, le relatif et le transcendant, la sociologie critique de la religion de Max Horkheimer, Traduit de l'anglais (Etas unis) par fabien Ollier et Henri vaugrand, l'harmattan, 2005, p44.
34) Max Horkheimer, notes critiques (1949-1969), sur le temps présent, tra de l'allemand parabine corneille et Philipe Ivernel, Payot, 2009, p144.
35) Rudolf, Sibert, le relatif et le transcendant, op-cit, p44-45.
36) Les juifs et l'Europe. Max Horkheimer, trad. de Jean-Louis Schlegel. Revue prétentaines, 1998, p77.
37) وضع هذا الكتاب في نهاية الحرب العالمية الثانية وهو بمثابة بيان إعلان فشل فلسفة التنوير.
38) جدل التنوير، شذرات فلسفية، ماكس هوركهايمر، تيودور أدورنو، ترجمة جورج كتوره، دار الكتاب الجديدة، ص204.
39) Max Horkheimer, la théorie critique, traduction collective, présente par Luc ferry et Alain Renault, Payot, 1978, p360.
40) Max Horkheimer, la théorie critique, op-cit, P360-361.
41) Ibid

قائمة الكتب باللغة العربية:

- إيريك فروم، الإنسان المستلب وآفاق تحرره، ترجمة وتعليق د.محمد لشهب، تقديم د.راينرفونك، شركة نداكوم للطباعة والنشر (المغرب)، 2003.
- إيريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة وتقديم لطفي عظيم، سلسة عالم المعرفة، 1989، العدد 140، الكويت.
- إيريك فروم، التحليل النفسي والدين، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار (سوريا)، ط1، 2012.
- إيريك فروم، د.ت سوزوكي، ريتشارد دي مارتينو، يوذية الزن والتحليل النفسي، ترجمة محمود محمد الهاشمي، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006.
- توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعد هجرس، مراجعة د.محمد حافظ دياب، دار أويا وليبيا، ط2، 2004.

- سعد البازعي، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي (المغرب)، ط1، 2007.
- ماكس هوركهايمر، تيودور ادورنو، جدل التنوير، شذرات فلسقية، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة (ليبيا)، 2003.

قائمة الكتب باللغة الفرنسية:

- Erich Fromm, le dogme du christ et autres essais, traduit de l'américain par Paul Alexandre, éditions complexe (Belgique), 1975.
- Ernst Bloch, Héritage de ce temps, trad. de l'allemand par jean la Coste, Payot (créance), 1978.
- Ernst Bloch, l'athéisme dans le christianisme, la religion de l'exode et du royaume, traduit de l'allemand par eliane khaufot et gerard Raulet, gallimard (France), 1987.
- Ernst Bloch, Thomas Munzer, théologien de la révolution, traduit de l'allemand par Maurice de gandillac, union d'édition générale, France, 1975.
- Max Horkheimer, Notes critiques (1949-1969), sur le temps présent trad de l'allemand par sasine corneille et phillipe ivernel, Payot, 2009.
- Max Hortheimer, la théorie critique, traduction collective, presente par luc ferry et Alain Renault, Payot, France, 1978.
- Rudolf j, siebert, le relatif et le transcendant, la sociologie critique de la religion de Max horkheimer, traduit de l'anglais (Etats unis) par fabien ollier et henri vangrand l'harmattan, 2005.

– قائمة المجلات:

(4) Les juifs et l'Europe, Max horkheimer, traduction de jean louis shlegel, revue pretentaines (France), 1998, N°09-10.

النظرية السوسيولوجية في علم الاجتماع
(خصائص وأنماط وواقع)

أ. الويزة سي محمد

جامعة البويرة

ملخص: يسعى كل علم من العلوم إلى بناء نظرية تكون الموجه الأساسي لمختلف الدراسات، وعلم الاجتماع يحتوي على الكثير من النظريات الكلاسيكية والمـُحدثة، ويطلق عليها –بشكل عام– النظرية السوسيولوجية، ولها خصائص وشروط ووظائف، فهي نسق استنباطي يتضمن مجموعة من الفروض، ويجب أن تكون واضحة ومحددة. وتجدر الإشارة أنّ هناك جدلا علميا كبيرا مستمرا بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية، حول طبيعة النظرية المستخدمة في هذه العلوم، وما ينبغي أن تكون عليه النظرية باعتبارها الموجه الأساسي لكل من الدراسات النظرية المجردة أو الدراسات الميدانية (الإمبريقية)، واعتبارها ذات أهمية كبيرة للعلماء. وفي هذا المنوال ارتأينا ذكر تعريف للنظرية، وخصائصها، وطبيعتها، وأهم النماذج الموجودة في علم الاجتماع، مع إشارات إلى أزمة (المنهج) التي يعاني منها علم الاجتماع، وأخيرا دور علم الاجتماع في تطور النظرية السوسيولوجية.

الكلمات المفتاحية : علم الاجتماع، النظريّة السوسيولوجية، المنهج، النموذج.

Traduction : Toute science a pour but de découvrir une théorie qui dirigera par la suite différentes études, ainsi les sciences social sont riche en théories classique et moderne, mais elle est généralement nommée théorie sociologique : contient des spécificités, des Conditions, et des fonctions, c'est donc un système Hypothético-déductif qui contiens des Hypothèses, et qui doit être claire et spécifiée. Il faux signaler qu'il y a des différences entre la sociologie etles sciences naturel au sujet des théories utilisées dans ces sciences, et comment il faudrait qu'elles soient étant donnée qu'elle est le guide essentiel des études Abstraites et Empiriques, et les considères d'une très grande importance pour les savons. Finalement nous avons donnes une définition pour la théorie, et ces spécificités, et sa nature, et au plus importants modèles qui existent en sociologie, en citant la crise (méthode) qui fait défaut en sociologie, et en fin le rôle de la sociologie dans le développementde la théorie sociologique.

Mots clés : sociologie, théorie sociologique, méthode, model.

Abstract : To discover a theory any science which aims to lead by Following the different studies and the social sciences are rich in classical and modern theories, but it is generally called sociological theory contains specificities, Conditions, and functions, so this is a hypothetical-deductive system who contain Assumptions, whichmust be clear and specified .
This false report that there are differences between sociology and the natural sciences about the theories used in these sciences, and how it would have to be given that it is the essential guide to Abstract and Empirical Studies, and considered of great importance to know.
Finally we give a definition for the theory and these characteristics,and nature, and the most important models that exist in sociology, citing the crisis (method) that is lacking in sociology, and ultimately the role of sociology in the development of sociological theory.
Keywords : sociology, sociological theory , method , model.

مقدمة: تعتبر النظرية المدخل الأساسي لإنجاز البحوث السوسيولوجية (العلمية)، وعلم الاجتماع قام بإنتاج طرائق بحث ومناهج خاصة به، وسعى إلى تطوير طرقه التحليلية لتساهم في تطويره، ولكن الملاحظ هو تعدد هذه المناهج والطرائق واختلاف المفاهيم العلمية، وما يميز الحاضر الإنساني هو سيادة الفكر العلمي الذي يتضمن ضرورة ثبات الاتساق المنطقي، الذي يشكل العلاقة بين تشكل البناء المعرفي والاعتماد على الواقع الذي يتناول طرقا منهجية مقننة، وهما أساس المعرفة العلمية.

وعلم الاجتماع جزء من المعرفة الإنسانية، يحاول العاملون فيه الارتقاء بمستويات المعرفة فيه، وهو كذلك جزء من العلوم الاجتماعية ونتائجه احتمالية، ولقد ظهرت فيه نظريات عديدة تتباين أحيانا بسبب الاختلافات الإيديولوجية، أو على أساس وحدة التحليل التي يتم اختيارها، ورغم التباين بين علماء الاجتماع في معنى النظرية، ولكن معظمهم تصوّر أنّ النظرية: تشكل نسقا معرفيا منظما ومنطقيا، ويتضمن هذا النسق تصورا للواقع الذي يتناوله، ويتكون من قضايا ومفاهيم وتعريفات وافتراضات.

- **النظرية السوسيولوجية : تعريفها، طبيعتها، وخصائصها**:

هناك تباين في تعريفات النظرية، ويعود إلى تباين الواقع الاجتماعي النوعي والطبيعي، واختلاف المجتمعات المدروسة (الفترة الزمنية)، وإلى استخدام المنهج من منظر

إلى آخر، ويمكن تقديم تحديد "بوتومور" لطبيعة النظرية في علم الاجتماع من خلال أهمية أثرها في إقامة تعميمات واسعة من الارتباطات الإمبريقية التي أمكن التوصل إليها، بحيث تخضع هذه التعميمات للاختبار عن طريق بحوث مستقبلية"[1].

وتتحدد طبيعة مكونات النظرية باعتبارها نسقا استنباطيا يتضمن مجموعة من الفروض التي تحتل مكانة للمقدمات وأخرى للنتائج التي يتوصل إليها، كما تشمل النظرية أيضا مجموعة من المفاهيم والقضايا والقوانين، التي يمكن التوصل إليها، وصياغة التعميمات حولها.

ومن شروطها أن تكون واضحة ومحددة وموجزة وشاملة وقابلة للاختبار، وقادرة على التنبؤ العلمي، ولعل من أهم الشروط التي حددت للنظرية هي: وضوح المفاهيم، واتساق الأفكار واستنتاج القوانين.

وتعتبر النظرية بمثابة الإطار الفكري التصوري الذي يجمع الحقائق والمعرفة والنتائج التي يتوصل إليها الباحثون، ومن ثم تتجلى خاصية النظرية بأنها تقوم بتجميع هذه الحقائق بصورة سهلة، يمكن إعادة دراستها وتحليلها، وأخيرا تتصف بخاصية كون صياغة النظريات لا تكون صياغة استاتيكية جامدة بقدر ما تتسم بالمرونة والتجديد[2].

وللنظرية السوسيولوجية مجموعة من الوظائف التي تؤديها لخدمة الباحثين والبحث العلمي، حيث تقوم بتحديد أنواع البيانات وتجريدها، وتقديم إطار تصوري يقوم بتنظيم وتصنيف الظواهر المدروسة، وتساعد على التنبؤ، وتقوم كذلك بتوجيه عملية البحث الاجتماعي وهي مصدر رئيسي لصياغة الفرضيات، وأحد مكونات الإطار المرجعي لتفسير نتائج البحوث والدراسات[3].

كما نجد أن لهذه النظرية طبيعة تجعلها أكثر تميزا وتحديدا وتعريفا سواء للمهتمين بدراستها وتحليلها من المختصين في علم الاجتماع أو بالأحرى في مجال النظرية السوسيولوجية: "وهذا ما يجعلنا نهتم بدراسة الدور الذي تقوم به النظرية السوسيولوجية في تطوير وتحديث تناول الظواهر والمشكلات السوسيولوجية وكيفية تفسيرها من الناحية الواقعية"[4]، فالنظرية السوسيولوجية إذن تحدث دائما نوعا من الارتباطات بين المستوى النظري وكذلك المستوى الميداني في الوقت نفسه.

وعند دراسة طبيعة النظرية السوسيولوجية، لا يكفي فقط إبراز أوجه الاختلاف والتشابه بين هذه النظرية والنظرية العلمية، أو معرفة الدور الوظيفي الذي تقوم به في تطور علم الاجتماع وفروعه والعلوم الاجتماعية والإنسانية، لكن من الأهمية معرفة الصعوبات والمشكلات التي تتعرض لها: "كمعرفة إلى أي حد تواجه النظرية السوسيولوجية كنظرية علمية، العديد من الصعوبات والمشكلات التي تواجهها عند دراسة الظواهر الاجتماعية"[5].

والنظرية السوسيولوجية عامة لها أسس ومبادئ عامة تقوم عليها والتي تعطي لها صفة النظرية السوسيولوجية بكل ما تحمله هذه الكلمة من مميزات وخصائص يقيمها علم الاجتماع عامة.

2- مشكلة المنهج في علم الاجتماع:

تعتبر النظرية أحد العناصر الأساسية للمعرفة العلمية في علم الاجتماع ، وهذا يدفعنا إلى القول إن هناك اختلافا جوهريا بين النظرية السوسيولوجية والنظرية العلمية: "فالنظرية العلمية تتضمن كل جوانب المعرفة العلمية المطلوبة بينما تعتبر النظرية السوسيولوجية جزءا من المعرفة العلمية"[6].

وعلم الاجتماع منذ نشأته سعى إلى معرفة الطريقة التي ستسمح بالوصول إلى نتائج "موضوعية"، وهذا بتحديد الإطار المنهجي والمشكلات النظرية التي ترتبط بتفسير الظواهر الاجتماعية، أو ما يمكن أن نسميه ببناء المنهج التجريبي وبناء النظرية السوسيولوجية.

وقع الاختيار في بادئ الأمر على طرق ومناهج العلوم الطبيعية التي أثبتت جدارتها الإبستمولوجية، وتتحدد مشكلة المنهج في علم الاجتماع حول كيفية استخدام التجريب العملي في البحث والتحليل، حيث اتجهت الكثير من الدراسات إلى: "اتخاذ المنهج الكمي في الدراسات الميدانية، وهناك دراسات تجمع بين المنهج الكمي والمنهج الكيفي في آن واحد"[7].

وهذا يدفع بالمهتمين بالبحث الاجتماعي والنظري إلى البحث عن نموذج تصوري يحدد العلاقة بينهما، حيث نجد أن البحث الاجتماعي يُستخدم لتقييم طبيعة النظريات للوقوف على مدى صحتها ومطابقتها للواقع الاجتماعي.

وهذا يوصلنا إلى نتيجة عامة وهي أن أزمة المنهج في علم الاجتماع تعود إلى وجود صراع بين اتجاهين؛ الأول يدافع عن فكرة الفصل بين الاعتبارات الذاتية التي قد تعوق الفهم الموضوعي للواقع الاجتماعي، وينادي باستعمال القياس والرياضيات للوصول إلى علمية النتائج، أما الاتجاه الثاني فيعارض هذا الطرح، ويرفض فكرة اعتبار الأفراد كوحدات إحصائية، ويطالب بفهم المستويات القيمية والرمزية التي تؤسس الواقع الاجتماعي.

3- الأنماط الأساسية للنظرية الاجتماعية:

يمكن تحديد الخصائص الأساسية للنماذج النظرية على النحو الآتي:

3-1- النموذج العضوي- البنائية الوظيفية:

يرى هذا النموذج أن المجتمع نسق يتكون من أجزاء مترابطة فيما بينها، وكل جزء يؤدي وظيفة معينة، فالمجتمع هو النقطة المشتركة بين المدرسة العضوية والبنائية الوظيفية، ويرى المدخل العضوي أن هناك عددا من القوانين الطبيعية في المجتمع تمارس بطريقة آلية عضوية فعاليتها، بينما يتطور النسق الاجتماعي أثناء نموه، وهناك من يرى المجتمع في صورة تماثل صورة الكائن العضوي وهذه الصورة واضحة في كتابات "إميل دور كايم"، "حيث تجعل الفرد معتمدا اعتمادا كليا على الجماعة في مجالات الفكر والعمل، وذلك من منطلق أن الجماعة تسبق في وجودها وجود الفرد"[8].

فهناك تأكيد أن المجتمع كائن متكامل متجانس يعتمد على نسق تقسيم العمل الذي يرتبط بأنواع من المعايير التي تربط الفرد بالبيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

أما النموذج الثاني الذي يتمثل في المدخل البنائي الوظيفي الذي يعتبر رؤية عن المجتمع في إطار المشكلات الأساسية، وتظهر هذه المحاولات في أعمال "ميرتون" الذي سعى لبناء نظرية في علم الاجتماع والذي انطلق من نقد النزعة الوظيفية عند بارسونز، وبالعودة إلى فكرة النسق يرى ميرتون: "إننا إذا ما درسنا بعض الأنساق في عالم الواقع، فمن الواضح أن تقودنا هذه الدراسة إلى مدى أوسع من الاحتمالات التجريبية، فأولا يمكن أن تؤدي العناصر وظيفة إيجابية في نسق أو آخر، وأن تكون هذه العناصر معوقات وظيفية لعناصر أخرى معيّنة أو للنسق الكلي"[9].

3-2- نموذج الصراع والراديكالية:

يهتم نموذج الصراع مثله مثل النموذج البنائي الوظيفي بالنسق، ويرى أن "الصراع عملية حتمية وأساسية داخل النسق بدلا من تأكيد التوافق والتكامل بين أجزاء النسق"[10]، ويحدث الصراع في المجتمع، وهو في حالة تطور مستمر، ومدخل الصراع التقليدي نجده واضحا في كتابات وأعمال كارل ماكس الذي طبق منهج المادية الجدلية، عند تحليل تاريخ نضال الإنسان مع الطبيعة ومع نفسه، وتحاول نظرية الصراع المعاصرة إعادة صياغة المدخل الماركسي لتجعله أكثر ملائمة لفهم المجتمع الصناعي الحديث، وقد أدمجت نظرية الصراع في علم الاجتماع المعاصر في آراء وأفكار المدخل الراديكالي، ومن بين رواده نجد رايت ميلز، والذي ساير الماركسية في اهتماماتها بعلم الاجتماع التطبيقي بدلا من علم الاجتماع النظري، ومن ثم ينظر نموذج الصراع- الراديكالي إلى المجتمع باعتباره نسقا تسوده قوة متصارعة تنشأ من صراع الأفراد لتلبية الحاجات الأساسية (الفيزيقية).

4- علم الاجتماع وتطور النظرية السوسيولوجية:

يصعب على القارئ والمهتم بدراسة النظرية السوسيولوجية، دراسة الظواهر والقضايا التي تهتم بها، دون التعرف على مجموعة العوامل والظروف التي مهدت بالفعل لنشأتها وتطورها، ولتحليل العوامل الرئيسية والممهدة لظهور النظرية السوسيولوجية التقليدية دور هام في معرفة الصورة التي وصلت إليها هذه النظرية في العصر الحديث. "إن دراسة النظرية السوسيولوجية مرتبطة بتاريخ علم الاجتماع، فلقد ظهر هذا العلم نتيجة طبيعية لظهور المجتمع الصناعي والرأسمالي"[11]، وهذا يعود بنا إلى القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، وهناك عدة عوامل اجتماعية وفكرية مهدت لظهور وتطور النظرية السوسيولوجية التقليدية، ولقد استعرضت لنا كتب التاريخ أهم هذه العوامل؛ والتي تتعدد في الثورات السياسية التي اجتاحت أوروبا الغربية، وخاصة الثورة الفرنسية، لتضع الملامح الأولى لحركات التغير، والإصلاح الشامل، والذي غير وجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في أوروبا خاصة والعالم عامة خلال العصر الحديث، ونجد كذلك الثورة العلمية، وهذا من خلال إنجازات العلماء والتاريخ هو الشاهد عليها: "إذا نظرنا إلى التاريخ على أنه أكثر من تسجيل لحكايات أو تسجيل زمني، فإنه يقدم تحولا حاسما في صورة العلم التي نحن

بصددها الآن، وقد تشكلت هذه الصورة من قبل على يد العلماء أنفسهم خاصة في دراسة الإنجازات العلمية المكتملة"[12].

ولقد صاحب هذه الثورة مجموعة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية، مثل عملية التحضر، ونمو المدن، وزيادة حركة التصنيع، ولقد أثرت العوامل الفكرية في تطوير النظرية السوسيولوجية، وهذا منذ حركات الإصلاح والتنوير والتي أتت مناهضة لنظم السيطرة التي كانت تفرضها الكنيسة، والباحث في علم الاجتماع من خلال معرفة تاريخ النظرية، وأهم إسهامات المفكرين والمنظرين فيها، تتوضح له صورة شاملة وواضحة يعتمد عليها في معرفة مفاهيم وفرضيات بصفة عامة، من خلال معرفة نموذجها التحليلي، الذي يشكل الركيزة الأساسية لقيام النظرية.

5- العلاقة بين الخيال السوسيولوجي والاتجاه الإمبريقي:

عندما يفسر عالم الاجتماع الواقع الاجتماعي فإنه يعتمد في ذلك على نظرية سوسيولوجية، تستمد مقوماتها من نتائج الدراسات الإمبريقية لهذا الواقع الذي يتضمن بدوره كل النتاج الفكري للإنسان من قواعد للتنظيم ونظم ثقافية، تعكس صور هذا الواقع في مخيلة الباحث.

وتتميز دراسة المجتمع التي تتم من خلال الخيال السوسيولوجي بأنها تدور حول ثلاث موضوعات؛ تتلخص في:

a. طبيعة البناء الاجتماعي ومكوناته وشكل الترابط بين أجزائه.
b. مكان المجتمع موضوع الدراسة من التاريخ الإنساني ومعنى وجوده بالنسبة لتطور الإنسانية.
c. طبيعة نماذج الرجال والنساء، ومعنى كل سمة من سمات المجتمع بالنسبة للطبيعة البشرية، وهذه الموضوعات تمثل محاول الدراسة الكلاسيكية للفرد داخل المجتمع والأسئلة التي يثيرها أي ذهن يتمتع بالخيال السوسيولوجي[13].

ومن مفهوم الخيال السوسيولوجي ارتأينا تقديم أهم الانتقادات التي وجهها "ميلز" "للنزعة الإمبريقية المجردة"، والتي تسود في العلوم الاجتماعية ، هذه الأخيرة تبنت فلسفة العلوم الطبيعية في

دراسة الإنسان، وأشار إلى فكرة هامة وهي تحويل علم الاجتماع إلى علم طبيعي يستخدم نفس المعادلات الرياضية الشائعة في الفيزياء، وهذا خضوع حسب ميلز لطغيان المفاهيم وعبودية المنهج والأدوات، وطرح فكرة الموضوعية في البحث، ويطالب "بخيال" سوسيولوجي يربط فيه الباحث الوقائع بالأفكار بطريقة إبداعية، والاقتراب والابتعاد عن الظاهرة موضوع الدراسة ويعبر عن هذه الفكرة بقوله: "إن ما أهدف إليه هو تحديد واقع الظروف الإنسانية تحديدا موضوعيا، وأن تجد تصوراتنا ومفاهيمنا قبولا من جانب الجماهير العريضة"[14].

قدم ميلز عدة انتقادات للمسلمات النظرية والمنهجية الشائعة في علم الاجتماع، وهذا في مؤلفه "الخيال السوسيولوجي"، ويفسر الأزمة التي حدثت بأنها راجعة إلى التصورات الخاطئة للمفهوم السوسيولوجي. وطالب بتفريغه من المضمون الإيديولوجي، وهنا تظهر أهمية المفاهيم في علم الاجتماع، خاصة المفاهيم التي تنتمي إلى نظرية سوسيولوجية في حقل من حقول علم الاجتماع.

6- الاهتمام بالنظرية السوسيولوجية والواقع الاجتماعي:

يشكل الاهتمام بالنظرية السوسيولوجية فرعا هاما من فروع علم الاجتماع العام، وتحديدا ضمن فرع علم اجتماع المعرفة خاصة، والذي يختص في دراسة القضايا النظرية الأساسية والمبادئ الإبستيمولوجية لمختلف المدارس السوسيولوجية المتعارضة فيما بينها، وقبل معرفة العلاقة الموجودة بين النظرية السوسيولوجية والواقع الاجتماعي، لابد من توضيح الدور الذي تؤديه في العلم، فهي تحدد للباحث مجالا للتوجيه يستطيع في ضوئه أن يختار من المعلومات والبيانات ما يصلح للتجريد، وتقدم الإطار التصوري الذي ينظم ويصنف الظواهر ويعين العلاقات المتبادلة فيما بينها وتحدد كذلك التغيرات، ومواضيع النقص في المعرفة[15].

وتظل النظرية الموجه الأساسي للبحث الاجتماعي، ومواضيعه "إن النظرية تظل فاعلة، لا من حيث هي ادعاء مصدق تماما بالكمال الذي يستنفذ كل إمكانات الموضوع وأبعاده، بل يساعد على تمكن الذات من الموضوع"[16]، وكذلك تقوم باختيار الفرضيات التي بلورتها الملاحظات العينية للواقع الاجتماعي.

ومن بين الأمور التي ساهمت في التوفيق بين الإبستمولوجية وعلم اجتماع المعرفة اعتبار النظرية الاجتماعية ظاهرة اجتماعية قائمة على أساس واقعي. وهو ما يدلنا على بديهية العلاقة التي تربط النظرية بالواقع الاجتماعي.

ولفهم هذه العلاقة أكثر يمكن الرجوع إلى الحوار القائم بين الفكر والواقع، والذي عمل المفكرون والمنظرون كثيرا من أجل الحفاظ على طبيعته وتوازنه واستمراريته، ومن بين هؤلاء نذكر "روبرت ميرتون"، الذي حدد الوظائف الأساسية للنظرية الاجتماعية في كتاب عناصر النظرية، والمنهج السوسيولوجي، وأيضا "رايت ميلز" الذي صورها في قالب عصري جسده كتاب "الخيال السوسيولوجي"، إضافة إلى برامج بارسونز التي أضافت أبعاد تحليلية جديدة للنظرية السوسيولوجية.

نستطيع معرفة دور العالم في علم الاجتماع من خلال محاولته تفهم الواقع الاجتماعي، وتفسيره من خلال نظرية سوسيولوجية، تعتمد في بنائها على نتائج الدراسة الإمبريقية لهذا الواقع، حيث يشمل هذا الواقع كل ما أنتجه فكر الإنسان من قواعد التنظيم ومن ثقافة ومعرفة في مختلف الميادين الفكرية والعلمية.

خاتمة:

تتميز النظرية السوسيولوجية بطبيعة وضع الارتباطات بين المستوى النظري والمستوى الميداني، وكغيرها من النظريات لها صعوبات ومشاكل فيما يخص دراسة الظواهر الاجتماعية، ومن بين هذه المشاكل، نجد المنهج الذي يسعى من خلاله الباحث إلى الوصول إلى الموضوعية، وهناك اتجاهان؛ الأول يحث على اعتماد مناهج العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية، ولثاني يدافع عن فكرة فهم المستويات القيمية (القيم)، والرمزية (الرمز) التي هي أساس الواقع الاجتماعي.

ولقيام نظرية يجب أن تمر على عدة مراحل ومنها تكوين الفروض وبناء النسق الشكلي وهذا بوضع نسق من الافتراضات، وإضافة تفسيرات واحتمالات مع وضع علاقات بين المصطلحات التي تتضمنها الفروض. ولتحليل الظواهر الاجتماعية هناك عدة مناهج يعتمد عليها العلماء كمنهج التحليل البنائي ومنهج التحليل الوظيفي، وكذلك منهج التحليل السببي، وغيرها. وبالعودة إلى تاريخ النظرية لعلم الاجتماع، نلاحظ ظروفا اجتماعية واقتصادية وسياسية مهدت

لنشأة النظرية السوسيولوجية وساهمت في تطورها كالثورة الفرنسية، وكذلك حركة الإصـــلاح والتنوير، وظهر مفكرون ومنظرين أعطوا صفة العلمية للنظرية من خلال مؤلفاتهم وأعمالهم، ونجد من بينهم رايت ميلز من خلال كتابة الخيال السوسيولوجي الذي يحتوي على نقد للنزعة الإمبريقية المجردة، وطالب بخيال سوسيولوجي يربط فيه الباحث الوقائع بالأفكار بطريقة الداعية.

الـــهـــوامش :

1. عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003م، ص60.
2. نفس المرجع، ص 61، بتصرف.
3. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، ط2، درا الشروق، عمان، 2005م، ص 24.
4. عبد الله محمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 64.
5. نفس المرجع، ص 64.
6. طلعت إبراهيم لطفي، كمال عبد الحميـــد الزيـــات، النظريـــة المعاصـــرة في علـــم الاجتمـــاع، دار غريـــب، القاهرة،1999م، ص 22.
7. طلعت إبراهيم لطفي، نفس المرجع، ص 23.
8. السيد عبد العاطي السيد، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001م، ص 247.
9. جوناثان تيرنر، بناء نظرية علم الاجتماع، تر: محمد سعيد فرح، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000م، ص 81.
10. جراهام كينلوتش، تمهيد في النظرية الاجتماعية، تطورها ونماذجها الكبرى، تر: محمد ســـعيد فـــرح، دار المعرفـــة الجامعية، الإسكندرية، 1998م، ص 43- 44.
11. عبد الله محمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 48.
12. توماس كون، تركيب الثورات العلمية، تر: ماهر عبد القادر، محمد علي، ط3، دار المعرفة الجمعية، الإســـكندرية، 2000م، ص 41.
13. محمد عاطف غيث، الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر، دار المعرفة الجامعيـــة، الإســـكندرية، 1990م، ص 20.
14. السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ص 190.
15. أحمد مصطفى خاطر، عدلي علي طاحون، بناء النظرية الاجتماعية، مدخل نظري واقعـــي، المكتـــب الجـــامعي الحديث، الإسكندرية، 1995م، ص 63.
16. جابر عصفور، نظريات معاصرة، ط1، دار الهدى، دمشق، 1998م، ص 317.

قائمة المصادر والمراجع:

(1) أحمد مصطفى خاطر، عدلي علي طاحون: بناء النظرية الاجتماعية، مدخل نظري واقعي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1995م.

(2) توماس كون،تركيب الثورات العلمية، تر: ماهر عبد القادر، محمد علي، ط3، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م.

(3) جابر عصفور، نظريات معاصرة، ط1، دار المدى، دمشق، 1998م.

(4) جراهام كينلوتش، تمهيد في النظرية الاجتماعية تطورها ونماذجها الكبرى، تر: محمد سعيد فرح، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998م.

(5) جوناثان تيرنر، بناء نظرية علم الاجتماع، تر: محمد سعيد فرج، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000م.

(6) السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية: دار النهضة العربية، بيروت، 1985م.

(7) السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001م.

(8) طلعت إبراهيم لطفي، كمال عبد الحميد الزيات، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار غريب، القاهرة، 1999م.

(9) عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003م.

(10) محمد عاطف غيث، الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م.

(11) معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، ط2، درا الشروق، عمان، 2005م.

دور المؤسسات الاجتماعية في ترسيخ الثقافة البيئية لأجل نظافة المحيط الحضري

أستاذة بايود صبرينة

بقسم العلوم الاجتماعية/جامعة البويرة.

الملخص: تندرج هذه الدراسة ضمن الدراسات المتعلقة بالبيئة، كموضوع اجتماعي ثقافي من جهة، ومن جهة أخرى كونها وليدة عدة تساؤلات عن واقع البيئة في الجزائر، والتي تمّ حصرها في دور المؤسسات الاجتماعية ومدى مساهمتها في حماية البيئة وكذا المحيط الحضري من التلوث، وذلك من خلال دورها في التحسيس كجانب من الجوانب التوعوية والتثقيفية والتربوية، خصوصا في ظل الاهتمام المتزايد على المستوى الدولي والإقليمي والمحلي، الذي يظهر جليا في سياسات حكومات الدول التي تدعوا إلى ضرورة الاهتمام بالبيئة والذود عنها، نتيجة مخلفات الحياة الاجتماعية التي أثّرت بشكل مباشر على الصحة البشرية وجمالية المحيط الحضري .

جاءت هذه الورقة البحثية لتتطرق إلى دور المؤسسات الاجتماعية في ترسيخ الثقافة البيئية، وذلك بتسليط الضوء على المسؤولية التي تقع عليها والأداة التي ينبغي أن تتبناها لبلوغ أهدافها المرسومة والمرجوة منها .

Summary: This research is bound with other studies related to a larger and further look at the field of environment as a socio-cultural issue, especially when the Algerian society is living in an age of rapid and widespread economic and political change. Fundamentally, we think it is very important to develop an awareness, among our children and school population, of how the natural and man-made environment affects and is affected by human values , activities, and most of all , decisions this research tends to believe that this awareness is basic to the idea of environment. But since awareness of the issue and a desire to change are in themselves insufficient to lead to effective action; this research hops that teachers , families , parents contribute all together to this awareness of understanding their environment. The appreciation of nature is usually somehow recognized as areaspiration and ambition of educated people.

مقـــدمـــــة:

للثقافة دورٌ فعالٌ في حياة الأفراد والمجتمعات، وذلك من خلال وظائفها البيولوجية والنفسية والاجتماعية، ليتكيف الفرد ككائن بيولوجي مع بيئته، فهي التي تحدّد له الطرق والقواعد التي تساعده على التوافق مع وسطه الطبيعي والاجتماعي، وتعمل على ضمان وحدة الجماعة واستمرارها ووجودها في بناءِ المجتمع، لهذا يستمد أفراد الثقافة الواحدة من ثقافتهم عددا

من المفاهيم الأساسية التي تمكّنهم من تحديد ما هو جميل وقبيح، وما هو خير وشر. وبالتالي تعطي الفردَ القدرة على التصرّف في أيّ موقف، كما أنّها تهيئُ له أسبابَ التفكير والشعور بالمسؤولية.

وبما أنَّ البيئةَ هي جزءٌ لا يتجزأ من حياة الفرد، حاولنا معرفة كيفية تعامل الفرد معها. وهل له ثقافة بيئية، وبما أن المؤسسات الاجتماعية بمختلف فروعها هي الوعاء الذي ينهل منه الفرد الثقافة، حاولنا تسليط الضوء عليها، فحصرناها في مبحثين يتعلقان بدور المؤسسات الاجتماعية في اكتساب الفرد ثقافة بيئية، وهذا على مستوى المؤسسات الاجتماعية النظامية (رياض الأطفال، المدرسة) ويتجسد هذا في المبحث الأول، أما المبحث الثاني من خلال دور المؤسسات غير النظامية، فحصرناها في (الأسرة، وسائل الإعلام، الجمعيات، النوادي الإيكولوجية، الأحزاب السياسية، الأفراد).

(1) الإشكالية :

الثقافة البيئية تختص في ترقية المفهوم والقيم المتعلقة بمجالات الحياة ككّل، فهي عمليةُ إعدادٍ مبكرة تراعي مبادئ التربية الأساسية التي تتجّسد وتتمحور في المجال، هذا الأخير–المجال المكاني – يخص الحياة اليومية للأفراد، إنّه الوعاء الذي يتسّع لها، عبره تحدث مشاهد الحياة المختلفة، وفيه يظهر دور المؤسسات الاجتماعية وباعتبار أن المجال يمكن تقسيمه إلى قسمين: مجال داخلي؛ ونعني به المجال الداخلي للمسكن الذي يشمل على خصائصه البنائية، وتوزيع مجالاته التحتية، لما فيها من تجهيزات خاصة تساعد على تنظيمه وتسييره والاعتناء به، والمجال الخارجي؛ ونقصد به الواجهة الخارجية للمسكن الذي يطل على الحي، فيكتسي شرعية الممارسة الجماعية لمختلف الفئات التي تنتمي إلى هذا المجال، فهو عنصر اجتماعي تقوم العناصر الاجتماعية بإنتاجه عن طريق التنظيم الاجتماعي الذي يسلكه الفاعلون في مسارهم الحياتي، فإنتاج المجال بالنسبة للمجتمع هو خلق تصورات مميزة من التعايش في بيئة سليمة نقية خالية من الملوثات والأخطار، حيث تتفق التعريفات الخاصة على إظهار العلاقة التفاعلية التي تضم العناصر بالوسط، فالبيئة تمثّل كل مكوّنات الوسط الذي يتفاعل فيه الإنسان مؤثرا و متأثرا، وظهور المشكلات البيئية مفادها اختلال في تسيير النسق البيئي وعناصره الطبيعية، والمتسبب الأساسي في هذا الوضع هو نشاطات الإنسان وما يترتب عنها من مخلفات سلبية، ومع تزايدها أصبحت تهدّد وجوده.

ونتيجة لهذه الأوضاع بدأ التفكيرُ بالاهتمام بالمشكلات البيئية منذ بداية السبعينات، وأصبح موضوع البيئة عالمياً، يطرح في عدة مؤتمرات دولية تنادي بضرورة إتباع برامج سياسية وتربوية وإعلامية تُعنى بحماية البيئة وتنشر الثقافة البيئية، فالشعور بالمشكلة البيئية أنشأ العديد من المؤسسات والمعاهد المختصة بدراسة المواضيع البيئية ومن أهدافها التحسيس والتوعية للأوساط الشعبية.

فالإلمام بالمشكل البيئي يكون من شتى الجوانب الفنية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وأن يتبع معالجته طريقتين تتمثل الطريقة الأولى في دراسة الأخطار الناجمة عنه التي تؤثر في سير النسق البيئي و في الصحة البشرية، و أمّا الطريقة الثانية يتم التعرض للمشكل البيئي من خلال الفعالية الإرسالية و ما تقتضيه من التعايش في هذا الوسط، ولمواجهة المشكل البيئي فإنّها ترتكز على عملية نشر الوعي والثقافة البيئية، ولن يتأتّى ذلك إلاّ من خلال تفعيل دور المؤسسات الاجتماعية والمتمثل في ترسيخ ونشر الوعي والثقافة البيئية لدى أفراد المجتمع، ومن أهم تلك المؤسسات نجد الأسرة على اعتبار أنّها المؤسسة الأولى في التنشئة الاجتماعية للأبناء، فهي الممثلة الأولى للثقافة، وأقوى الجماعات تأثيرا في سلوك الأفراد ، كذلك هناك المدرسة و ما تقوم به في مجال التربية والتعليم، ثم يأتي الإعلام و دوره الوظيفي في التوعية و توصيل المعلومة البيئية للجماهير، كما لا ننسى وظيفة المسجد في نشر قيم و مبادئ ديننا الحنيف الذي يحثّ على الحفاظ على كل ما هو جميل، أمّا المؤسسات الرسمية وغير الرسمية فيكون دورها عن طريق ضبط النظام وسن القوانين لحمايتها و الإبقاء على جمالية المحيط الحضري الذي يعكس درجة تحضّر الدول.

وعليه تقع على عاتق المؤسسات الاجتماعية مسؤولية الحفاظ على البيئة الحضرية التي تنصهر فيها جملة من المشكلات البيئية الناتجة من اكتظاظ السكان ومخلفات المصانع مما يؤدي إلى التلوث وتشوه جمال المحيط الحضري ولهذا لابد من تكثيف جهودها وتفعيل دورها في توعية المواطنين بأهمية البيئة.

ولهذا نتساءل عن الوسائل التي تنتهجها هذه المؤسسات الاجتماعية للحد من مخاطر التلوث الحضري و كيف تساهم في نشر الوعي و ثقافة الحفاظ على الموارد وعدم هدرها، وإشراك جميع الفاعلين الاجتماعيين في الحفاظ على بيئتهم الحضرية ومسئوليتهم اتجاهها، وما هي

الأسس والمعايير الناجعة التي تعتمدها لتثبت فعاليتها وقدراتها، انطلاقا من مركز قيادتها من خلال سن القوانين والرقابة الصارمة وتكثيف الجهود من أجل ترسيخ ثقافة وعي بيئي في جميع الأوساط الاجتماعية لتحقيق أكبر قدر ممكن من النتائج الإيجابية لصالح البيئة والمواطن معا، خاصة وأننا نلاحظ تناقضا بين محتوى الخطاب الإداري المفعم بالتمنيات والوعي بضرورة الحفاظ على جمالية البيئة الحضرية والحد من التلوث ومخاطره، ومساهمة الجميع في رسم سياسة بيئية جمالية صحية. وعليه يمكن طرح التساؤلين التاليين:

1- كيف تساهم المؤسسات الاجتماعية بمختلف فروعها في ترسيخ ثقافة الحفاظ على البيئة الحضرية؟

2- ما هي الأسس والمعايير التي تتبناها المؤسسات الاجتماعية لترسيخ ثقافة بيئية حفاظا على المحيط الحضري؟

2 .الفرضيـــات:

2 .1.الفرضية العامة:

تساهم المؤسسات الاجتماعية بقدر كافي في نشر ثقافة المعلومة البيئية، وبما أن الأسرة هي الخلية الأولى لتربية النشء و وترسيخ القواعد والمبادئ الأساسية والتعاليم الصحيحة في حياته،ثم تليها المدرسة لتصقل هذه الأفكار، ويدعمها الرفاق والجمعيات ووسائل الإعلام، وكذلك الهيئات الرسمية بوسائلها المادية والمعنوية، و بتضافر جميع جهودها تولّد عند الأفراد وعيا بيئيا وثقافة عملية تعكسها سلوكياتهم وممارساتهم السليمة اتجاه محيطهم و بيئتهم الحضرية، و بالتالي المساهمة في الحفاظ عليه والاعتناء بجماله .

2.2.الفرضيات الجزئية:

1 - للمؤسسات الاجتماعية بفروعها المختلفة دور فعّال في تجسيد ثقافة البيئة الحضرية وترسيخها.

2– تتبنى المؤسسات الاجتماعية عدة أسس و معايير لترسيخ ثقافة الحفاظ على البيئة الحضرية.

أولا: الثقافة البيئية في المؤسسات الاجتماعية النظامية:

لابد أن نربط الثقافة البيئية بعملية التخطيط التربوي وإدراجها ضمن البرامج التربوية للروضة والمدرسة، وذلك لكون "إهمال التربية البيئية في هذه المناهج يجعلها تحت نسق التربية البدنية التي يسودها نظام غير رسمي، وتعد بذلك عملية تنشئة اجتماعية أو تثقيفية، ويتركز نسق الأدوار فيها من جيل يعلم وجيل يتعلم يسوده النظام التلقائي، وتعتبر التربية هي الحياة نفسها في مثل هذه المجتمعات"[1].

ويترتب عما سبق ضرورة إدراج التربية البيئية في الخطط والبرامج على مستوى التربية الرسمية التي يتشابك نسق الأدوار فيها،وذلك في إطار عملية إعداد الفرد للحياة.

وخلال هذا المبحث سيتم التركيز على نسقين هامين هما: (رياض الأطفال والمدرسة).

1. ريـــاض الأطفال:

تعتبر الروضة هي النسق النظامي الأول الذي يتوجه إليه الطفل بعد خروجه من الأسرة، والروضة هي نسق تربوي نظامي، ومفهوم الروضة مشتقة من رياض بمعنى حديقة والتي لها مدلول جمالي للبيئة، وهناك من يسميها حديقة الأطفال، هذه التسميات لها ارتباط بالناحية التاريخية لنشأة رياض الأطفال في العالم، ابتداء من المؤسس الأول لرياض الأطفال "فروبل" ثم "منسوري" حيث كانت كل برامجهم تنبع من الطبيعة، لكن السؤال الذي يطرح هل بالإمكان إدخال التربية البيئية في برامج تربية أطفال ما قبل المدرسة بصورة عملية؟

إنّ إدراج التربية البيئية في نشاطات الروضة تعتمد عليه برامج ما قبل المدرسة والتي يمكن أن تكون في أربعة برامج حسب الدكتور سامي عريج الذي يصنفها على النحو التالي:

برامج الإثراء الاختباري: وهي برامج تهدف بمجموعها إلى تنمية الطفل من الجوانب الجسمية والحسية والحركية العقلية والانفعالية والاجتماعية.

البرامج الموجهة معرفيا: وتهدف إلى تنمية القدرات العقلية والمهارات المعرفية للأطفال باكتسابهم المفاهيم وتدريبهم على عمليات التصنيف و والتسلسل والربط بين الأسباب والنتائج، وبين الأجزاء والكل، و المربية هي المبادرة حيث تقوم باقتراح المناشط التعليمية على الطفل حسب تقييمها لأوضاعه.

برامج التعليم الموجه: وهي أكثر تقيد مبادرة الطفل من البرنامج السابق، فالمربية تخطط للأنشطة الهادفة إلى تنمية مهاراته المعرفية وتحدد نوع النشاط الذي تقدره لدفع الطفل للإقدام على النشاط والتفاعل معه.

البرامج الموجهة نسبيا: وهي برامج تعمل على تعويض الحرمان الثقافي الطفل بتزويده بخبرات حياتية اجتماعية مما تحتاج إليه وذلك بإثراء البيئة عن طريق توفير لمواد والتجهيزات والأدوات...

تصنيف البرامج حسب الأبعاد المعرفية: وتنحصر في النماذج التالية:

نموذج البرامج التي ترتكز على النمو المعرفي الشامل: وتنبثق فلسفة هذه البرامج من أن النمو في أحد الجوانب يؤثر على النمو في الجوانب الأخرى، لذلك لا نجد هذه البرامج تتضمن أنشطة متعددة ومتنوعة وتلجأ إلى أساليب وطرق التعليم غير التقليدية[1].

نموذج البرامج الحسية المعرفية: وتستند على أهمية الحواس كمعايير أساسية للمعرفة، فبقدر ما تكون الحواس دقيقة في الاستغلال، بقدر ما يكون الإدراك العقلي سليما وبعيدا عن التشويش.

نموذج البرامج التي تركز على التعليم اللفظي: هنا "تقوم المربية بتوجيه التعليمات إلى الأطفال فيما يخص المهارات الأساسية الممهدة لمهارات القراءة والكتابة والحساب، الرسم والموسيقى وهنا يزداد دور المشرفة إيجابية"[2].

ومن كل ما سبق يتبين ضرورة الاهتمام المطلق بتربية الطفل على أسس علمية سليمة، وذلك بالنظر إلى أهمية السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل، ومن هنا يتضح أن إنشاء دور الحضانة ضرورة اجتماعية واقتصادية وتربوية ،كما تعتبر مطلبا من مطالب الحياة المعاصرة،و أنّه من الحقائق التي نسمعها مرارا وتكرارا ، وهي أنّه "إذا أردنا للطفل أن ينمو في مناخ صالح لحياة الإنسان، فإنّنا يجب أن نحمي البيئةَ، وينبغي أن يتعلموا الحقائق التي تدور حول الطبيعة منذ سنواتهم الأولى المبكرة[3]، فالطفل يحتاج إلى تعلم كل ما يتعلق ببيئته، ويتم هذا التعليم من خلال الأنشطة المتنوعة التي تساعد الطفل على حل مشكلاته، وينبغي أن تخاطب حواسه ، وأن تتضمن زيارات وألعاب وتهتم بالخبرة المباشرة للطفل، وإذا اتبعنا التطور التاريخي لتعلم الطفولة المبكرة نجد أنه يطابق تماما هذا الاتجاه ويؤكد على أهمية دراسة البيئة وترسيخ الثقافة البيئية.

ويعتبر التعلم بالاكتشاف هو أحد المظاهر الهامة للتربية والتثقيف البيئي، وهذا من خلال اصطحاب الأطفال في رحلات ميدانية للحدائق والمزارع، فالروضة المنتسورية تؤكد على الحرية الفردية للطفل داخل بيئتهو تدريب حواسه المختلفة.

أما الروضة الدوكرولية اهتمت بمدارسة البيئة، حيث تضمنت أنشطتها تدريس الطفل الكائنات الحية الموجودة في بيئته، واعتمدت على مبدأ الملاحظة والاكتشاف في مراقبة للطبيعة من حولهم، وكذلك أهمية تنظيم رحلات وزيارات ليكتشف الأطفال معالم بيئتهم.

أما جون ديوي (**John Dewy**)، وهو واحد من أبرز الشخصيات التي اهتمت بالأطفال حيث نادى بأن يكون التكفل محور للبداية، كما نبّه إلى أن الطفل يجب أن يكتشف بطريقة البيئة الحرة.

كما نبه كل من "بياجيه **Piaget** وجانيه **Gagne** المهتمين بتربية الأطفال إلى ضرورة مساعدة الاطفال وتشجيعهم على استطلاع واكتشاف بيئتهم، وإشباع فضولهم البيئي منذ نعومة أظافرهم.

وعلى المستوى الدولي فقد أكدت المؤتمرات والندوات العالمية على ضرورة تخطيط برامج في التربية البيئية، لتوسيع مدارك الطفل وزيادة معرفتهم ودرايتهم بكيفية التعامل مع البيئة بدءا من مرحلة ما قبل المدرسة لاكتساب ثقافة بيئية في السنوات الأولى من عمرهم.

و لما كان الأطفال في مرحلة الروضة يتعلمون الكثير من الأشياء عن طريق المشاركة في أنشطة الحياة بالتحكيم أو المحاكاة، حيث يذهب باندورا **Bandura** في نظريته عن التعلّم الاجتماعي أن الطفل يتعلم بملاحظة الآخرين، وأن هناك أربعة عمليات أساسية تدخل في هذا النوع من التعلم وهي (الانتباه، الحفظ، الأداء الحركي، الدافعية).

فمن هنا يبرز دور القدوة الحسنة، ممثلة في مربية الروضة والأم والأب في المترل أو غيرهم من الشخصيات التي تؤثر في حياة الطفل، ويتضح أهمية تضافر الجهود من أجل تحقيق أهداف التربية والتثقيف البيئي في مرحلة الروضة، بتقديم العديد من الأنشطة التي يمكن أن يمارسها الأطفال في هذه المرحلة، فتساهم في تعديل سلوكهم واتجاههم نحو بيئيتهم سواء داخل الروضة أو خارجها.

2- **المدرســـة:**

"لا يمكن اعتبار المدرسة نسقا مستقلا عن باقي الأنساق، بل المدرسة تمثل الحياة الاجتماعية التي ترتكز فيها جميع العوامل والجهود وتتعاون على تربية الطفل وتمكينه من الاشتراك فيما ورثه من الجنس البشري وجعله قادرا على استخدام مواهبه لخدمة الجميع"[4]، هذا التعريف الذي صاغه جون ديوي للمدرسة بحيث أعطاها مكانة تليق بها كهيكل اجتماعي تربوي هادف، وجعل منها أداة لخدمة المجتمع والارتقاء به انطلاقا من إعداد جيل لا يكتف بحفظ التراث فحسب وإنما يتعدى ذلك إلى ما هو راقي، ولعلنا نستطيع القول أن أمر التربية إذا كان صميم مسؤولية عديد من مؤسسات المجتمع، فإن أولى المؤسسات المسئولة عن هذا الشأن هي المدرسة.

إن التركيز على عناصر النسق التعليمي ودورها الفعال في عملية ترسيخ الثقافة البيئية يجعلنا ننتقل إلى التطور التاريخي للتعليم الأساسي الذي كان ظهور هذا المفهوم منذ الأربعينات وتطور حتى منتصف السبعينات وكان مفهوم التعليم الأساسي(**fondamental éducation**) في الأربعينات يستهدف تقديم خدمة تعليمية تتمثل في اكتساب معلومات ومهارات للكبار لفهم ومعالجة المشكلات التي يتعرضون لها في بيئاتهم، "كما كان يقصد بها مساعدة الكبار الذين لم يحصلوا على أي مساعدة تربوية من مدارس أو معاهد نظامية قائمة وأصبحت في الآونة الأخيرة مع نهاية السبعينات تعني كمفهوم المرحلة الأولى من التعليم المدرسي التي يتكيف الطفل المتمدرس على طرق التفكير السليم، وتضمن له معارف مهارية لممارسة دوره في الإنتاج[5]. و "تقديم جرعة تعليمية قوامها النشاط المنتج المرتبط بحياة الأطفال وواقع بيئاتهم وهذا كان على المستوى العالمي"[6].

إذن فمن واجب المدرسة في مراحلها الأولى أن تعمل على تنمية الحس الجمالي والتذوق الفني لدى التلميذ حتى يقدر مظاهر الجمال والإبداع في كل ما يحيط به في هذا الكون.و تستغل نزعة حب الاستطلاع والفضول الموجود عنده، وتعمل على تهذيب سلوكه لتؤهله ليكون عضوا فعالا في أسرته ومجتمعه وهو الغرض من تضمين البعد البيئي في التعليم النظامي.

إن عبارة التثقيف البيئي تعتبر نظرة جديدة للتربية بمزيد من التأكيد على تحديد وتطوير القيم وتصنيف المفاهيم، بغية تنمية مهارات حل المشاكل مما يؤدي إلى فهم العلاقة المتبادلة بين الإنسان ومحيطه الطبيعي الحي، "إن المتعلمين الصغار في المدرسة الابتدائية يتعلمون عادة بالملاحظة،

والأطفال في بيئتهم يواجهون عددا كبيرا من الأوضاع والأعمال البيئية كالنظافة والتخلص من الأوساخ، أن المرحلة الابتدائية تعتبر مرحلة حساسة للتعلم وتكوين المواقف ، وقد تكون تنمية المواقف السليمة بين الأطفال أسهل من تغيير مواقف الكبار، وبذلك يكتسب نقل التربية البيئية إلى تلامذة الابتدائية أهميته ومعناه[7].و لهذا أوجب على المعلمين والمفتشين في المدارس الابتدائية تطوير معارفهم ومهاراتهم وتسليح أنفسهم بالكفاءات الأساسية اللازمة لنشر الثقافة البيئية بصورة فعالة.

فالمدرسة مركز قيادة اجتماعية يعمل على رفع مستوى الحياة، إذ أنها تقوم بدراسة الأنشطة المختلفة في البيئة بقصد التعرف عليها، ومعرفة المعوقات التي تقف في سبيل إنمائها لوظائفها على أكمل وجه والتعلم لا ينتج ولا يثمر إلا إذا اتصل بالبيئة الاجتماعية وتفاعل مع عناصرها ومقومات الحياة بها، إذ أن التربية عملية اجتماعية، والجانب الاجتماعي ركيزة أساسية لكل فلسفة تربوية.

كما أن الاتجاه التربوي الحديث يؤكد على ربط المدرسة بالثقافة البيئية، "فالمدرسة مؤسسة تنظيمية تهدف إلى خدمة المجتمع ودراسة البيئة بقصد التعرّف عليها والوقوف على احتياجاتها ومواردها، إذ أنّ لكل بيئة محلية تاريخها وتقاليدها وطابعها الثقافي وظروفها الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بها، وهي عوامل لابد أن يكون لها أثرها في تكييف الأنظمة التعليمية"[8].

و يمكن القول أيضا أنجع الطرق لتحقيق غايات الثقافة البيئية هي تحطيم الحواجز التقليدية ودمج مضمون شتى مواد المناهج الدراسية في إطار موضوعات أو مشكلات بيئية أساسية، "وإن صياغة نهج تعليمي متكامل لمشكلات البيئة تستلزم جهودا على مستوى إعداد وتخطيط البرامج الدراسية للتعليم النظامي في مجموعه، و يعني ذلك إيجاد تكامل أفقي لعمليات التعليم والتعلم، يدور حول موضوعات تتعلق بالبيئة في مختلف مستويات التعليم وصلة رئيسية تكفل للتربية البيئية استمرارا و تقدما متناسقا طوال عملية التعليم النظامي"[9].

و عليه تعد المدرسة من القنوات الهامة الناقلة للمعلومة البيئية والأكثر تمثيلا لأهداف التربية الأسرية، فقد وصت المنظمات العالمية ذات الطابع التربوي الثقافي إثر انعقاد المؤتمرات المناهضة بحماية البيئة بإلزامية تدريس البيئة كمادة في المقررات الدراسية لما لها من أهمية في تشكيل الحس البيئي لدى الأفراد عموما، "وتمتاز هذه المبادرات في الدول العربية بأنها "متواضعة ومحدودة حيث لا تزال الموضوعات البيئية في مناهجها التعليمية مقتصرة على بعض كتب العلوم البيولوجية

والجغرافية والجيولوجية، وهي تعرض بشكل مفكك لا يساعد على تكوين حس بيئي[10]، ومن التقارير التي خرجت بها المؤتمرات العالمية الخاصة بحماية البيئة هي إدراج التربية البيئية في البرامج التعليمية بحيث، "تشمل على محاور خاصة بالمشاكل الملموسة وتقدم ضمن مختلف العلوم، ترمي إلى تدعيم الحس القيمي وتساهم في الرفاهية الجماعية وتنشغل ببقاء النوع البشري يجب أن تجهد التربية البيئية قوتها في مبادرة التلاميذ والتزامهم في الفعل"[11].كما يشترط في المقرر التعليمي، التركيز على الجانب الاجتماعي في تناول موضوعات التربية البيئية لأنّه أمر ضروري وبالغ الأهمية، وهذا من منطلق أن أن الانسان يتفاعل مع بيئته، وذلك عبر علاقات اجتماعية تبين نوعية السلوك الإنساني الممارس فيها والذي يعكس طبيعة التعامل معها، لذا لابد من تربيتهم و تنمية حب البيئة لديهم حتى تكسبهم مقومات السلوك الرشيد هنا، ذلك السلوك الذي يجعل الإنسان يتصرف بحكمة ويتعامل بتعقل وتبصّر. ويكون قادرا على تنميتها وتطويرها بما يستهدف رفاهية الفرد والمجتمع"[12].

و نؤكد إلى أنه لا يجب أن نقْصر مهمة المدرسة في تزويد التلميذ بمادة التربية البيئية بشكل معرفي أكاديمي بحث، بل يجب أن تتعدى الأهداف المعرفية والانفعالية والمهارية، وذلك بأن تنشأ لديه "وعيا هادفا في ترشيد استغلال موارد البيئة ووعيا بمشكلاتها و اكتساب قيم تدعو إلى حماية البيئة وصيانتها وتنشئته على مهارة عقلية يدوية كملاحظة الظواهر الطبيعية والبشرية في البيئة وتفسيرها، وجمع الحقائق العلمية من مصادرها الأصلية[13].

ثانيا: الثقافة البيئية في المؤسسات الاجتماعية غير النظامية:

التربية البيئية في المؤسسات اللانظامية التربوية تغرس في نفوس المتعلم من جميع فئات السكان مواقف جديدة مواتية للمشاركة، والتعاون الجماعي وتبعث على سلوك مسؤول في مجال إدارة البيئة وحمايتها وتدبير شؤونها"[14]، وللثقافة البيئية المقدمة في إطار غير نظامي هدف مزدوج، أن تنشئ من جهة مواطنين قادرين على فهم مسؤولياتهم تجاه الوسط المحيط بهم، وأن تعمل من جهة أخرى على زيادة وعي مختلف فئات السكان، انطلاقا من شتى النظم الإيكولوجية والبيئات الاجتماعية الثقافية التي يعيشون فيها سواء في الحضر أو الريف في إعداد المواطنين القادرين على إبداء رأيهم في نوعية الخدمات العامة (الصحة، النظافة، الأمن، السكن...الخ).

1. الأسرة والتثقيف البيئي:

لا نقصد من خلال هذا المبحث التربية البيئية المادة التي تدرس في مقررات الدراسات والبرامج التعليمية، ولكن أشمل وأوسع في هذا المضمون، كونها تمثل حصيلة معرفية وخبراتية مر بها الفرد، وأثرت في تعامله مع الوسط الذي يعيش فيه، لكنها تتبلور من دون أن تكون هناك دعامة أو إرث تربوي لدى الفرد من حيث أنه فاعل اجتماعي ضمن محيطه.

و من هذا المنطلق كيف يمكن للأسرة أن تكون إحدى مجالات التربية البيئية؟ للإجابة نقول بأن الأسرة هي البيئة الأولى التي تتعهد الطفل بالتربية والممثّل الأول "للثقافة وأقوى الجماعات تأثيرا في سلوك الفرد"[15].

ولما كانت الأسرة المسئول الأول والمباشر في عملية التنشئة الاجتماعية فهي ملزمة بتلقين أفرادها قيم ومعايير السلوك والاتجاهات المرغوب فيها، إنّ ثمار السلوك التي نراها في أبنائنا لا يمكن أن تأتي دون أن تكون موجودة لدى الآباء، وفي هذه الحالة تلعب المرجعية الأبوية التي ترعرعوا عليها دورا بالغَ الأهمية في زرعها لدى أبنائهم، فكما يقول المثل الشائع "فاقد الشيء لا يمكن أن يعطي ما يطلب منه الآخرون" فكذلك الآباء كيف يمكن أن يمدوا أبناءهم بتنشئة اجتماعية تحفز وتنادي بإدراك أهمية البيئة بالنسبة لهم دون أن يملكوا هذا الرصيد الثقافي.

وبهذا الخصوص ينصح المربون المختصون في التربية "أن تتجه التربية في المنزل، وجهة طبيعية مؤداها توثيق الصلة بين الطفل والطبيعة"[16]، قصد تقوية روح المشاهدة والملاحظة عنده، فهي تستثمر هذه العلاقة في ترويض أبنائها على حب بيئتهم والمحافظة عليها، وتنمّي فيهم الشعور بما ستؤول إليه البيئة، إذا غفلوا عن العناية بها، وما يصيبهم من جراء هذا الإهمال لها.و لعلّ الأم تنفرد بحصة الأسد في ترسيخ هذه المهارات وأساليب التصرف فمكانتها في الأسرة مكانة "تربوية، جد حساسة، فهي مربية بيئية، قبل أن تكون منشئة اجتماعية، تقوم بإعداد الطفل للتكيف مع وسطه ومحيطه الواسع.... لها مكانه الطفل فإنه يتعلم بالملاحظة، يشاهد ويسمع ما يوجد من حوله"[17]، فعلى أفراد الأسرة جميعهم وخصوصا الأم أن تستثمر كل المراحل العمرية لأطفالها لتزودهم بمعارف حول كل ما يتساءلون عنه، وتغرس فيهم حب الاطلاع، حتى ينشئوا على وعي وإدراك بما يحيط بهم، وتكون لهم القدوة، "فمن أجل أطفالنا يكون التزامنا بالعادات البيئية السليمة، ومن أجل أطفالنا يكون حرصنا على التقاليد التي تحمي البيئة وتحافظ عليها ولو تعارض

ذلك مع طباعنا وعاداتنا"[18]، ومنه وجب تبصير الأسرة باستمرار بأهمية صيانة البيئة وأن يبدأ ذلك مع الأطفال في الأسرة منذ بداية نشأتهم الأولى واستمرار ذلك التبصير في المراحل المتعاقبة[19]فستظل القدوة الأسرية صالحة كانت أو سيئة تؤدي دورها، و سيكون لتصرف الآباء والأمهات في النواحي البيئية أثر خطير في التركيبة النفسية للطفل تجاه البيئة، ومنه عل الأسرة، أن تقوم بتقديم النموذج التطبيقي في مكافحة عوامل التلوث بكافة أنواعه داخل المنزل وخارجه واعتبار نظافة البيئة قيمة كبرى يجب أن يتكاثف جميع الأفراد في نظافتها وحمايتها وتخليصها من كل من شأنه تلويثها، هذا السلوك الأسري هو البداية الحقيقية لتنشئة الأفراد على الثقافة البيئية، وممارسة تلك الثقافة عمليا في المحيط الذي يعيش فيه الفرد سواء في محيط الأسرة أو خارجها[20].

و لكي تحقق الثقافة البيئية الغايات والأهداف المرجوة منها يجب أن تقدم للفرد في مختلف المراحل العمرية داخل الأسرة المعلومات المناسبة وفق إمكانياتهم وقدراتهم واستيعابهم لفهم البيئة البيوفيزيقية والبيئة الاجتماعية، حتى يكتسبوا مهارات واتجاهات إيجابية نحو المشكلات البيئية وكيفية مواجهتها وحلها.

و بناء عليه فإن الثقافة البيئية التي تتجسّد من خلال التربية البيئية شأنها في ذلك شأن أي نوع من التربية يجب أن يحقق أهدافا يمكن تصنيفها في ثلاثة أبعاد هي:

- **البعد الإدراكي:** ويضم المعلومات التي ينبغي أن يعرفها الأفراد والجماعات نحو بيئتهم البيوفيزيقية، وكل ما تحتويه من موارد وما تتعرض له من مشكلات.

- **البعد المهاري** : يشمل مهارات الأفراد التي ينبغي اكتسابها ليتمكنوا التعامل بفعالية مع بيئتهم.

- **البعد الانفعالي:** ويخص الاتجاهات والاهتمامات وأوجه التقدير التي ينبغي أن يكتسبها الأفراد والجماعات لترشيد سلوكهم إزاء بيئتهم[21].

2. دور الإعلام في نشر الوعي البيئي:

للإعلام دور وظيفي في التوعية وتوصيل المعلومة البيئية لدى الجماهير، حيث تظهر فعالية هذه المؤسسة عندما يكون هناك استعداد من الأفراد لاستيعاب هذه المعلومات.«حيث ناقش

Sandman دور وسائل الإعلام الإخبارية وعلاقتها بتوعية الجماهير من حيث نقل المعرفة والمهارات، توصل إلى أن فعالية الأخبار الإعلامية كوسيلة لنقل المعرفة البيئية تتناقص كلّما كانت المهارات البيئية أقل... وتبين من بحثه أن هناك علاقة ارتباطية بين وعي الجماهير للمشكلة البيئية والتغطية الإعلامية التي تتلقاها المشكلة.[22]

و لما كان الوعي البيئي من القضايا المحورية التي تشغل فكر علمـــاء البيئة والاجتمـــاع والأنتربولوجيا والإعلام والتربية، نظرا لما يمثله هذا الوعي من أهمية بالغة كمدخل أساسي للإدراك الصحيح لمشكلة تلوث البيئة ومخاطرها.

إن قضية الوعي البيئي والثقافة كثقافة سائدة في الواقع الاجتماعي، والتي تعمل كموجه عام لسلوك الإنسان، وعليه يبرر دور الإعلام باختلاف وسائله في تثبيت وتدعيم هذه العلاقة وذلك في إطار تزويد الأفراد بالمعلومات البيئية أو في تشكيل الاتجاهات والمواقف تجاه قضايا البيئة.

و إضافة إلى ما سبق نجد هناك تفاوت بين الوسائل الإعلامية في نشر الوعي البيئي، وذلك من حيث القدرة الذاتية على التأثير والفعالية، "حيث أوضحت استطلاعات الرأي التي أجريت في هذا الصدد أن التلفزيون يتقدم سائر وسائل الإعلام كمصدر رئيسي للمعلومات البيئية بالنسبة للجمهور العام في الريف والحضر، بينما شغلت الصحافة المرتبة الثانية للنخب المثقفة والقيادات والخبراء في استقاء المعلومات ومتابعة القضايا البيئية."[23] فالاستثمار الجيد والعقلاني لهذه الوسيلة يعود بالنفع والفائدة بالدرجة الأولى على مستقبل المعلومة وبالكيفية التي يتعامل معها، إذ أنّ نجاح هذه الوسيلة مقرون بالفعالية التي تتركها الصورة المعبرة والمؤثرة في ضمائر الأفراد الفاعلين.

إن رجل الإعلام المختص بقضايا البيئة يلزمه شيئا من الحكمة التي يستعملها في التأثير على المشاهد "فلديه من الوسائل ما يعظم به المعلومة البيئية، فالحديث عن نجاح الوسيلة الإعلامية لا يقاس بنجاح وصول المعلومة البيئية للمواطن، ولكن يقاس بموافقته لهذه المعلومة وذلك بإدراك المشكلة البيئية واعتبارها من أولويات المعيشة.

فإذا كان للإعلام معنى كهذا ومفعول إيجابي على الأفراد فإنه بلا شك يؤدي إلى "تشكيل القيم والاتجاهات المرتبطة بمستوى الوعي بقضايا البيئة، فهو يعد من بين الوسائط الاجتماعية المؤثرة في عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة. حيث يتأثر أفرادها بشكل مباشر بما تبثه وسائل

الإعلام من قضايا تشكل وجدان الفرد وتتحدد اتجاهاته ومن ثم سلوكياته وتعاملاته مع تلك القضايا سلبا أو إيجابا.[24]

والإعلام بهذا المعنى هو جزء من وسائط التعليم غير النظامي، فهو إن لم يتهيأ أساسا لغايات ووظائف تعليمية، إلا أنه ومن خلال وظائفه الأربع السابقة يحقق أهدافا ثقافية. وهو من "هذه الزاوية مدرسة من مدارس الحياة، وذلك لأنه يقدم من خلال هذه البرامج والمواقف دروسا في فلسفة الحياة مليئة بالقيم والمعايير وأنماط السلوك من خلال المزج بين الواقع والخيال في برامج الإعلام حتى تستطيع أجهزتها التأثير في قيم الأفراد وأفكارهم واتجاهاتهم ومواقفهم في الحياة بما لا تستطيعه أجهزة التعليم النظامي التقليدية"[25].

إن ربط الثقافة البيئية بالإعلام يجعلنا أمام ما يعرف بالإعلام الثقافي الذي يهدف إلى تنمية الحس النقدي للفرد حول ما تقدمه وسائل الإعلام وجعله قادرا على التعبير عن نفسه وتحفيزه على اللّحاق بركب الحضارة المعاصرة، وأخذ منها ما يتناسب مع قيمنا وعقائدنا، دون الوقوع في التداعيات الفكرية والاقتصادية المدعومة بالتبعية الأيديولوجية والتكنولوجية.

إنّ التعرف على أهمية وسائل الإعلام وخصائصها يكشف عن أهمية دورها التربوي والثقافي، فالإعلامُ هو المحرك والمعبّرُ عن مقوّمات النشاط الاجتماعي المشترك، وهو المنبع الذي ينهل منه الإنسان الآراء والأفكار لتحويلها إلى أعمال، والموحي إليهم بشعور الانتساب إلى مجتمع واحد.

وهذا النشاط من نقل معرفي وتحويل المعرفة إلى سلوك ما هو إلا عمل الثقافة، من ثم يمكن للإعلام أن يشارك مشاركة فعالة في نقل مفاهيم الوعي البيئي إلى الأفراد وينمي بينهم الشعور بأهمية الحفاظ على البيئة التي يعيشون فيها خاصة وأنه من المعروف أن تأثير الإعلام يفوق تأثير المدرسة، بحكم عوامل كثيرة، ولهذا فإن نشر الوعي الذي يحتاج إلى الوسائل المسموعة والمرئية والمقروءة لتصل إلى قطاعات المجتمع كافة.فأهدافها شأنها شأن البرنامج التعليمي والذي ينبغي أن تتوفر فيه جملة "من الشروط وهذا البرنامج يجب أن تكون له أهداف مرسومة تسهم في إطار نشر الثقافة البيئية خاصة إذا تعلق الأمر بالتنمية الثقافية والاجتماعية للجمهور، وهذه الأهداف يمكن حصرها في أهداف عقلية وصحيه واجتماعية ونفسية ووجدانية."[26]

إن التغطية البيئية ليست خبرا بيئيا وإنما هي قضية اقتصادية وتجارية وطبية وعلمية وسياسية ولها أبعاد قانونية واجتماعية "والمطلوب من الإعلاميين أن يأخذوا القيادة في تغيير اتجاهات الناس بالنسبة للتلوث والاستهلاك، وأن يتفهموا الآثار البيئية ويعلموا من هذا المنظور وأن يتخذوا مواقف ولا يقفوا موقف المتفرج ويكتفوا بعرض جميع الوجهات دون أن يكون لهم موقف محدد.[27] ويتطلب من معدّي البرامج مواصفات ومواهب وقدرات إضافية إذا تعلق الأمر ببرامج البيئة ، وأيضا ""المستوى العلمي الجيد حتى ينعكس هذا الإيمان على أداء هذه المهمة باعتبارها أكبر من مجرد إعداد برامج في الإذاعة والتلفزيون، بل باعتبارها رسالة سامية ومثل هذا الحماس المتوفر من الإيمان الحقيقي بأهمية الرسالة يضفي على هذه البرامج إحساسا بالصدق يجعلها ذات تأثير عميق في المستمع والمشاهد."[28]

تؤدي وسائل الإعلام الجزائرية دورا هاما في عملية رفع الوعي البيئي لدى المجتمع الجزائري وتسليط الأضواء على الأضرار الملحقة بشتى مكونات البيئة، حيث قامت الوزارة المكلفة بالبيئة عام 1999 بإجراء حوصلة حول ما قدمته وسائل الإعلام المختلفة، وتوصلت إلى النتائج التالية:

a. ***بالنسبة للصحافة المكتوبة***: هناك اهتمام واضح لدى الإعلام المكتوب (خاصة الصحافة الحرة أو الخاصة) بالمواضيع ذات الصلة بالبيئة كالماء والهواء والبحر ومشكلة النفايات والتصحر وغيرها، بل أن بعضها تخصص صفحات أسبوعية لذلك.*

2.2. *بالنسبة للإعلام المرئي المسموع*: لا شك أن تأثير وسائل الإعلام السمعية والبصرية أكثر أهمية من الإعلام المكتوب، لا تشترط معرفة القراءة والكتابة ولكونها أقدر على تبليغ المعلومة عن طريق استعمال الصوت (بالنسبة للإذاعة) أو الصوت والصورة معا (بالنسبة للتلفزيون)، ويلاحظ أنه في السنوات الأخيرة ازداد اهتمام هذه الوسائل بالانشغالات البيئية، إلا أنه لا يرقى إلى حجم الاهتمام المتزايد الذي تبديه السلطات العمومية أو حتى الصحف الخاصة بذات الموضوع .

وعليه يمكن القول أن التثقيف البيئي عن طريق وسائل الإعلام الجماهيرية لا يمكن أن تؤتى كل نتائجها إذا اقتصرت على وضع برامج تربوية ثقافية، ومن ثم يجب التفكير في إعادة توجيه شاملة للرسائل التي يجري بثّها، وذلك "أن التربية البيئية قد تغدو علما عميقا إذا قدمت وسائل

*ويمكن أن نشير هنا إلى صفحة "Le matin de l'écologie" ضمن جريدة Le matin، وصفحة "الدليل البيئي" ضمن جريدة "العالم السياسي، مثلا.

إعلام الجماهير معلومات متناقضة أو واهية الترابط يمكن أن تُسهم آثارها التراكمية في خلق البلبلة في مواقف الجمهور وتصرفاته تجاه البيئة."[29]

3. الجمعيات ودورها في مجال حماية البيئة:

للحفاظ على البيئة يقتضي أن يؤدي المواطن دورا إيجابيا، وألاّ يقف موقف المتفرج، وهذا ما أكّده الميثاق العالمي للبيئة أو ميثاق استكهولم حيث نصت المادة 24 على ما يلي: «يقع على عاتق كل فرد أن يعمل على تحقيق المبادئ الواردة بهذا الميثاق كل شخص يعمل بمفرده أو في نطاق جمعية من الجمعيات أو بالاتفاق مع الآخرين في نطاق ممارسته لمظاهر الحياة السياسية، سهل على تحقيق المبادئ الواردة بهذا الميثاق"

و كما سبق القول، حماية البيئة قضية تهم كل فرد من أفراد المجتمع، لذلك فإن كل فرد يقع على عاتقه الالتزام بالحفاظ على البيئة التي يعيش فيها، وقد اختار المدافعون عنها صورة الجمعية للتنسيق بين الجهود، حيث تعتبر واجهة معبرة في الأنظمة الديمقراطية التي تنشط فيها هذه الجمعيات، ولعبت كل منها في مجالها دورا هاما في حماية المواطن والبيئة التي يعيش فيها.[30]

. *الجمعيات الايكولوجية:*

تشير كثير من القوانين الجزائرية والمواثيق الرسمية إلى أن محاربة التلوث وحماية البيئة مصلحة وطنية تخص الجميع ومهمة صعبة، تنأى عن حلها المؤسسات الرسمية فقط. «...فمن الضروري ألا يفهم بأن تنفيذ هذه السياسة من صلاحية الدولة وحدها، بل ينبغي أن يكون الشغل الشاغل لكل المواطنين»[31].

إلى غاية نهاية النصف الأول من السبعينات لم يظهر نشاط بارز للجمعيات الايكولوجية، إلا أنه ابتداء من النصف الثاني ظهرت إرادة لدى السلطات العمومية في اشتراك الجمعيات الايكولوجية في "تطبيق برنامج القطاع وهذا نظرا للدور الذي يمكن أن تلعبه الحركة الجمعوية في مجال التحسيس والتوعية البيئية، والتي تعتبر وسيلة أو همزة وصل بين الهيئات الرسمية والجمهور، وكقناة لإيصال الاهتمامات البيئية المدرجة في برنامج الحكومة إلى كل شرائح المجتمع من جهة أخرى"[32] و نظرا لاهتمامها بالمشاكل القاعدية والمباشرة المتولدة عن تردي البيئة، ولقدرتها على التجنيد فضلا عن خلفيات سياسية لدى المواطنين مرتبطة بعدم الثقة في كل ما هو رسمي، ممّا يدفع

إلى عزوفهم عن المشاركة في إنجاح المبادرات الحكومية،كما حثت الملتقيات الدولية في توصياتها على ضرورة إسناد دور للجمعيات البيئية، وخاصة تلك التي تعمل على المستوى المحلي.

وعليه أصدرت كتابة الدولة المكلفة بالبيئة التعليمة رقم 130 بتاريخ 21 أفريل 1998م موجهة إلى مفتشي البيئة بالولايات تطلب الاتصال بالجمعيات الايكولوجية التي تنشط على مستوى كل ولاية، وإعلامها بإمكانية تمويل نشاطاتها ومشاريعها، وقد نتج عن هذه العملية، استفادة 49 مشروعا بيئيا تقدمت به 34 جمعية على مستوى 21 ولاية، من التمويل.

إلا أن هذه الجمعيات الايكولوجية التي تنشط فعلا في الميدان وبصفة فعالة ومستمرة (أي خارج المناسبات) عددها أقل بكثير، لكن تدخلاتها جد فعالة ومفيدة.

و تعمل الجمعيات المدافعة عن البيئة على إبراز مميزات البيئة والمحيط الذي نعيش فيه الإنسان، وتكوين الوعي لحماية البيئة لدى المواطنين تجاه المسائل البيئية، وذلك بنشر الوعي لديهم بجميع مستوياتهم ومهنهم ووظائفهم، وتهدف هذه الجمعيات إلى تحسين نوعية الحياة البشرية والحفاظ على الحياة الطبيعية، والاتفاق على صلاحية النظم البيئية المختلفة البحرية والساحلية والصحراوية والجبلية والغابية، و غيرها من مواضيع البيئة، وذلك عن طريق وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وكذلك عقد الندوات وإلقاء المحاضرات وإعداد الدراسات والأبحاث العلمية ذات الصلة بالبيئة.

و يتضح جليا أن الحفاظ على البيئة هي مسؤولية الجميع تشمل جميع الأطراف وكل المستويات ولما كان هذا الأمر ضروريا، من مشاركة الأطراف الاجتماعية الأخرى، ولتكاثف أكثر للجهود إلى جانب المؤسسات التربوية النظامية واللانظامية في الجزائر .

إن مواجهة المشاكل البيئية تقتضي الإلمام بجوانبها على نحو علمي صحيح، كذلك يمكن للجمعيات أن تقوم بدور استشاري للهيئات المختصة، باتخاذ قرار يتعلق بالبيئة، وتقوم بهذا الدور بصورة مختلفة فهي قد تكون مجالس استشارية مشتركة فيما بينها لتقوم بدور المستشار فيما يخص شؤون البيئة للمجالس المحلية، حيث يطلب منها الرأي في المشروعات الكبرى التي قد تمس البيئة و لتحقيق أهداف "جاز لها أن تلجأ إلى القضاء للدفاع عن مصالح الجمعية الجماعية، التي تسعى لحمايتها، وهو أمر مستقرا فيها و قضاء منذ مطلع القرن وأخذ به المشرع الجزائري

في قانون الجمعيات، ويتسنى لنا ذلك من خلال" المادة 17 الفقرة 03 و04 من قانون رقم 90-31 المتعلق بالجمعيات.[33]

وعليه تؤدي الجمعيات دورا هاما للمحافظة على المحيط والثروات، وإدخال تغيير إيجابي على السلوك العام للمواطن في تعامله مع عناصر الطبيعة، وتزويدهم بقيم ومفاهيم ومهارات جديدة ويكون ذلك بالتوجيه اليه لاستنهاض ودفع الوعي البيئي قدما في سبيل نضال يهدف إلى المحافظة على سلامة البيئة، وتهدف أيضا إلى رسخ الثقافة والتربية البيئة في أذهان المواطنين بهدف تكوين مجتمع يعي بيئته ويهتم بمشاكلها، «والتربية وحثهم على عادات أخرى بالتدريب والتوجيه و الوعظ والإرشاد والترهيب والترغيب وكل ما يستلزم العملية التربوية وهكذا فإنها تحدث انقلابا في العادات والتقاليد فيما يخص بيئتهم[34]

4. نوادي حماية البيئة (نوادي شباب بيئية):

غير خاف أن الشباب هو العنصر الغالب في المجتمع الجزائري، وعليه يتوقف نجاح أي سياسة بيئية ذات أبعاد مستقبلية واعتبارا للدور الفعال الذي يمكن أن تؤديه مؤسسات الشباب بوصفها فضاء لنشر الوعي والثقافة البيئية في أوساط الشباب، وبمقتضى المنشور الوزاري المشترك رقم 05 المؤرخ في 1998/01/05 المتعلق بتحسيس الشباب بقضايا البيئة،[35]وعملا بما جاء في خلاصة أشغال الملتقيات الجهوية حول التحسيس والتوجيه البيئة في أوساط الشباب؛ تم الاتفاق بين وزراء الشباب والرياضة من جهة والوزارة المكلفة بحماية البيئة من جهة ثانية على إنشاء نوادٍ لحماية البيئة عبر مؤسسات وزارة الشباب والرياضة (دور ومراكز الشباب)[36]. كما تم الاتفاق على إحداث جائزة سنوية لأحسن نادٍ لحماية البيئة (المادة 04)، والذي هو عبارة عن"فضاء يتعاطى فيه الشباب أنشطة تساهم في المحافظة على البيئة وحمايتها من مختلف المخاطر[37]وبتنظيم حملات تطوعية لتنظيف الأحياء وبعض المؤسسات وتهيئة المساحات الخضراء، وتنظيم مسابقات للرسم، وتنظيم خرجات إعلامية وتحسيسية في الوسط الطبيعي. وتنظم هذه النوادي الأسبوع الإعلامي سنويا بمناسبة اليوم العالمي للبيئة لعرض أهم نشاطاتها خلال السنة (المادة 05) بالإضافة إلى إحداث مجلة بيئية شهرية كهمزة وصل بين هذه النوادي (المادة 06).و قصد تطويرها، تم إنشاء لجنة مشتركة دائمة بين الوزارتين ولجان محلية على مستوى الولايات (المادة 12).

وما يلاحظ من خلال هذه النوادي ضعف التأطير وهو ما تحاول الوزارة المكلفة بالبيئة معالجته من خلال تنظيم دورات تكوينية لصالح المؤطرين داخل الوطن وخارجه.

5. الأحزاب السياسية:

بعد إقرار التعددية السياسية بواسطة دستور 23 فيفري 1989 والسماح بتأسيس جمعيات ذات طابع سياسي (أحزاب)، ظهر "حزب البيئة والحريات" الذي تم اعتماده بتاريخ 1991/04/29،[37] إلا أن هذا الحزب لم يعرف نشاطات بارزة ونتيجة "ضعف استجابة المحيط للشعارات التي كان يرفعها هذا الحزب، مما أدى برئيسه إلى الإعلان بحله نهائيا سنوات قليلة بعد تأسيسه.[38]

أما الحزب الثاني فهو "الحركة الوطنية من أجل الطبيعة والنمو" الذي تأسس بتاريخ 1992/08/22 ارتبط انعقاده – بقمة الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية– بريو دي جانيرو، في جوان 1992. ومن بين أهداف هذا الحزب "تحقيق التوازن بين التنمية الاقتصادية والحفاظ من أجل الأجيال القادمة على الثورات الوطنية الأرضية والباطنية وأيضا التجميع حول برنامجه للجمعيات الأيكولوجية والمواطنين المهتمين بالموضوع من أجل حماية البيئة وتحسين إطار المعيشة[39] ، إلا أنه على شاكلة سابقه، لم يكن لهذا الحزب أثر ميداني يذكر ولعل الأحداث التي عاشتها الجزائر خلال العشرية التي أعقبت التعددية السياسية أثرن سلبا في هذا الجانب.

6. الأفـــــراد:

إن تكفل مؤسسات الدولة الرسمية وشبه الرسمية بالمحافظة على البيئة وحمايتها من الأخطار التي تهددها، ومساهمة الأطراف غير الرسمية كالجمعيات والنوادي والأحزاب، لا يعفي الفرد أو المواطن العادي من مسؤولياته تجاه البيئة، حيث تعين عليه بموجب النصوص الرسمية الوطنية المساهمة في المجهود الوطني لحماية المحيط، ويمكن لهذه المساهمة أن تأخذ عدة أشكال وصور، كالمساهمة السلبية (بالامتناع عن إتيان كل ما من شأنه إلحاق الضرر بمكوناتها أو الإسراف في استغلال مواردها)، أو المساهمة الإيجابية (عن طريق المبادرة بأعمال الوقاية أو الإصلاح عند وقوع الضرر، أو عبر المشاركة في مجهود التحسيس والتعبئة لصالح البيئة، أو عبر النضال من أجل ذلك

جميعا، من خلال الانخراط في أشكال منظمة، كالجمعيات والنوادي أو مد يد المساعدة للسلطات وغيرها).

ومثل هذه السلوكيات والمواقف التي يتبناها المواطنون والأفراد تجاه محيطهم الخارجي لإبقائه نظيفا وجميلا، قد أوصت به معظم الكتب السماوية؛ إذ حثت على نظافة المظهر والملبس والمكان، فالبيئة وديعة لدى الانسان ومن ثم فعليه أن يتعامل برفق وفق سنن وتشريعات سماوية.

فمن المبادئ السامية في التعامل معها من منطلق أنها ملكية عامة يجب المحافظة عليها حتى يستمر الوجود، قال تعالى: «**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلك خير لكم إن كنتم مؤمنين**»* وقد طالب الإسلام المسلم أن يستثمر عمره باعتباره بعدا زمنيا هاما في تعامله مع الأنظمة البيئية من منطلق أنها نعمة كبرى... »[40]، إذ علاقة الإنسان بالبيئة من منظور إسلامي تكون بالنظر في مكوناتها والتأمل في مخلوقات الله، وجعل ذلك دليلا على الإيمان لقوله تعالى: «**قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**»**

ثم إن دور البيئة في القرآن الكريم لم يأت فقط للتدبر والتأمل في خلق الله فحسب، بل دعوة إلى حسن السلوك والتصرف مع هذا الوسط الطبيعي كمجال للعيش. كما أن ذكر البيئة في القرآن الحكيم جاء ليؤكد الحق تبارك وتعالى أنها خلقت "بمقادير محددة وصفات معينة بحيث تكفل لها هذه المقادير وتلك الصفات القدرة على توفير سبل الحياة الملائمة للإنسان وغيره من الكائنات الحية.[41] "فهذه المقادير تعرف عند المختصين بالبيئة بالنظام البيئي وإلى كل العناصر التي يحويها وأن التنظيم الرباني في خلق البيئة يدل على اتزان هذا النظام. أما فيما يخص منهج الإسلام في الحفاظ على ظاهرة التوازن البيئي فجوهره "الوسطية والاعتدال وعدم الإسراف والتبذير، فهذه الوسطية يشار إليها من حيث أنها أدوات ناجحة لمحاربة التلوث.

وإضافة إلى ما سبق فإن محاربة التلوث في الإسلام يقابلها نشاط أساسي، وهو الدعوة إلى النظافة البيئية التي تفرض على المسلم أن يكون متطهرا روحا وبدنا، لهذا فإن الإسلام دين النظافة ومن عنايته أنه جعل الطهارة شرطا لصحة العبادة، فالطهارة البدنية تكون بالتخلص من الحدث

---

*. سورة الأعراف الآية 85.

** . سورة يونس، الآية 101.

والنجس والخبث وكل ما يلوث الثوب والبدن والمكان، بينما الطهارة الروحية تكون بتطهير القلب والنفس من الأخلاق القبيحة، ومن كل ما يغضب المولى تبارك وتعالى "والمتأمل في تعاليم الإسلام يلحظ حرصه على حسن مظهر المسلم حتى لا يصاب بالمرض ويتمتع بصحة جيدة، ويستطيع ممارسة العبادات التي كلفه الله بها لأنّها تحتاج إلى قيام وقعود كما في الصلاة"[42].

أما فيما يخص النظافة المحيطة بالإنسان كمجال العيش، فإن الإسلام سبق الأمم والمنظمات العالمية المنادية بضرورة توفر وسط سليم لقيام الإنسان بنشاطاته اليومية، فقد جاء في هذا الدين الحنيف أن المسلم يوجب عليه تنظيف "حجرة نومه، وأفنية البيوت ثم تنظيف الشارع وما روي في مسند البزار أنّ النبيَ صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله طيب نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا فناءكم وساحاتكم، ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكباء في دورهم"[43].

ومن المبادئ الإسلامية نجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لموجهات السلوك، وتدخل ضمن باب المعاملات والممارسات، وحفاظا على سلامة المحيط ونظافته، فقد نهى عن "البصاق و التمخط في الطريق، فإن ذلك يسبب أمراضا ويؤذي النفوس أيضا ونشر الأمراض الخطيرة، ويكون ذالك سببا في انتشار العدوى[44].كما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتبول في الماء الراكد، فهذا النهي يرسي قاعدة المحافظة على الماء من التلوث ويوضح خطورة التلوث بسبب ركود الماء وعدم جريانه[45] .

كما وضع الإسلام في باب المعاملات و السلوكات، آدابا للطريق وأقرّ حقها وقرنها بشعب الإيمان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاهن شهادة لا إله إلا الله، و أدناها إماطة الأذى عن الطريق»[46] ، هذه الإماطة جعلها صدقة للذي يقدم عليها، فقد روي في معنى الحديث أن رجلا دخل الجنة بسبب نزعه لجذع كانت تعرقل مرور الناس في الطريق.

ختاما لهذا المبحث نقول إن المسلم المعاصر عند تأمله وعمله بهذه التعاليم يراها من المثاليات البعيدة عن الواقع الاجتماعي، وهذا من البديهي لأنه بعيد كل البعد عن دينه.

تحليل ومناقشة نتائج الفرضيتين:

في إطار علم الاجتماع الحضري، تتم دراسة العلاقات المتشابكة بالنظر إلى التنظيم الفضائي للبيئة والمجتمع، بحيث تمنح الثقافة للفضاء وللزمن معنى، بترتيبه وفق مستوى رمزي ومجازي، تربط العلاقات الجدلية بين التفاعل والفضاء الاجتماعيين، كل منهما يتضمن ويخلق الآخر.

علاقة الفاعلين الاجتماعيين تتجسد بمجالهم المعاش انطلاقا من تلك التصورات والسلوكيات التي يتبعونها في أمورهم اليومية، والاعتناء بشؤون مساكنهم وأحيائهم ومحيطهم البيئي بصفة عامة، و كيفية استغلالهم لهذا الفضاء الحيوي، الذي يقضون فيه أغلب أوقاتهم، و يمارسون فيه جملة من الأفعال.

على هذا الأساس حاولنا تسليط الضوء على المجال الخارجي للبيئة الحضرية،محاولة منا معرفة ما إذا كانت تحضى باهتمام من قبل مختلف المؤسسات الاجتماعية: الأسر كمؤسسة اجتماعية أولى والمدرسة التي تعد البيئة الثانية للطفل، والشارع و الجمعيات، ثم معرفة ما دور هذه المؤسسات الاجتماعية في غرس و تثبيت جملة من القيم و المبادئ التي تمد بالفرد ثقافة بيئية تساهم في الحفاظ على البيئة الحضرية و السهر على نظافتها و الإبقاء على جمالها، و خاصة إذا علمنا أن المجال الخارجي هو إمداد للمجال الداخلي، وهذه الثقافة البيئية لا تتكون لدى الفرد ولا يتسلح بها إلا إذا تبنت هذه المؤسسات الاجتماعية مجموعة من الوسائل والطرق الناجعة لترسخيها في ذهن الأفراد قصد الحفاظ على النظافة البيئية الحضرية.

وللمعرفة أكثر قمنا بتفكيك متغيرات البحث إلى عدة مؤشرات تتمثل في: المستوى المعيشي والمستوى الاجتماعي، المكانة و نوع المسكن لنفس تأثيراتهم على أفعال و السلوكيات التي تتخذها المؤسسات الاجتماعية كفاعل اجتماعي في تسييرها للمحافظة على المجال الخارجي للبيئة الحضرية، من خلال استقراء واستطلاع أراء الفاعلين الاجتماعيين من مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية؛ (الأسرة، المدرسة –التلميذ – المعلم – المناهج الدراسية) التي تؤثر في التربية البيئية للتلميذ، و دور الهيئات المحلية الرسمية و الجمعيات و النوادي و رأي المواطنين)، في مدى تفعيل هذه الجمعيات في ترسيخ الثقافة البيئية للأفراد من خلال الوسائل التي تتخذها سبيلا لذلك .

واعتبارا من أن الثقافة البيئية هي كل تصور وسلوك يعني و يحافظ على هذا المجال اتضح لنا أن هناك تأثيرا نسبيا لهذه المتغيرات كونها توجه إلى حد ما، السلوك البيئي حسب ما يتلاءم مع الوضعية– السوسيو اقتصادية و السوسيو ثقافية للمؤسسات الاجتماعية.

تبين لنا أن هذه الثقافة تولدت من مبدإ الممارسات اليومية المنتجة لدى المؤسسات الاجتماعية، تخضع بالدرجة الأولى إلى نوع من الثقافة العملية السائدة والمتفق عليها في مختلف الأوساط الاجتماعية. فالبناء الاجتماعي الذي يتصوره الفاعل الاجتماعي يحدد للأفراد تصوراتهم اتجاه الأشياء والموضوعات المحيطة به، بالرغم من مؤهلاتهم الثقافية الشخصية التي تمدهم بتصور يختلف عن الاتجاهات السائدة نحو هذه الموضوعات.

فالسلوك البيئي الذي يعتمده الفاعل الاجتماعي هو سلوك عملي نجده يخدم المجال الداخلي للأسرة فقط دون اعتبار للمجال الخارجي أو البيئة الحضرية عموما، وقد قصرناه في ضوء المنظور النسقي الذي يعتمد افتراضا أساسيا يدور حول فكرة تكامل الأجزاء في كل واحد، والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة للمجتمع.

ويرى هذا المنظور أن المجتمع نسق يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة، ويهتم بدراسة العلاقة بين مختلف هذه الأجزاء وبين المجتمع ككل،كما ينظر المجتمع على اعتبار أنه شبكة منظمة من الجماعات المتعاونة التي تتجه نحو الاستقرار، وتتفق حول القيم المرتبطة بالأهداف ووسائل تحقيقها .

ولكي تحقق الثقافة البيئية أهدافها، يجب أن تعنى بالتكوين وبناء الفاعل الاجتماعي بإثراء المضامين التعليمية بالمعلومة البيئية وتجديدها بحسب التطورات والرهانات وذلك عن طريق المناهج التعليمية والبرامج التي تحمل في طياتها أبعادا ومضامين بيئية. مثل هذه المدخلات سوف تستهدف الأساس "المعرفي" و"السلوكي" لدى المتعلم والمتلقي كاستثمار طويل المدى يلتقي مع أهداف التنمية المستدامة. على أن تكون عملية التثقيف البيئي تطمح إلى تغيير في المهارات والقدرات والسلوك.

ومن خلال استقرائنا لنتائج البحث الميداني يمكن أن نستنتج أن هناك عدة مؤشرات تساهم في التأثير في مواقف والأفعال التي يتبناها الفاعلون الاجتماعيون بتوجيهها في تبنى ثقافة بيئية اتجاه محيطهم الخارجي. كالمستوى السوسيو اقتصادي والثقافي (نوع المسكن ، الدخل . التصور، ثقافة الحفاظ على الموارد الطبيعية و المساهمة في حملات الغرس والتشجير، درجة الوعي).

و بما ان المؤسسات الاجتماعية باختلاف فروعها دور كبير في ترشيد الأفراد في تبني سلوكيات سلمية اتجاه المحيط الخارجي و البيئة عموما، فكان لزاما من الكشف عن دورها و مدى مساهمتها، حيث تبين لنا أن كل من وسائل الإعلام والمدرسة والجمعيات ونوادي المنادية بحماية البيئة والسلطات المحلية بجميع فروعها، و الأفراد كل هؤلاء لهم مهام و أدوار كبيرة في ترسيخ ثقافة بيئية عملية اتجاه نظافة المحيط الخارجي بدءا بوسائل الإعلام التي يقع على عاتقها عمل التحسيس والكشف عن الأخطار المترتبة عن الأعمال المضرة بالبيئة، كونها تستقطب أكبر عدد من الأنظار وتعمل جنبا إلى جنب مع السلطات المحلية من خلال التعريف بقوانينها لفائدة الصالح العام، من خلال تلك العقوبات المترتبة عن كل تجاوز في حق البيئة والتفكير بتضافر كل الجهود وإيجاد حلول وسطية وجذرية تكون فاعلة وبناءة، للحفاظ على نظافة المحيط الخارجي وضمان بذلك سلامة البيئة وسلامة المواطن.

وعليه فالمؤسسات الاجتماعية بمختلف فروعها إن عملت عملها في حدودها على أكمل وجه فإن ذلك حتما يؤدي إلى نتائج مُرضية للبيئة والفرد معا.

وبعد تحليل ومناقشة نتائج الفرضيتين تبين لنا أن المؤسسات الاجتماعية تؤثر في الأفراد وبالتالي لابد من أبراز دورها لما هو أفضل للأفراد وعليه يجب أن تعمل على تغذية فكره بالقيم المثالية التي تخدم المحيط البيئي بصفة عامة ومن ثم فهي تبني مستقبل البيئة ولا تهدمه وبهذا الشكل تصبح المؤسسات الاجتماعية ثقافة مرجعية لسلوك الأفراد.

فمن حيث دور مؤسسة الأسرة : تبين لنا أن ما هو ملك للأسرة حقها النفعي من واجبها الاعتناء به والمحافظة عليه مقارنة بالمجال الخارجي الذي لا تولي الاهتمام به. وهذا نتاج موروثات اجتماعية مردها الثقافة الماضية التي بقيت سائدة في أذهان المواطنين، وخاصة أمام افتقار البلديات للوسائل والإمكانيات اللازمة للإبقاء على جمالية الوسط الحضري خاصة مع زيادة تكاثر التعمير العشوائي مقارنة بالوسائل المتاحة، هو ما أدى إلى إبقاء الصورة غير اللائقة للمحيط الخارجي التي تبعث على عدم الراحة النفسية وعدم الانسجام .

أما من حيث دور مؤسسة المدرسة فيمكن من خلال تفعيل دورها بتعميم أهداف التربية البيئية وتعميقها، ولا يتأتى هذا إلا بتطعيم مختلف المواد الدراسية من لغات وإنسانيات وفنون وعلوم

وغيرها بقضايا بيئية. ولعل الأفضل أن تأخذ المناهج الدراسية البيئية اتجاه لها. وهذا هو الفكر الذي بدأ يأخذ طريقه إلى المقررات الدراسية في مراحل التعليم، فيدرس الأبناء اليوم مقررات محورها الإنسان، وارتباطه بالبيئية، فمنهاج الإنسان والبيئية الذي أعدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للمرحلة المتوسطة على مستوى الوطن العربي بدأ يؤثر في مناهج الكثير من الدول العربية –بما فيها الجزائر –لأنه يطرح البيئة بمفهومها الشامل المتكامل بهدف تنمية وعي بيئي لدى الناشئة يمكنهم من التعامل مع البيئة من منطلق حمايتها وتحسينها، والتربية الصحية اليوم تطرح بمنطق بيئوي، لأن غالبية الأمراض تنشأ من ملوثات بيولوجية. ومشكلات البيئة الرئيسية أصبحت تطرحها المناهج الدراسية من خلال آثارها الاجتماعية والاقتصادية.

من خلال دور الهيئات المحلية:

نستنتج أن السلطات المعنية بالتكفل بالنفاية تفتقر لطريقة المثلى للتخلص منها ،خاصة الدول المتخلفة التي تتبنى طريقة الحرق للمخلفات، وهي وإن كانت سهلة التنفيذ إلا أنها خطيرة العواقب، إذ تؤدي إلى طرح كميات كبيرة من الغازات الضارة في الجو فتلوث الهواء، ومنه تضر بالكائنات التي تستنشقه، خاصة في المناطق المجاورة للمحارق. وتزداد هذه الخطورة عادة عندما يتعلق الأمر بحرق نفايات المصانع بما قد تشتمل عليه من كيماويات ومواد غريبة، كما تزداد المخاطر عندما توجد المحارق في أماكن قريبة من المناطق السكنية أو مناطق العمل أو المناطق المأهولة بالمارة. وتزداد المشكلة مع وجود النفايات البلاستيكية التي تحتوى على مادة الفينيل، حيث تنتج غاز الهيدروجين السام عند حرق هذه النفايات.

ما لا شك فيه أن السلطات البلدية المكلفة بجمع القمامة والنفايات حفاظا على النظافة العامة ووقاية من انتشار الأمراض والأوبئة، تواجه صعوبات متعددة في عملها لاسيما أن الطريقة السائدة في التخلص من القمامة هي الحرق باعتبارها أيسر الطرق رغم مضارها، وتكتفي بتحديد أماكن الحرق على سبيل الحصر.

أما عن دور المواطن: فإن امتثال الفرد بالقيم الإيجابية ومعايير الحياة المدنية واستشعاره لمبادئ المواطنة هو أساس تبني ثقافة بيئية عملية وفعالة، بمعنى أن المواطنة هي وعاء يتسرب من خلاله

الفرد بعض المبادئ المعرفية والسلوكية تجاه البيئة، كاحترامه لبعض القواعد السلوكية الخاصة باللياقة كعدم التدخين في الأماكن العمومية، أو استعمال سلات المهملات لرمي الفضلات، عدم التعدي على المساحات الخضراء ، عدم قطف العشوائي للأزهار وورود الحدائق... هذه التصرفات يشعر بقيمتها أشخاص لهم صفات وطبائع متميزة عن الآخرين، تفسر في علم النفس بقدرة الجهاز الحسي الإدراكي عند هؤلاء في استقطاب المواقف والسلوكيات العقلانية معينة حسب ما تقتضيه، إضافة للمؤهلات الاجتماعية التي تحصلوا عليها من المبادئ التربوية والتثقيفية والتنشئة الاجتماعية، والذي يطلق عليها علم الاجتماع دور المؤسسات الاجتماعية ابتداء من الأسرة مرورا بالمدرسة، وسائل الإعلام... الخ. والتي أمكنت من صقل الشخصية القاعدية لهؤلاء المواطنين.

خلاصة: وكخلاصة لكل ما سبق يمكن أن نستنتج أن التبسيط المفرط في طرح الكثير من قضايا البيئة مفصومة عن الإطار التكاملي للبيئة. فعندما تسعى بعض الجهات إلى توعية وتبصير الناس كافة ليساهموا في حماية البيئة يحجّم هذا الدور ليصبح رديفاً للنظافة، وحتى تناول موضوع النظافة بالوسائل المسموعة والمقروءة والمرئية، يحجم ليصبح رديفاً للعناية في إلقاء وجمع القمامة، فالنظافة لا ترتبط بالقمامة فحسب وإنما بكل ما يحيط بالفاعل الاجتماعي من خلال تلك المواقف والأفعال التي يتبناها في بيئته. وذلك من خلال تعزيز وتفعيل دور جميع مؤسسات التنشئة الاجتماعية بتسطير برامج تعنى بالثقافة البيئية، وذلك من خلال تبسيط و تحليل وتوضيح دور كل فرد فيها ، ويراعى فيها البساطة والتنوع ، وتوضيح موقعها في الإطار النسقي الشامل والمتكامل للبيئة.

وما يجدر الإشارة إليه، هو أن كل نسق نظامي أو لا نظامي له عناصره، مما يجعلنا نراعي عدم وجود تناقص ، بمعنى أن لا تتعارض المدرسة مع الأسرة من حيث المضمون التطبيقي وخاصة فيما يتعلق بالنواحي البيئية، وكذا لا يجب أن يكون هناك تناقصا بين ما تبثه الإذاعة أو التلفزيون، أو ما نقرأه في الصحف، وبين ما هو كائن بالواقع المحيط، ومنه لابد من أن يلتحم هذا النسق لتحقيق أهداف موحدة والتي يجب أن تراعي السياق الايكولوجي والاجتماعي الموجود فيه، أي التركيز على البيئة المحلية إذا ما تعلق الأمر ببناء السلوك الإيجابي. لذا لزم عليها أن تعمل في السلوك اليومي للأفراد، مثل البيت، وجماعات اللعب والنادي، ودور العبادة، ووسائل الإعلام والتثقيف

والمجتمع المدني...الخ. وبتكثيف جميع جهود المؤسسات الاجتماعية يمكن ترسيخ ثقافة بيئية للحفاظ على جمالية المحيط والوسط الحضري.

الـــهـــوامش :

1- خطيب علي ، مرجع سابق، ص 125، 127.

2- عريفج. سامي ، **برامج طفل ما قبل المدرسة**، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع،القاهرة 1997، ص 47

3- نفس الصفحة، ص 47.

4- ديوي جون: **التربية**، ترجمة عبد المجيد، دار الفكر مصر، 1983، ص66

5- منظور حسين ، **التعليم الأساسي مفهومه ومبادئه**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 25.

6- إبراهيم عصمت مطاوع: **التربية البيئية في الوطن العربي**، دار الفكر العربي، 1995،، ص 157.

7- سلسلة التربية الستة (6) اليونسكو، **الحاجة والتبرير للتربية البيئية، نهج للتدريب أثناء الخدمة لمعلمي ومشرفي المدارس الابتدائية**،ص 14

8- إبراهيم عصمت مطاوع، نفس المرجع، ص 165.

9- اليونسكو، **التربية في مواجهة مشكلات البيئة**، أكتوبر، ص 25.

10- نفس المرجع، ص 05.

11- Conférence de Tbilissi, **L'éducation relative à l'environnement**, les grandes orientations, ed ONU, 1980, p 21

12- سيد أحمد محمد غريب، **دراسات أسرية وبيئية**، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1997، ص 147.

13- أحمد يحيى عبد الحميد، **الأسرة والبيئة**، مرجع سابق، ص 258

14- اليونيسكو، **التربية في مواجهة مشكلات البيئة**، مرجع سابق، ص 26.

15- الخشاب مصطفى ، **دراسات في علم الاجتماع العائلي**، بيروت، دار النهضة العربية، 1985، ص 117.

16- زهران عبد الحميد: **علم النفس الاجتماعي**، القاهرة، عالم النشر، ط 5، 1984، ص 153.

17- زردومي أحمد ، الأسرة والتربية البيئية، **وقائع الأسرة الجزائري وآفاق ترقيتها**، الجزائر منشورات جمعية الإرشاد والإصلاح، ط 1، 1997، 86.

18- مطاوع إبراهيم عصمت. مرجع سابق، ص، 136-137.

19- أحمد يحيى عبد الحميد، **الأسرة والبيئة**، الاسكندرية، المكتب الجامعي، 1998، ص 241.

20- نفس المرجع ، ص 242.

21- الدمرداش صبري : **التربية البيئية النموذج و التحقيق و التقويم**، دار المعرفة، مصر، ط1، 1988. ص 75

22- المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، **الإعلام البيئي**، جامعة الدول العربية، تونس، 1987، ص 13

23- عفيفي السيد عبد الفتاح ، **بحوث في علم الاجتماع المعاصر**، دار الفكر العربي، 1996، ص 217.

24- العيسوي عبد الرحمن ، **سيكولوجية التلوث**، بيروت، دار الراتب الجامعية بدون سنة، ص ص 117-118.

25- اللجنة القطرية للتربية والثقافة و العلوم والتربية، ص ص 142-143.

26- الهندي صالح ذياب ،مرجع سابق، ص 64.

27- اليونيب، **الدورة التدريبية لمعدي البرامج البيئية في مجال الإعلام المرئي والمسموع**، دمشق 1995، ص 204.

28- أميمة كامل، **إعداد برامج البيئة في الإذاعة والتلفزيون، الدورة التدريبية لمعدي البرامج البيئية في مجال الإعلام المرئي** والمسموع، دمشق، 1995، ص 204.

29- **اليونيسكو، التربية في مواجهة مشكلات البيئة**، مرجع سابق، ص 32.

30- نبيلة عبد الحليم كامل، **نحو قانون للحماية البيئية**، المؤسسة العامة للكتاب، الاسكندرية، 1988. مرجع سابق ص 101

31- ميثاق الجزائر، مرجع سابق، ص 255.

32- المديرية العامة للبيئة، مديرية التربية البيئية والنشاط الدولي، **محضر اجتماع لدراسة المشاريع البيئية للجمعيات التي تنشط في مجال حماية البيئة**، 7 سبتمبر 1998، ص 1.

33- قانون 90-31 المتعلق بالجمعيات، مرجع سابق.

34- الشامي سامي علي ، **القضايا الرئيسية للبيئة**، مجلة الدراسات عربية، عدد 8 سنة 1990، ص 23.

35- وزارة الشباب والرياضة وكيلة الدولة لدى وزير الداخلية والجماعات المحلية والبيئة، المكلفة بالبيئة، **اتفاقية تتعلق بالشروط وكيفيات التنفيذ برنامج التحسيس والتوعية البيئية في أوساط الشباب**، لمنعقدة بتاريخ 4 جوان 1998، الديباجة، ص 1.

36- نفس المرجع، ص 3.

37- لمديرية العامة للبيئة، مديرية التربية البيئية والعمل الدولي، بطاقة فنية تتضمن شروط وكيفيات إنشاء نوادي شباب بيئية، بدون تاريخ، ص 2.

38- بن طاهر علي: ال**ثقافة السياسية ومسألة الديمقراطية التعددية في الجزائر 1989**،1992، مذكرة ماجستير (جامعة الجزائر، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، فرع تنظيمات سياسية وإدارية، 2001، ص 186.

39- تصريح الدكتور بولبينة، رئيس حركة البيئة والحريات، لجريدة المساء ليوم 1994/06/12، نقلا عن نويري عبد العزيز، مذكرة ماجستير، مرجع سابق، ص 61.

40- Entretien avec Abd errahmane Akil, président du « MNND », La nation, n° 167 du 01/10/1996, p 11.

41- الفقني محمد عبد القادر ، المرجع سابق، ص 20

42- عيسى سليمان إبراهيم، **تلوث البيئة، أهم قضايا العصر، المشكلة والحل**، القاهرة، دار الكتاب الحديث، 2000، ط2، ص 92.

43- عيسى سليمان إبراهيم، **مرجع سابق**، ص93.

44- الفقي محمد عبد القادر ، **المرجع سابق**، ص 94.

45- صحيح مسلم 235/1 في الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد. نقلا عن حسين مصطفى غانم، **الإعـــلام وحماية البيئة من التلوث**، مكة المكرمة، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، 1996، ص 227.

46- نفس المرجع، ص 227.

47- طلعت محمد ، **قانون السلام في الإسلام**، دار المعرفة، الإسكندرية، 1989، ص 836.

قائمة المراجع:

قائمة المراجع:

1- أحمد يحي عبد الحميد: الأسرة والبيئة، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1998.

2- الخشاب مصطفى ، دراسات في علم الاجتماع العائلي، بيروت، دار النهضة العربية، 1985.

3- زهران عبد الحميد: علم النفس الاجتماعي، القاهرة، عالم النشر، ط 5، 1984.

4- زردومي أحمد ، الأسرة والتربية البيئية، وقائع الأسرة الجزائري وآفاق ترقيتها، الجزائر منشورات جمعية الإرشاد والإصلاح، ط 1، 1997.

5- الدمرداش صبري : التربية البيئية النموذج و التحقيق و التقويم، دار المعرفة، مصر، ط1، 1988.

6- عفيفي السيد عبد الفتاح ، بحوث في علم الاجتماع المعاصر، دار الفكر العربي، 1996.

7- العيسوي عبد الرحمن ، سيكولوجية التلوث، بيروت، دار الراتب الجامعية بدون سنة.

8- اليونيب، الدورة التدريبية لمعدي البرامج البيئية في مجال الإعلام المرئي والمسموع، دمشق 1995.

9- عريفج. سامي ، برامج طفل ما قبل المدرسة،دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع،القاهرة 1997.

10- أميمة كامل، إعداد برامج البيئة في الإذاعة والتلفزيون، الدورة التدريبية لمعدي البرامج البيئية في مجال الإعلام المرئي والمسموع، دمشق، 1995.

11- نبيلة عبد الحليم كامل، نحو قانون للحماية البيئية، المؤسسة العامة للكتاب، الاسكندرية، 1988.

12- المديرية العامة للبيئة، مديرية التربية البيئية والنشاط الدولي، محضر اجتماع لدراسة المشاريع البيئية للجمعيات التي تنشط في مجال حماية البيئة، 7 سبتمبر 1998.

13- الشامي سامي علي ، القضايا الرئيسية للبيئة، مجلة الدراسات عربية، عدد 8 سنة 1990.

14- بن طاهر علي: الثقافة السياسية ومسألة الديمقراطية التعددية في الجزائر 1989، 1992، مذكرة ماجستير (جامعة الجزائر، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، فرع تنظيمات سياسية وإدارية.

15- عيسى سليمان إبراهيم، تلوث البيئة، أهم قضايا العصر، المشكلة والحل، القاهرة، دار الكتاب الحديث، 2000، ط2.

16- طلعت محمد ، قانون السلام في الإسلام، دار المعرفة، الإسكندرية، 1989.

17- ديوي جون: التربية، ترجمة عبد المجيد، دار الفكر مصر، 1983.

18- منظور حسين ، التعليم الأساسي مفهومه ومبادئه، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.

19- سلسلة التربية الستة (6) اليونسكو، الحاجة والبرير للتربية البيئية، نهج للتدريب أثناء الخدمة لمعلمي ومشرفي المدارس الابتدائية.

20- سيد أحمد محمد غريب، دراسات أسرية وبيئية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1997.

21- المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، الإعلام البيئي، جامعة الدول العربية، تونس، 1987.
22- اليونسكو، التربية في مواجهة مشكلات البيئة، أكتوبر.

23- Conférence de Tbilissi, L'éducation relative à l'environnement, les grandes orientations, ed ONU, 1980.
24- Entretien avec Abd errahmane Akil, président du « MNND », La nation, n° 167 du 01/10/1996.

الهجرة غير شرعية تفسيراتها، ميزاتها، دوافعها.

أ. موسى معطاوي.
جامعة البويرة

الملخص: نستعرض من خلال هذه القراءة السوسيولوجية اهم طرح لعملية التغير الذي طـــال المجتمع في جميع جوانبه المختلفة وهو طرح الهجرة غير الشرعية او السرية، من خـــلال تقـــديم اهـــم تفسيرات هذه الهجرة وكذا مميزات المهاجرين غير الشرعيين ودوافعهم الاجتماعية والنفسية والماديـــة وكذا الدوافع الجغرافية والتاريخية والسياسية. هذا بالإضافة الى الاتجاهات التي تناولت الهجـــرة غـــير الشرعية كالاتجاه الثقافي و اتجاه التنظيم الاجتماعي و الاتجاه الاقتصادي و الجغرافي مع عرض لأهـــم الخصائص و التيارات المميزة للهجرة غير الشرعية.

Summary: When considering these circumstances sociological reading the most important launch.for.the.long process of changein the who lsociety And its different aspects is to clandestine immigration or confidential, providing the most important interpretations of these circumstances and immigration as well as features of illegal and social reasons, psychological and physical and immigrants, even those geographical, historical and political, in addition to the admission of cultural trends Kalatjah reasons illegal immigration and the management of social and economic trends and geographical organization and the presentation of the most important features and distinct streams of illegal immigration

مـــقـــدمـــة:

ان مفهوم الهجرة مرتبط بتلك التحركات البشرية التي تصنف على نحو التحرك من محل إقامة ثابت، و الارتحال أو التنقل الدائم و المستمر أو تغيير محل الإقامة بشكل نهائي و لذا نجد القاموس الجغرافي للأمم المتحدة يشير إلى أن الهجرة نوع من الحراك و التنقل بين إقليم جغرافي و أخر وفق تغيير محل الإقامة الأصلـــي[1]، ووفق هذه التعاريف يصعب تحديد مفهوم موازي للهجرة غير الشرعيـــة و يمكن الإحاطة بها من خلال أنها عبارة عن انتقال البشر من مكان لآخر سواء كان في شكل فردي أو جماعي لأسباب سياسية اقتصادية،أو اجتماعية ، كما أن الهجرة الشرعية تنظمها قوانين وتحكمها تأشيرات دخول تمنحها السلطات المختصة بالهجرة في المقابل الهجرة غير الشرعية تتم مخالفة لهذه القوانين ودون الحصول المهاجرين على تأشيرات دخول[2]، و تسمية المهاجر غير الشرعي ليق بالهجرة غير الشرعية ويعتبر مهاجر بدون وثائق و في وضعية غير قانونية و يعرفه المكتب الدولي للعمل BIT بأنه كل شخص يدخل أو يقيم أو يعمل خارج وطنه دون حيازة الترخيصات القانونية اللازمة، ولذلك

يعتبر مهاجرا غير شرعي أو سري أو بدون وثائق[3]، أو في وضعية دون تغطية قانونية و غير رسمية و تشير منظمة العمل الدولية OIT إلى أن الهجرة غير الشرعية هي التي يكون بموجبها المهاجرون مخالفون للشروط التي تحددها الاتفاقيات الدولية و القوانين المحلية الوطنية بمعنى أفراد بدون هوية و بدون وثائق رسمية جوازات و بدون تأشيرات أو حاملي لوثائق وتأشيرات مزورة.

هذا ووضع الإحصائيون دلالة للهجرة من خلال اعتبارها حركة من خلال الحدود الدولية ما عدا تلك الحركات التي تأخذ شكل السياحة والتي تدخل ضمن إحصائيات الهجرة فإذا كانت هذه الحركة لمدة عام وأكثر من عام تحسب هجرة دائمة، وإذا كانت أقل من عام فتعد في مسار الهجرة المؤقتة في المقابل نجد أخصائيو علم السكان يشيرون إلى أن الهجرة هي الانتقال بشكل فردي أو جماعي من موقع لأخر بحثا عن وضع اجتماعي واقتصادي وديني وسياسي أفضل، و يوضح علم الاجتماع الهجرة من خلال أنها تدل على تبدل وتغير الحالة الاجتماعية كتغيير المهنة أو الحرفة وأن الهجرة تحول اجتماعي يتنقل فيه الأفراد من مستويات الفقر إلى الأكثر ثراء في ظل ظروف اجتماعية معينة[4]، و يتضح من هذا التعريف أنه ترجمة فعلية لعملية الحراك المهني الذي يتضمن تغيير الحرفة والانتقال لحرفة أخرى، ويتضمن نوع من الحراك الاجتماعي النازل والصاعد الذي قد يجعل من هم في أدنى المستويات من فقر وعوز إلى أثرياء ومثالها ما تفعله الحروب والتبدل الذي يصيب التدرج الاجتماعي والطبقات الاجتماعية، وفي طرح عملية الهجرة غير الشرعية في خضم كل هذا التعاريف يمكن الإشارة إلى أن الهجرة غير الشرعية دلالة على تنقلات يحدثها المهاجر غير الشرعي لتبديل وتغيير وضعه الحياتي بدون استيفاء الشروط القانونية في البلد المرغوب الإقامة فيه والمهاجر إليه، و يكون فيه أجنبي alein بعد انتهاء تأشيرة الدخول[5]، ويصبح أجنبي مقيم بصفة غير شرعية illégal alein.

1- تفسيرات الهجرة و مميزات المهاجرين و دوافعها:

انصب اهتمام العديد من الباحثين حول ظاهرة الهجرة غير الشرعية و آثارها و انعكاساتها و ركز قدماء الدارسين للهجرة في حد ذاتها على تباين هذه الظاهرة من مجتمع لآخر و ذلك ما دعا بالعديد إلى تفسيرها و التنظير لها بحيث أنها كانت تقتصر على عامل الإحصاء و الدراسات السكانية و كذا تلك الدراسات المهتمة بالتحركات السكانية ،و جميعها كانت مهملة لعمليات عدة كالاندماج الاجتماعي والتثاقف والتماثل، و التكيف الاجتماعي و من ثم ركزت غالبية الدراسات السوسيولوجية للهجرة على اعتبارها من عوامل التغير الاجتماعي social change بشقيه الإيجابي

و السلبي ،و لذا سنتعرض الى ثلاثة اتجاهات رئيسية في تفسير الظاهرة وهي كالآتي:

2_1 التفسير الاجتماعي للهجرة غير الشرعية:

تشير أدبيات علم الاجتماع إلى أن الهجرة هي انتقال الإنسان من موطنه الأصلي و بيئته المحلية إلى وطن آخر للارتزاق و كسب وسائل عيش أو لسبب تجاري أو سياحي أو سياسي، و غالبا ما تكون هذه الهجرة اضطرارية أو جبرية forced migration [6]، خارجة في الغالب عن إرادة الإنسان كالهجرة التي عرفتها الشعوب الأولى و التي تحدث اجتنابا للكوارث الطبيعية كالزلازل و الفيضانات ، و كذلك تلك الهجرات التي كانت تتم طلبا للسلم و الأمن من طرف أفرادهـــا نتيجة لغـــزو مرتقب أو حاصل بالفعل وللهرب من خطر محدق أو لأسباب اقتصادية و دينية و عرقية، و لذا نجد الخبراء السوسيولوجيون يرون في ظاهرة الهجرة غير الشرعية ظاهرة مصاحبة لنماذج النجاح الاجتماعي للآخر و بالتالي عامل جذب وكذا تبدل سلم القيم و صعوبة التكيف مع المجتمع الأصلي و ضعف في الروابط الاجتماعية و هشاشتها الرامية إلى ضعف عملية التضامن solidarité وكذا اختلال التوازن بين الوسائل و الطموحات المرجوة التحقيق، فيعمد الأفراد إلى ترك و مغادرة البيئة التي يعيشون فيها و لا تشعرهم بالدور الذي يشعرهم بالوجود فيختارون آلية بديلة في صيغة "حرقة" أو هجرة غير شرعية خاصة و انعدام المعيار الذي وفقه يعيش بعض الأفراد، و انعدامه يدفعهم للهجرة. و حسب ايميل دوركايم[7]، فإن عملية تفسخ القيم وانحلالها داخل المجتمع تنتج فجوة و ثغرة بين العيش في ظل حياة اجتماعية عميقة و بين التقبل للعيش في ظلها وهذا ما يدعو المهاجر غير الشرعي إلى التوجه لآلية "الحرقة" كبديل لعدم التقبل .كما يمكن لبعض الأفراد أن يتوجهوا للهجرة غير الشرعية كتقليد للجماعة التي ينتمون إليها و يتمسكون بها حيث يتحدد فعل الفرد تبعا للشخصية وللتجارب الفردية لصاحب الفعل وفق الجماعة التي يختلط بها [8]، و بها يتشكل موقفه و توجهه وفق علاقة تفاعلية.

هذا وترجع الهجرة حسب التفسير الاجتماعي لها إلى مجموعة من العوامل المتداخلة ،و يجب النظر إلى الهجرة والمهاجرين نظرة كلية متكاملة بدليل أن أعلام علم الاجتماع و المحللين السوسيولوجيين يستقرؤون الواقع من خلال أرقام و إحصائيات و يعتمدون على دراسات ميدانية و نتائجها و لذا نجد التفسير الاجتماعي يعتد باتجاهات في تفسيره من خلال :

أ–الاتجاه الثقافي: وهو يرى أن الثقافة تشجع بشكل كبير في حدوث الظاهرة وهي المسؤولة عن الميل لها، و إذا ما اقترنت العوامل الثقافية بالعوامل الاقتصادية فإنها تعطي للهجرة طابعا خصوصيا واسعا

وكذلك الثقافة المقترنة بالبدو و الرحل و كذا الشعوب البدائية[9] ، بالإضافة إلى عملية الانتشار الثقافي وفكرة "الحرقة" التي تنطوي على عملية الترابط و الصراع و المساعدة على انتشارها أي انتشار العناصر الثقافية كثقافة أو فكرة "الحرقة" من مجتمع إلى مجتمع آخر.

ب–اتجاه التنظيم الاجتماعي: حيث يشير "مانقلام" mangalam إلى الهجرة باعتبارها من عمليات التغير الاجتماعي و يوضحها اختلاف وضع المجتمع و نظامه الاجتماعي في فترتين مختلفتين و في هذه الأثناء تعمل الهجرة على حفظ عملية التوازن للنظام الاجتماعي و تعطي أعضاءه طرقا ليتخلصوا من حرمانهم [10]وفي المقابل نجد بعداً آخر في ظل التفسير الاجتماعي للهجرة و الهجرة غير الشرعية و يتعلق هذا البعد أساسا بشبكات الهجرة [11]، و هو الذي يفسر الهجرة عن طريق إقامة الروابط الاجتماعية بين المهاجرين و غير المهاجرين و هي روابط تربط أكثر الدول الأصلية للمهاجرين و الدول المهاجر إليها حيث يقدم كل مهاجر فرصا للأشخاص من محيطه كفرد من أسرته أو من عشيرته أو من الجيران لحثهم ومساعدتهم على الهجرة و في هذا الإطار فإن قرار السفر لا يقوم بشكل أساسي على حساب اقتصادي و عقلاني بحت على النحو الذي تفسره النظريات الجديدة حول الهجرة و لكن على نحو تلك المعلومات التي تم جمعها عن مدى توفر الأشخاص الذين يستطيعون دعم المهاجر ماديا و نفسيا خلال جميع مراحل انتقاله أيضا تسمح بشبكات الهجرة من خلال تأثيراتها في تقليل المخاطر و التكاليف عن المهاجرين و المهاجرات المستقبليين بالإستمرار الذاتي لعملية المهجرة ، كما نجد أن شبكات الهجرة تربط بين الأشخاص المنتمين لنفس المجتمع الأسري و العرقي و اللغوي و الديني و تعمل تلك الشبكات كمقدمة لخدمات تقلل من تكلفة الهجرة و أن تأخذ في الحسبان وجود مخزون من تعداد المهاجرين المشتتين في عدة مدن و بلدان ن وهذا هو أحد المعايير الهامة التي تتدخل في قرار الهجرة، و هكذا كلما كانت الشبكة متطورة كلما انخفضت التكاليف و زادت الهجرة حدة، و يلعب رأس المال الاجتماعي للمهاجر دورا أكثر أهمية من رأس المال النقدي.

ج–اتجاه خصائص المركز الاجتماعي: حيث سجل توماس خلال عام 1939 أن السن من أكثر خصائص المركز الاجتماعي المؤثر في الميل نحو الهجرة و تشير أبحاث أخرى أن المستوى التعليمي والحالة المهنية لها تأثير كذلك و يصعب الفصل بتاتا بين الدور الاجتماعي للفرد و اتجاهه نحو الهجرة.

1_3 التفسير الاقتصادي للهجرة غير الشرعية:

حيث تأخذ هذه النظرية بالعوامل الطاردة في المجتمع الأصلي كقلة فرص العمل و البطالة،و في المقابل تأخذ بعوامل الجذب في المجتمع مستقبلا ،ذلك لأن المهاجر يترك موطنه الأصلي بحثا عن العمل

و بالتالي فسلوك الهجرة يتماشى و المنفعة الاقتصادية في موطنه الأصلي [12]، هذا وإن الملاحظ في الطرح الاقتصادي لظاهرة الهجرة يرى أنها ركزت فقط على الإقبال نحو الهجرة والذي يقتصر على الحاجة والبحث عن المال فقط ،مهملة بذلك المؤثرات الأخرى في التوجه و الميل الإنساني نحو سلوك الهجرة كالحرمان ، العوز...الخ.

كما لا يخفى على أعلام السوسيولوجيا و الاقتصاد بأن النظريات الاقتصادية المتعلقة بالهجرة كانت ذات هيمنة واسعة و أنها تطرقت لمسألة الهجرة بتلك العوامل المرتبطة بالوظائف و الأجور حيث يقدم المنظر الجغرافي الانكليزي "أرنست رافنستين "–صاحب أول نظرية في الهجرة خلال 1885 [13]، من خلال تحليل بيانات تعداد السكان – و يخلص إلى أن الهجرة محكومة بدوافع الجذب و الدفع و أن الظروف الاقتصادية المزرية أو السيئة تدفع ببعض أفراد المجتمع إلى ترك بلدانهم الأصلية إلى مناطق أكثر جاذبية ويرى أن الهجرة تتزايد مع تطور التكنولوجيا، و الملاحظ أن ارنست رافنستين وضع الهجرة في بيئة أكثر عموما معتبرا تقدم الهجرة كحركة تنطلق من محيط الدائرة إلى مركزها و المسافة المقطوعة بالمهاجرين،و في المقابل نجد "إفيريت لي" يعيد صياغة نظرية "رافنستين" مركزا بذلك على عوامل الدفع.

و على العموم فإن التيارات الكبيرة للهجرة المعاصرة لا يمكن فصلها عن التفاوت الاقتصادي بين أفراد المجتمع و هذا ما أظهرته التحليلات الاقتصادية التقليدية للهجرة من خلال تركيزها بشكل كبير على الجانب الفردي للهجرة وعلى ضرورة وجود كسب أعلى أو إضافي يبرر الانتقال.

1_4التفسير الجغرافي للهجرة غير الشرعية:

حيث يهتم بدراسة عوامل الطرد من المجتمع الأصلي و تحديد المجتمع المستقبل ، كما حاول أصحاب هذا الاتجاه الربط بين عدد السكان و خصائص مناطق تواجدهم و دراسة إمكانية وجود توازن بينهم وأن أي عدد يزيد عن العدد المسموح به يؤدي إلى الإخلال بالتوازن فيدفع بالعدد الفائض أو الزائد الى الهجرة [14]، كما يشير هذا الاتجاه إلى أن الفئة المهاجرة تختار منطقة الاستقبال في ظل ظروفها البيئية والجغرافية مع موطنهم الأصلي.

هذا وإن عوامل الطرد و الجذب محددة بأسباب رئيسية للهجرة و المتمثلة في الاتصال و تعدد العلاقات القائمة بين البلدان الأصلية للمهاجرين و المستقبلة لهم، كما أن سمات الطرد و الجذب تتميز بها البلدان الأصلية للمهاجرين و البلدان التي يهاجر إليها الناس مع يطرح متغيرات إقامة جماعة تنظم الهجرة بشكل مخالف كشبكات تنظيم"الحرقة "كما أن عوامل الطرد هذه ممثلة غالبا في العوز و الفقر و

الاضطهاد خلاف تلك العوامل التي تساهم في الطرد و غالبا ما تتمثل في الحروب و المجاعات [15]، الزلازل و تتمثل كذلك في النمو الديمغرافي و كثرة السكان و أثر ذلك على الغذاء خاصة لدى الدول الفقيرة التي تناضل من أجل مواجهة مشكلة الفقر، حيث توجد علاقة واضحة بين عدد السكان و تزايد أعدادهم و بين تزايد احتياجاتهم من المواد الغذائية[16] ، بالإضافة إلى عوامل مرتبطة بالبحث عن الرفاهية ، في المقابل نجد عوامل الجذب تتمثل غالبا في الزيادة المطلوبة على العمل في بعض القطاعات و المهن بدليل أن أسواق العمل تستورد مهاجرين في ظل عدم قدرة العرض فيها أو الأيادي العاملة المحلية على تلبية الطلب بالإضافة إلى عامل الشيخوخة التي تزحف على الدول الصناعية و بالذات أوروبا الغربية [17]،وهذا ما يؤدي إلى انكماش العمل وازدياد أعداد الخارجين من سوق العمل.

2_ مميزات وسمات المهاجرين غير الشرعيين:

من بين القوانين العامة و الثابتة الفروق بين المهاجرين و التي تعتبر قاسم مشترك بين المهاجرين تتمثل غالبا في تلك الخصائص المقتصرة على النوع و العمر أو السن و المستوى التعليمي و المركز الاجتماعي أو المكانة الاجتماعية و التي نستعرضها كما يلي:

1–الجنس: و نعني به الذكر والأنثى وميل كل واحد منهما للهجرة، حيث يرى الكثير من الباحثين أن الذكور أكثر قابلية للهجرة من الإناث وذلك لأن جنس الذكور يقع على عاتقه عبئ المسؤولية الحياتية.

2–السن: و يعني بذلك اتجاه بعض الأفراد من فئات عمرية معينة للهجرة أكثر من غيرها من المجتمع المعاش الأصلي حيث يرى الكثير من الدارسين أن الشباب في سن النشاط و الإنتاج هم أكثر ميلا خاصة تلك الفئة العمرية المنطوية من 20 إلى 34 سنة[18]، و هي فئة أكثر استعدادا للهجرة من باقي الفئات العمرية.

3–المستوى التعليمي: يتضح أن للمستوى التعليمي دورا كبير ا و أثرا واسعا في عملية الهجرة إذ أن هناك رابطة إيجابية بين ارتفاع مستوى التعليم و التفكير في الهجرة ،إما لمواصلة طلب العلم والداسةوالبحث أو طلبا لحياة أكثر اتزانا من حياة المجتمع الأصلي.

4–المعيار الأخلاقي: إن النبلاء و الأشراف و كبار الفلاحين و المستثمرين أكثر ميلا للهجرة ،وفي المقابل هناك فئة المنحرفين و المجرمين وهي كذلك تعتبر فئة تتجه نحو الهجرة بشكل كبير[19]، نظرا للقوانين والأعراف التي تجبرهم على الامتثال ،وهذا ما يدعوهم للبحث عن أماكن أكثر ترجمة لانحرافاتهم.

3 _دوافع الهجرة غير الشرعية ،خصائصها و تياراتها:

تعاني المجتمعات عامة إشكالات عديدة ترجع في معظمها إلى الاستعمار وما خلفه من اقتصاد هش والغالب في نشاطها الاقتصادي يقوم على الزراعة و الرعي، بالإضافة الى النزاعات العرقية و الدينية، ناهيك عن البطالة و الفقر و تدني المستوى المعيشي.

هذا و من الملاحظ أن شريحة الشباب يشكلون القطاع الأكبر من المهاجرين غير الشرعيين في العالم.

1.3. الدوافع المادية و الاقتصادية للهجرة غير الشرعية:

تسجل معدلات البطالة في المجتمعات أرقاما قياسية بالمقارنة مع عدد السكان خاصة لدى مجتمعات إفريقيا ، خصوصا في قطاع الشباب حيث نجد تقرير منظمة العمل الدولية و الصادر عام 2009 يذكر أن نسبة 13 % من الشباب الذين تتراوح سنهم ما بين 15–24 يصبحون عاطلين عن العمل بنهاية عام 2010 أي نسبة 81 مليون من الشباب عاطلين و توقع التقرير أن تواصل البطالة الارتفاع بوتيرة أبطأ في جميع مناطق إفريقيا ما عدا دول الشرق الأوسط و دول شمال إفريقيا[20]، كما أن الفقر و الأمية تساهم بشكل واسع في تفشي ظاهرة الهجرة السرية من عدة جوانب و لذا نجد الجزائر عملت جاهدة على مكافحة الأمية لان التجربة دلت أن التنمية متوقفة إلى حد بعيد على ترقية الإنسان و هذا يتأتى عن طريق التربية والتعليم والتكوين[21] في المقابل تجدر الإشارة إلى أن الهجرة السرية قد تخرج عن نطاق غير المتعلمين و الفقراء إلى نطاق الجامعيين و بعض المستفيدين من قروض في إطار تشغيل الشباب [22]، و تتم هجرتهم سرا عبر البحر.

و أحيانا لا تكون البطالة هي السبب في هجرة حملة الشهادات الجامعية بل يكمن رد ذلك الى عدم قدرة البلد على استيعاب التخصصات او تقدير الكفاءات، كما أن البطالة بوصفها عامل طرد أساسي هي ما يدفع الفرد إلى البحث عن منافذ أخرى للكسب و زيادة المداخيل.

هذا وعلى الرغم مما حققته القارة الإفريقية من رفع في مستوى معيشة الأفراد إلا أن حصة إفريقيا ممن يعيشون تحت خط الفقر مازالت هي الأكبر بحيث يقدر هؤلاء بحوالي 522 مليون ، أما في جنوب أسيا خلال عام 1998 فنجد في المقابل ما يقارب 291 مليون في إفريقيا جنوب الصحراء و 278 مليون في شرق أسيا و منطقة المحيط الهادي و في شرق إفريقيا هناك ما يقدر بنحو 17.4 مليون شخص يعانون من عدم الأمن الغذائي[23] ، و على الرغم من تحسن الوضع في إثيوبيا و السودان و برفقة هذه الدوافع أضف إلى ذلك تطلع بعض أفراد المجتمع و خاصة الشباب منهم إلى الجنة الموعودة في بلاد المهجر والمتمثلة في الأجور الضخمة و التقديرات التي يتلقاها الموهوبون حسب تقديراتهم.

2.3. الدوافع النفسية و الاجتماعية للهجرة غير الشرعية:

ترتبط الدوافع الاجتماعية بالدوافع الاقتصادية ارتباطا طرديا، فالبطالة و تدني مستويات المعيشة على الرغم من كونها عوامل اقتصادية إلا أنها ذات انعكاسات اجتماعية و نفسية سلبية في المجتمع الذي تبرز فيه، فالأفراد يتطلعون إلى الهجرة بدافع نماذج النجاح الاجتماعي أو بحثا عن الوجاهة و المكانة الاجتماعية المفقودة في بلادهم الأصلية بفعل العوز و الحاجة و يندفعون نحو الهجرة و قبول المخاطرة إلى الحد الذي يقبلون فيه أي عمل مهما كان تافها وهذا سعيا وراء تحقيق أحلامهم الشخصية، بالإضافة إلى أن فكرة الهجرة تحولت إلى عملية ضرورية لجمع مدخرات و توفير مسكن لائق و مشروع صغير لاستكمال مسيرة الحياة[24]، و بالتالي تصبح الحالة الاجتماعية و النفسية هي أحد الدوافع الهامة لدى بعض الشباب إلى الاتجاه نحو صور الهجرة غير الشرعية خاصة إن كانت مدعومة بإملاءات وسائل الإعلام و الاتصالات والانترنت المنتجة لحوافز جذب الهجرة بشكل كبير، و حينها تكون المفارقة كبيرة بين الواقع الذي يعيشه الفرد في بلده وبين ما يراه على وسائل الإعلام و احتكاكاته في مواقع الدردشة و التواصل الاجتماعي من أشكال الرفاهية في دول العالم الأول أو حتى في دول العالم الثالث التي بلغت درجة أفضل في النمو الاقتصادي، وبالتالي يتحول حلم الهجرة لدى هاته الشريحة من الشباب إلى هم أساسي و يجعل من الهجرة برنامجا من أجل المستقبل فيستحق من اجله تكبد المشاق و خوض الصعاب و المجازفة ، و لا يخفى كذلك ما أملته وسائل الإعلام الجديد المتمثلة في الانترنت و التي أخذت بعدا جديدا في ترويج فكرة الهجرة غير الشرعية ،و هذا ما أكدته مجريات المؤتمر المنعقد في مدينة لاهاي حول الهجرة غير الشرعية في شهر ماي 2011 و التي أكد الخبراء فيها على أن الشباب في بلدان البحر الأبيض المتوسط و جنوبه يعتمدون بشكل كبير على تقنيات الانترنت و مواقع التواصل الاجتماعي [25] ، و ذلك للتواصل مع نظرائهم الأوروبيين أو المهاجرين من البلد الأصلي في أوروبا بحثا عن فرص للهجرة و فهم الحواجز الأمنية و القانونية التي تفوق هجرتهم بين جنوب و شمال البحر الأبيض المتوسط .

هذا و أشار أخصائيو المؤتمر إلى أن تأثير التكنولوجيا الممثلة في شبكة الانترنت في تشكيل أفكار الشباب و انطباعاتهم حول الهجرة ،يفوق تأثير وسائل الإعلام التقليدية كالتلفزيون و الراديو والصحافة ، كما و تزداد الدوافع الثقافية و النفسية لدى الشباب في اتجاههم نحو الهجرة [26]، بسبب الدور الكبير الذي تؤديه وسائل الإعلام الحديثة و خصوصا الانترنت

هذا و للمستوى التعليمي المنخفض دور في إقبال بعض أفراد المجتمع نحو الهجرة غير الشرعية خاصة

لدى فئة غير المتعلمين كما يؤكد الواقع التاريخي و الاجتماعي أن عوامل عدة قد لعبت دورها في صيرورة ظاهرة الهجرة، فتاريخ المجتمع الجزائري بعد الاحتلال الفرنسي و كذا خلال القرن الـ 19 م و الذي عاش فيه المجتمع الجزائري جميع أنواع التقهقر الاجتماعي و الاقتصادي إلى جانب تلك القوانين الاستثنائية المسلطة عليه و فقدان حريته السياسية مع ثقل الضرائب و مصادرة الأوقاف و إدارة الشؤون الدينية والقضائية من طرف المؤسسة الإدارية الاستعمارية إضافة إلى عرقلة المجالس المحليـــة للتعليم العربي[27] كلها عوامل دعت إلى بلور ة جو الهجرة و الهجرة السرية ، إضافة إلى عمليات التهجير القسري لبعض الأفراد الجزائريين الذي مارسه في حقهم المستعمر الفرنسي انطلاقا من أول عملية تهجير لجزائريين مباشرة بعد إمضاء معاهدة الاستسلام في 5 جويلية 1830 حيث بدأت العسكرية الفرنسية بتطبيق المادتين الثالثة و الرابعة من شروط معاهدة حيث تنص الأولى على ضرورة خروج الداي حسين من الجزائر والثانية تخص عملية تهجير عناصر الانكشارية ، و قد تم ترحيل الداي حسين في 1830/07/10 على متن باخرة "جان دارك" إلى نابولي و في 1830/07/11 بدأ ترحيل أفراد الانكشارية .[28]

3.3. الدوافع الجغرافية و التاريخية للهجرة غير الشرعية:

للعوامل التاريخية و الممثلة غالبا في الاستعمار أثر كبير في توجه المجتمعات نحو البلدان المستعمرة سابقا،و للعوامل الجغرافية و التضاريس أثر كبير في زيادة معدلات الهجرة إلى الخارج ،كما أن لعامل المناخ دورا في ذلك ،خاصة في البيئة الحارة و المناطق التي تشهد الزلازل و الفيضانات حيث تشكل مناطق طرد للسكان ، كما أدت هذه العوامل إلى ترك الأفراد لأماكنهم سواء بشكل فردي أو حركات جماعية [29]، لاسيما و أن الكوارث الطبيعية تتسبب بنحو كبير في تدمير ممتلكات و مشاريع بعض الإفراد و لهذا يعدون للهجرة إلى دول خارجية من أجل الاستقرار في مكان آخر [30]، يتضمن ظروف الأمن و العمل والاستقرار ،وفي هذا الصدد يوضح تقرير اقتصادي للأمم المتحدة خلال عام 2001 أن بعد فترة 1986 ستكون هناك مناطق شاسعة في قارة إفريقيا تعاني من الجفاف و التصحر [31]، و بذلك فالعامل البيئي عامل هام في هجرة العديد من الأفراد وفرارهم من قساوة الطبيعة و غالبا ما ترجمت هذه الهجرات في شكل غير قانوني .

4.3. الدوافع السياسية للهجرة غير الشرعية:

حيث تؤدي الصراعات السياسية ، و الصراعات العرقية والحروب الأهلية civil war إلى فرار العديد من الأفراد خارج أوطانهم إلى دول مجاورة أو إلى مناطق يشيع فيها الأمن و الهدوء و السلام

الاجتماعي، وغالبا ما تكون هذه التنقلات في شكل لجوء إلى المناطق المقصودة في هجرتهم كالحال في تلك الهجرات التي تمت من أقاليم مصر و ليبيا و سوريا و التي شهدت مجتمعاتها صراعات سياسية داخلية انطلاقا من 2011 ،وسرعان ما تحولت إلى حروب أهلية ، ولهذا تأتي الحروب الأهلية على رأس قائمة الدوافع السياسية التي تؤدي للهجرة ، و الهجرة غير الشرعية ، و إذا لم يفتح لهاته الشركة الفارة من هاته الصراعات بطرق مشروعة ، فيستوجهون إلى بديل الهجرة غير الشرعية و دخول بطرق غير منظمة فالنزاعات والحروب و الاضطرابات السياسية تعتبر كذلك من العوامل المؤثرة في ظهور ما يعرف بالهجرة القسرية forced migration. ومن خلال ما ذكرناه آنفا تترجم هذه الهجرة في شكل لجوء أو نزوح، و في إفريقيا تقدر هاته الأشكال من الهجرة بنحو 25 مليون شخص منهم 10 ملايين لاجئ

و 15 مليون خارج ، هذا وتضم إفريقيا أكثر من 18 دولة تعاني نزاعات داخلية [32]، بالإضافة إلى دواع التدخل في شؤون هاته البلدان بدليل فض هذه النزاعات من طرق دول الاتحاد الأوربي و مثالها مالي خلال عام 2013 و التي شهدت صراعات داخلية دفعت بالعديد من الأفراد إلى هجرة بلدهم نحو موريتانيا و الجزائر بشكل واسع ، و سبق و أن تحدث "فيليب غونزاليس" رئيس الحكومة الإسبانية السابق عن الهجرة من إفريقيا حيث قال :لو كنت شابا إفريقيا لفررت و إن تم القبض علي فسأحاول مجددا [33].

5.3. خصائص،و تيارات الهجرة غير الشرعية:

إن وجهة المهاجرين في معظمها تكون إلى الدول الغنية و التي تتوفر على فرص عمل و ترتفع فيها الأجور مقارنة بالوضع في دولهم ، حيث اتجهت هذه الشرعية نحو أوربا ، و الولايات المتحدة الأمريكية[34]كما أن نحو نصف المهاجرين من شمال إفريقيا اتجهوا بالفعل إلى منطقة الشرق الأوسط و شمال إفريقيا حيث تشير أرقام إلى أن الدول العربية النقطية استقبلت حوالي 40 % من إجمالي المهاجرين وتتجه نسبة 10 % إلى دول أخرى كأستراليا ، كندا ...إلخ هذا من جهة و من أخرى فإن غالبية المهاجرين العرب إلى الدول الأوربية يأتون من دول المغرب العربي و تر كيا حيث تزيد هذه النسبة على 80 % وتعتبر هذه الهجرة مختلفة عن الهجرة نحو البلدان العربية بحيث أن الهجرة الأولى دائمة و الثانية مرتبطة بعقود و بالتالي مؤقتة و محدودة بفترة زمنية محددة و يعود بعدها الهاجر لالى موطنه الأصلي.

و في المقابل يقدر عدد المهاجرين نحو أوربا من شمال إفريقيا والشرق الأوسط بنحو 5.8 مليون نسمة

باستثناء اللذين لم يتم تسجيلهم ، و يعيش معظمهم في فرنسا وألمانيا بدليل أن هذين البلدين يستقبلان نحو 75 % من إجمالي مهاجري دول المنطقة العربية إلى أوربا و يتوزع بقية المهاجرين على نحو 23 دولة[35] ، أهمها هولندا و إسبانيا وإيطاليا و بلجيكا ،هذا و يواجه معظم المهاجرين نحو أوروبا صعوبات كثيرة من بينها صعوبة الاندماج و التثاقف و التماثل في المجتمع الجديد للبلد المهاجر إليه ، بالإضافة إلى ضعف مستوى التأهيل مقارنة بالمستوى السائد في أوربا ، و ما يزيد من تعقيد الأمور ظاهرة التمييز discrimination العلني و الخفي ضد المهاجرين و أبنائهم و تزايد حدة البطالة ، و مثال ذلك دولة ألمانيا التي بلغ عدد مهاجريها نحو 5 ملايين مقابل أعلى نسبة بطالة بها[36] ، في المقابل يصعب إيجاد فرص عمل لبعض المواطنين الأصليين للبلدان المهاجر إليها ، و ينظرون إلى المهاجرين كمنافسين لهم في سوق العمل ، و ذلك ما يولد حساسيات و مشاعر تساعد على شيوع أحكام مسبقة تحول دون إحداث عملية الاندماج الاجتماعي ، و التي تتطلب تقبل الآخر في المجتمع الجديد و مع تزايد أعداد المهاجرين، زادت المشكلات التي يواجهونها بسبب التفرقة و التمييز، وهذا ما دفع واضعي تقرير اللجنة الدولية إلى مطالبة الدول الغنية بوضع سياسة هجرة تضمن للمهاجرين حقوق العيش و العمل والاندماج في مجتمعاتهم الجديدة، و يعني هذا توفير فرص التعليم و التأهيل أسوة بغيرهم من الفئات الاجتماعية، كما يعني منحهم حقوق الإ قامة التي تسمح لهم بالعمل دون قيود ، بدلا من إقامة مؤقتة تحد من حريتهم ، و لا تساعد على اندماجهم في المجتمع الجديد، و يزيد كذلك من عملية دمج المهاجرين في مجتمعاتهم الجديدة و حاجة الدول الصناعية إلى اليد العاملة الشابة بسبب تراجع الولادات فيها لصالح زيادة نسبة كبار السن، وفي منظور بعيد يتوقع أن يخل هذا الأمر بالتركيبة السكانية في العديد من الدول الصناعية مما يهدد أنظمة التقاعد والضمان الاجتماعي فيها.

خـــاتـــمـــة:

إن موضوع الهجرة غير الشرعية موضوع سوسيولوجي صرف له طـــرح في المشـــهد الفكـــري والثقافي والإعلامي بالخصوص. كما أن الهجرة غير الشرعية تدل على أن المهاجر لم يمر عبر القنوات المخصصة للهجرة و لم يحترم القوانين المنظمة لها. وغادر إقليم بلده بطريقة سرية ،و في ذلك مخالفـــة القانون والانحراف عنه، أضف الى ذلك ما يترتب عن هذا الفعل من تبعات على البلـــدان المســـتقبلة المهاجر اليها أو البلدان المصدرة أي التي تمت منها عملية الهجرة غير الموثقة، ناهيـــك عـــن تبعـــات اقتصادية و اجتماعية و ثقافية ودينية، وأمنية بالخصوص. فانتشار الجريمة المنظمة والاتجـــار بالبشـــر و

المخدرات والأسلحة في الدول المهاجر إليهابسبب استغلال هؤلاء الوافدين الضعاف المحتاجين من قِبل مافيا الاتجار بالبشر، يمثّل واحداً

من الآثار السلبية التي يمكن أن تعانيها دول المهجر، كما يعانيها المهاجر نفسه، حيث يجد أنه قد قطع هذه الرحلة الصعبة في قوارب صيدية و قوارب الملاحة البحرية وما كابده من معاناة وألام ، ليجد حاله في ضياع, فيشعر باليأس والإحباط، ثم قد يلج بعد ذلك عالم الجريمة .

الهوامش :

1- أحمد الربايعية، دراسات في نظرية الهجرة، (عمان: دار الثقافة و الفنون للنشر، 1978)،06.

2- على الحوات و آخرون،" مجلة الدراسات" طرابلس: المركز العالمي للدراسات و الأبحاث، 28 (2007): 2.

3- Genève, bureau international du travail, rppt :une approche équitable pour les travailleurs migrants dans une économie mondialisée,2004.15-21.

4- على عبد الرزاق جلبي ،علم الاجتماع السكان، ط4، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية،2005)، 207.

5- dictionary.com.unabridged.april 2011 www.dictionary.refrent.com

6- عبد الله عبد الغني غانم، مرجع سابق ، 16.

7- جمال معتوق، مدخل إلى علم الاجتماع الجنائي: أهم النظريات المفسرة للجريمة و الانحراف، ج1، (الجزائر: دار بن مرابط للنشر و الطباعة، 2008)، 226.

8- جمال معتوق ، مرجع سابق، 276.

9- أحمد براح، "التغيرات الأسرية الناجمة عن هجرة رب الأسرة إلى الخارج"، (أطروحة دكتوراه، جامعة البليدة- الجزائر، 2003)، ص 37.

10 - عبد الله عبد الغني، مرجع سابق، 22.

11- بيلاربي، "الهجرة النسائية بين دول البحر المتوسط و الاتحاد الأوروبي"، يورميد للهجرة2 (2008-2011)، ص 28.

12- عبد الله عبد الغني، مرجع سابق، 19.

13 - بيلاربي، مرجع سابق، ص 27.

14- عبد الله عبد الغني غانم ، مرجع سابق، ص 34.

15- علي عبد الرزاق جلبي، مرجع سابق، 261.

16- صبحي قاسم، مشكلة الغذاء في البلدان العربية، (الأردن: مؤسسة عبد الحميد شومان، 1982)، 11.

17- علي عبد الرزاق جلبي، مرجع سابق، 264.

18- أحمد الربايعية، مرجع سابق، 61.

19- أحمد الربايعية، مرجع سابق ،62.

20- إسماعيل أدم ، "الهجرة من إفريقيا إلى إفريقيا"، الشرق الأوسط، 9 مارس 2008

21- .أحمد طالب إبراهيمي ، "من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962-1972"تر: حنيفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1972، .116

22- غياث بوثلجة، "التذمر الاجتماعي في الجزائر أسبابه و تداعياته"، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، الجزائر، 2007، 55.

23- الأزمات التي تواجه الأطفال و النساء في شرق و جنوب إفريقيا –تقرير بموقع اليونيسيف www.unicef.org/arabic

24- حمدي شعبان، الهجرة غير المشروعة :الضرورة و الحاجة،(مصر: مركز الإعلام الأمني)، 7، (بدون سنة).

25- صوت ألمانيا deutsche welle، www.dw-world.de

26- صوت ألمانيا، مرجع سابق.

27- الهادي أبو لقمة، الانفجار السكاني ، (ليبيا: منشورات جامعة السابع أبريل، 1993)، 35.

28 – إبراهيممهديد، بعض عناصر تفكير لمقاربة الهجرات الجزائرية المعاصرة مشرقيا و مغربيا ، ورقة مقدمة في ملتقى وطني حول الهجرة الجزائرية، "المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة 1 نوفمبر 1954، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 62.

29- comille rousset, « la conquête d'Alger », édition Plon, paris, 1879, pp 239-240

30- .علي وهب، الجغرافية البشرية ، (القاهرة: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر،1986)، 48.

31- صالح ربيح كردي، الأبعاد الاجتماعية و الثقافية لهجرة المصريين الريفيين لإيطاليا، (أطروحة دكتوراه ، جامعة عين شمس، مصر، 2005)، 12

32- النزاعات في إفريقيا، موقع وكالة الأنباء الكويتية، تقرير.

33- الزويريالسكناوي، الهجرة السرية بالمغرب لا يمكن عزلها عن الاحتجاج، جريدة الصحوة، 5-3-2005، ص 18.

34- عثمان الحسن محمد نور، ياسر عوض الكريم المبارك، الهجرة غير المشروعة و الجريمة ، الرياض: جامعة نايف للعلوم الأمنية، 2008)، 29.

35- عثمان الحسن محمد نور، ياسر عوض الكريم المبارك ، مرجع سابق، 30.

36 - نفس المرجع، 30.

المراجع :

1-احمد الربايعية،دراسات في نظرية الهجرة،(عمان:دار الثقافة والفنون للنشر،1978.

2-علي الحوات وأخرون ،"مجلة الدراسات" طرابلس:المركز العالمي للدراسات والابحاث،(2007)

3-علي عبد الرزاق جلبي،علم الاجتماع السكان،ط4،(الاسكندرية:دار المعرفة الجامعية،2005).

4-جمال معتوق،مدخل الى علم الاجتماع الجنائي:اهم النظريات المفسرة للجريمة والانحراف،ج1،(الجزائر:دار بن مرابط للنشر والطباعة،2008).

5-احمد براح،"التغيرات الأسرية الناجمة عن هجرة رب الاسرة الى الخارج"،(أطروحة الدكتوراه،جامعة البليدة-الجزائر،2003).

6-يلاربي،"الهجرة النسائية بين دول البحر الأبيض المتوسط والاتحاد الاوروبي"،يورميد للهجرة2(2008-2011)،ص28

7-صبحي قاسم،مشكلة الغذاء في البلدان العربية،(الأردن:مؤسسة عبد الرحمن شومان،1982)

8-اسماعيل ادم،"الهجرة من افريقيا الى افريقيا"،الشرق الأوسط،9مارس 2008.

9-احمد طالب الابراهيمي،"من تصفية الاستعمار الى الثورة الثقافية1962-1972"، تر: حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر1972.

10-غيات بوثلجة،"التذمر الاجتماعي في الجزائر أسبابه وتداعياته"،دار الغرب للنشروالتوزيع،1 (وهران،الجزائر55،2007).

11-الأزمات التي تواجه الأطفال والنساء في شرق وجنوب أفريقيا-تقرير بموقع اليونسيفwww.unicef.org/arabic

12-حمدي شعبان،الهجرة غير المشروعة:الضرورة والحاجة،(مصر:مركز الاعلام الأمني)،7 بدون سنة.

13-الهاد ابو لقمة،الانفجار السكاني،(ليبيا:منشورات جامعة السابع ابريل،1993).

14-ابراهيم مهديد،بعض عناصر تفكير لمقاربة الهجرات الجزائرية المعاصرة مشرقيا ومغربيا،ورقة مقدمة في ملتقى وطني حول الهجرة الجزائرية،"المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1نوفمبر 1954،وزارة المجاهدين،الجزائر،2007.

15-علي وهب،الجغرافية البشرية،(القاهرة:المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،1986).

16-صالح ربيح كردي،الأبعاد الاجتماعيةوالثقافية لهجرة المصريين الريفيين لايطاليا،(أطروحة دكتوراه،جامعة عين شمس،مصر،2005).

17-الزويري السنكاوي،الهجرة السرية بالمغرب لا يمكن عزلها عن الاحتجاج،جريدة الصحوة،5-3-2005،ص18.

18-عثمان الحسن محمد نور،ياسرعوض الكريم المبارك،الهجرة غير المشروعة والجريمة،الرياض:جامعة نايف للعلوم الامنية،2008)

19-dictionary.com.unabridged.april2011 www.dictinary.refrent.com

20-comille rousset,la conquete",édition plon,paris,1879.

واقع الفساد في المؤسسة العمومية الصناعية الجزائرية بين التجديد الاقتصادي و الصراع الاجتماعي

أ. آمـــال قواجليـــة

-جامعة البويرة-

الملخص : "إن وظيفتي كقرصان اقتصادي هي التنبؤ بالتأثيرات التي يحدثها توظيف مليارات الدولارات في بلد ما و العمل بعدها على افلاس ذلك البلد الذي أخذ تلك القروض واختلاق مبررات للقروض الدولية الكبيرة التي ستعيد ضخ المال إلى الشركات الأمريكية بحيث تبقى هذه البلاد مدينة لدائنيها إلى الأبد و تصبح أهدافا سهلة عندما تدعو الحاجة إلى خدمات تشمل انشاء قواعد عسكرية أو تصويت في الأمم المتحدة أو اتخاذها منفذا إلى البترول هي سياسة يزداد فيها الغني غنى والفقير فقرا و هذا يعتبر نموا اقتصاديا ,قبلت وظيفتي أنا القرصان الاقتصادي سنة 1951عندما تمردت ايران البلد الإسلامي برئيس وزراءها-محمد مصدق – على شركة بترول بريطانية .-BRITISH PETROLEUM- لجأت الى أمريكا .أمريكا التي تخوفت من اللجوء للحل العسكري و بدلا من ارسال البحرية الأمريكية "الماريتز" أرسلت على وجه السرعة عميل المخابرات المركزية الأمريكية—KERMIT .ROOZSELT الذي كسب الناس بالرشاوي والتهديدات ثم حرضهم على تنظيم الشغب في الشوارع ونجحت أمريكا و طرد –محمد مصدق- وأمريكا الآن بسيدها اسرئيل تسعى لتشكيل امبراطورية لذا قبلت وظيفة القرصان الاقتصادي.

Summary: "My job Pirate economist is predicting impacts caused by the recruitment of billions of dollars in the country and work after the bankruptcy of the country who took those loans and fabricate justifications for loans large international would pump money into U.S. companies so that the rest of this country, the city of creditors forever and become easy targets when needed services include the establishment of military bases or vote in the United Nations or take an outlet to oil is the policy of getting the rich richer and the poor poorer , and this is economic growth , accepted the job I pirate economic year in 1951 when he rebelled against Iran is a Muslim country prime ministers - Mohammed Mossadegh - the oil company British -BRITISH PETROLEUM-.resorted to America . America , which feared than resorting to a military solution and instead of sending the U.S. Navy " Marines" sent promptly CIA agent KERMIT. ROOZSELT- who earn people with bribes and threats then challenged them to organize riots in the streets and succeeded America and the expulsion - Mohammed Mossadegh - and Israel has to Bsidtha America now seeks to form an empire so accepted Pirate economic function .

مـــقـــدمـــة: عرف العالم في الالفية الأخيرة تطورا سريعا في مجالات عديدة العلمية منها والعملية والتي كانت كنتيجة حتمية للبحث العلمي الدائم في هذه المجالات. و تعتبر المرحلة الأخيرة التي اصطلح عليها بعصر العولمة والمعلوماتية المرحلة التي اختزلت العالم في قرية صغيرة و التي تلغى فيها كل الحدود الجغرافية، غير ان ما يميز هذه المرحلة عن سابقاتها ان لها ابعاد سياسية ,اقتصادية اجتماعية و ثقافية ... ذات اهداف إيجابية و سلبية، و يعتبر صانعو هذه المرحلة انها منتوج يروجون له بأساليب عديدة يختلف مدلولها منبلد متقدم لآخر و من بلد سائر في طريق النمو لآخر.

ان الأسلوب الذي تروج به هذه المرحلة كمنتوج له وظائف ظاهرة و أخرى كامنة و هذا انما يعكس ما تمخض عن الحراك الاجتماعي الذي مازال يشق طريقه بشكل من الغموض الى بداية نهضة شاملة للحريات الديمقراطية و حقوق الافراد بالإضافة الى دمج هذه المرحلة لكل العناصر المادية و البشرية ,بمعنى ان الاقتصاد ليس هدفا و انما هو بعد تتحقق فيه بقية الابعاد الأخرى باعتباره المحرك الأساسي لمجتمعات تحوي انساقا فردية و في سعي دائم لاشباع حاجياتهم من جهة و التوزيع غير العادل للخدمات من جهة أخرى، غير ان ما ينتج عن كل تلك التناقضات ان الازمة يصحبها تطور و هذا انطلاقا من سيرورة و تغيير المجتمعات باعتبارها انساقا جماعية تعكس أن الازمة تخلق التطور هذا في ظل توفر الفكر البنائي حيث ابرز المفكرون المحدثون أنه لا يمكن الإشارة او الحكم إلى أهمية مرحلة دون الأخرى، ذلك ان الانتقال يتم من نمط لآخر على اعتبار ان مرحلة الزراعة التي تعتبر البداية الأولى للبناء الاجتماعي كانت و لا تزال القاعدة الأساسية لأن معظم بلدان العالم ذات الامتياز و التي عكست الثورة الصناعية تعتبر المرحلة التي تحرر فيها الفلاحون بشكل تقدمي و مونوا اليد العاملة الصناعية التي ينبثق عنها نمط انتاجي يدخل في حلقة التطور المتسلسل الذي أوصل المجتمع الى مجتمع الصناعة بحيث كانت البداية مرحلة الإنتاج الزراعي و هي الإنتاج العائلي في شكل ورشات عائلية لتصل الى النتاج الاليكتروني، وبالتالي فرضت تغيرا في قيم هذه الأخيرة، حيث أدت الى بروز ظواهر خطيرة في المجتمعات فطمست هوية الشعوب والأفراد ومن هذه الظواهر نذكر على سبيل المثال لا الحصر ظاهرة الفساد والتي سنتعرض لها في هذه الورقة البحثية.

أولا الإشكالية :

عرفت المجتمعات مراحل متنوعة أدت إلى الانتقال من "الانتاج خارج العائلات في شكل مصانع"[1]وهذا ما يعكس التنوع الفكري الذي انبثق عن التطور العلمي و التقني، هذا الأخير الذي يعكس التجديد الاقتصادي الذي عرف اشكالا متنوعة من الصراعات كما يعتبر صورة للتنظيم الاجتماعي، وهو التنظيم الذي عرف تغييرات عميقة في طبيعة العلاقات بين الافراد و الأمم بالاضافة إلى دمج عضوي و كوني لمختلف السلوكات والقيم"[2]. إن التغيير الذي تعكسه كل مرحلة من المراحل السابقة أدى إلى تباين العمليات الاجتماعية وهاته الأخيرة التي طرحت فكرة الصراع في المجتمع لا يقتصر على جانب دون آخر من جوانب الحياة حيث نجد هذه التغييرات مهما كان الهدف الذي يبرزه مؤسسوها ذات الصلة بالجانب الاقتصادي، السياسي و الاجتماعي بحيث "يبرز القرن XXE من خلال فكر الرأسماليين الجدد الذين اجتازوا أزمات عنيفة و حروب عالمية ذلك لأن هناك باستمرار هامشا للتجديد و التجاوزات يخلق قدرة خارقة لما يتم الإشارة الى الازمة و ما اصطلح عليه بالمعجزة الاقتصادية "[3]... لا يستفيد منها كل المستعملين لها بنفس القدر ذلك أن هذه الأنظمة لها أهداف غامضة و غير واضحة و هذا ما تجسده فكرة كل من Karl Marks وHerbert Marcuse "بحيث يرفض التغيير الاجتماعي الثوري واعتبر السبب راجعا الى تلك البنى الفوقية للنظام الرأسمالي"[4]فمجتمعات ما بعد الحداثة تعتبر نتيجة حتمية لعملية التصنيع هذه الأخيرة التي سيطرت على المجتمعات بمختلف مؤسساتها وعلى وجه الخصوص المؤسسات الاقتصادية التي تعتبر المحرك الأساسي لعالم تبرز فيه ظواهر لفرض السيطرة وبشكل اعمق واكثر دقة سيطرت على ذهنيات وأفكار الأفراد ذلك أن "الثورة المعلوماتية حولت مجرى الأساليب العميقة للنظام الإنتاجي ,استبدلت عمالا والغت بعضهم واوجدت وظائف جديدة "[5] إن الحديث عن هذه التغييرات انما يعكس الأفكار السائدة في العصر الحديث و التي لا يمكننا ان نحكم عليها بالايجاب او السلب ،لانه رغم تنوع المراحل و تعدد ابعادها و اختلاف الجوانب ذات الصلة فان ما يبرز للوجود انما يعكس الخلل الوظيفي لتلك المؤسسات التي تتميز باستحداث تقنيات الإنتاج و تطوير الكفاءات و خلق برامج حديثة للتطوير و رغم التجديد الاقتصادي الذي انتج الصراع بجانبيه الإيجابي و السلبي تعرف المؤسسة اشكالا على درجة عالية من الفساد في ابنيتها ’هذا الأخير الذي يحقق في ظاهره النجاح من خلال وظائفه الظاهرة و يحمل في باطنه بذور فناء

كل السياسات الداعية للتطوير عبر وظائفه الكامنة و هي الأهداف التي سطرها مؤسسو تلك الأنظمة الهدامة للمجتمعات و هذا يتوافق مع الفكرة التي أشار اليها المفكر Thomas Freidman في فرضيته التي تضمنها كتابه **The lexus and the obeitees** "ان ما يهم هو كيف تترابط بلدك من الداخل .... و ليس سيادة دولتك "[6] وهي الأفكار الخفية التي تنادي بها المنظمة العالمية للشفافية و التي تبرز من خلالها "معنى الفساد باعتباره ليس فعل اجتماعي"[7] و انما تمنحه مفهوما يتماشى مع مصالح البلدان المتقدمة و يتعارض مع بلدان العالم الثالث ، و الجزائر باعتبارها احد أجزاء أو انساق هذه القرية الصغيرة ادمجت في اطار الحلقة الهدامة التي شكلتها الدول المتقدمة وعلى رأسها و.م.أ هذه الفكرة التي أكدها –جون بيركز– حيث أشار إلى "ان دور قراصنة الاقتصاد باعتبارهم خبراء –مسخ بلدان العالم الثالث– بوسائل تتمثل في اصطناع التقارير المالية و تزوير الانتخابات ،الرشوة ،الابتزاز ،الجنس و القتل...بالاضافة الى تشجيع زعماء العالم لاخضاعهم بسلاح الديون و افلاس بلدانهم . و تم نقل هذه الأفكار للمؤسسات لتسخير العمال بأجور العبيد"[8] إن فكرة هذا القرصان الاقتصادي تعكس وضع الجزائر و تحقيق تلك البلدان لأهدافها و من هذا المنطلق سنحاول دراسة وضعية الجزائر كبناء كلي متمثل في الدولة من خلال مؤسساتها و على وجه الخصوص المؤسسات الصناعية بحيث سنحاول الوصول إلى صورة التنظيم الاجتماعي الحقيقية من خلال واقع المؤسسة التي عرفت أشكالا متطورة للفساد ،

هذا الأخير الذي يعتبر نتيجة إيجابية لفاعلين و نتيجة سلبية لفاعلين آخرين،و كمحاولة للتعمق في الأشكال الظاهرة و الكامنة للفساد باعتباره نتيجة حتمية للعولمة سنتعرض بالدراسة لهذه الظاهرة بالتحليل و التفكيك السوسيولوجي للجوانب التي تضمنتها التساؤلات الآتية :

- كيف يتجسد واقع الفساد في المؤسسات العمومية الصناعية بين التجديد الاقتصادي و الصراع الاجتماعي؟
- هل الفساد في المؤسسة العمومية الصناعية يساوي فكرة تطور الموارد البشرية ؟
- هل الفساد في المؤسسة العمومية الصناعية يتجسد في الجانب التقني ؟

و تتفرع عن هذه التساؤلات فرضيات :

- يعكس التجديد الاقتصادي و الصراع الاجتماعي في المؤسسات العمومية الصناعية واقع الفساد.
- يعتبر الفساد في المؤسسة العمومية الصناعية معادلا لتطور الموارد البشرية .

- يتجسد الفساد في المؤسسة العمومية الصناعية في الجانب التقني .

ثانيا–تحديد المفاهيم:

تتضمن الدراسة مفاهيم مفتاحية أهمها: الفساد ، واقع الفساد،الصراع الاجتماعي ،الموارد البشرية ، التحديد الاقتصادي،الجانب التقني .

ان ما يجب توضيحه قبل التطرق لتحديد المفاهيم أن :

الصراع الاجتماعي ينتج عن التحديد الاقتصادي و تتمثل مؤشرات التحديد الاقتصادي في الجانب البشري و الجانب التقني ،بمعنى أن تأهيل الموارد البشرية و استحداث التقنيات إلى جانب مؤشرات أخرى تعكس التحديد الاقتصادي ،هذا الأخير الذي يخلق صراعا اجتماعيا بين الفاعلين الذين يستعملون تلك التقنيات المستحدثة و هذه المعادلة تصل إلى نتيجة حتمية هي واقع الفساد.

و سنتطرق إلى مفهومين أو ثلاثة لا أكثر.

1– مفهوم الفساد:

يعرف الفساد حسب * *VITO–TANZIبأنه "ذلك السلوك الذي يقوم على الانحراف عن الواجبات الرسمية المرتبطة بالمنصب العام سواء كان هذا المنصب بالانتخاب أو بالتعيين في سبيل تحقيق مصلحة شخصية أو عائلية أو ما يماثلها " [9]

هذا عن مفهوم الفساد أما اذا حاولنا تحديد مفهوم واقع الفساد اجرائيا من خلال التعريف السابق فانه يتمثل في السلوكات و الوسائل التي يتم استعمالها لتحقيق المصلحة الفردية أو الجماعية باستعمال الممتلكات العامة و الممتلكات الخاصة عن طريق عمليات سرقة أو اختلاس .

كما يمكن تعريفه بأنه ذلك التحديد الذي يتم على المستوى البشري والتقني و الذي تكون نتائجه سلبية باعتبارها خلقت خللا و لا نظام في البنية الكلية للمجتمع أو في أنساقه الفرعية المتمثلة في المؤسسات الاقتصادية – صناعية أو خدماتية .....

2- مفهوم الصراع :

يعرف --KOSERالصراع على أنه "حالة مرضية تنظيمية تطرأعلى توازن النسق الاجتماعي "[10]تلك النتيجة الحتمية لجمود البناء الاجتماعي و قلة الوسائل التنظيمية التي تمتص ذلك الصراع

ثالثا-منهج الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج التجريبي الذي ينطلق من فكرة " محاولة التحكم في جميع المتغيرات باستثناء متغير واحد ..حيث يقوم الباحث بتغييره بهدف تحديد دوره في الظاهرة المراد دراستها "[11]بالإضافة الى أن التجريب يسمح للباحث في التحكم بمتغيرات الدراسة –المتغير المستقل و التابع – هذا ويتم تحقيق ذلك بالاعتماد على "الملاحظة المنظمة بعد تعديل الظاهرة المراد دراستها ...عن طريق بعض الظروف المصطنعة "[12]غير أن ما يجدر الإشارة اليه أنه عند اجراء هذه الدراسة و الموسومة ب "واقع الفساد في المؤسسة العمومية الصناعية بين التجديد الاقتصادي و الصراع الاجتماعي " لم يتم اصطناع بعض الظروف و انما الميدان فرض تغير فيها بحيث نجد فئات تستفيد من المؤسسة في الترقية و التكوين وأخرى لا تستفيد بالإضافة الى انه توجد اقسام تم استحداث تقنياتها و أخرى لم يحصل بالإضافة الى انقسام افراد المؤسسة الى مؤسسات تحارب الفساد و أخرى تعمل على غرسه بالمؤسسة و تعميمه و على هذا الأساس تم تقسيم مجتمع البحث الى مجموعتين مجموعة ضابطة و مجموعة تجريبية على النحو التالي :

I. المجموعة الضابطة :

مجموعات محاربة للفساد

- داخل المؤسسة

- تمثلت في المحاربين للفساد و الغير مستفدين من عمليات السرقة و الاختلاس و هو السبب الذي دفعهم للاعتراف ضد الاخرين و هي المجموعة الضابطة ،و تتضمن كذلك نقابيين مطرودين من النقابة.

– خارج المؤسسة:

- مؤسسات الأمن الخاص ،مؤسسات الدرك و مؤسسات الأمن الوطني .

– مؤسسة القضاء – محكمة بئر مراد رايس بالعاصمة –

II. المجموعة التجريبية:

مجموعات الفساد داخل المؤسسة

– المجموعة الاولى تمثلت في المتسببين في الفساد وهم على التوالي :

* المخططون للفساد

– إطارات المؤسسة :الرئيس المدير العام ،مدير الوحدة ، المدير المكلف بالعلاقات الخارجية و القانونية ، رؤساء الأقسام ،مهندسين.

– النقابة

* المنفذون للفساد

– العمال البسطاء في المؤسسة :رؤساء المصالح ،رؤساء الربع ،رؤساء الرصيف،

– الافراد غير العاملين بالمؤسسة و المكلفة بالتحميل

– محل للبيع تابع للمكلف بالعلاقات الخارجية يسير من طرف معاق.

- **مجموعات الفساد خارج المؤسسة :**
- مافيا السوق السوداء وهم الأفراد الذين يستعملون أطرافا لبيع الاسمنت التي حصلوا عليها بطريقة غير قانونية و الافراد الذين يبيعون رخص بيع الاسمنت و الاسمنت.
- افراد من مؤسسات الأمن و الدرك.

رابعا– تقنيات الدراسة:

تم الاعتماد على التقنيات التالية :

1- الملاحظة:

باستخدام شبكة الملاحظة و تمت داخل محيط المؤسسة و ذلك بالتواجد في أماكن آمنة اختارها المكلف بالتكوين و بعض المبحوثين و ذلك في الأزمنة التي يتم فيها رمي أكياس الاسمنت و تمزيقها عمدا بالضافة إلى تبادل الأموال أثناء بيع رخص الاسمنت بالداخل و أثناء اخراج قطع غيار المؤسسة و كذا ملاحظة أولئك الفاعلين أثناء اجتماعاتهم السرية التي تتم في أماكن مختفية عن المؤسسة و قد تم الحصول على صور لحركات الفاعلين في الفساد، هذا وقد تمت الملاحظة خارج محيط المؤسسة و ذلك بالتواجد في مطعم المؤسسة الواقع مقابل المؤسسة و تدوم مدة الملاحظة 45 دقيقة في اليوم و كذا الملاحظة بمحاذاة موقف الحافلة الواقع على بعد 3 أمتار من المؤسسة و ملاحظة زائري محل أو كشك البيع الغير شرعي لسندات بيع الاسمنت و كذا الأطراف الذين يتم منحهم أكياس الاسمنت التي يتم تمزيقها عن عمد و التي تتمركز خارج محيط الموسسة و مسؤول النقابة الذي يتبادل رخص بيع الاسمنت بفترات تعادل أربعة أيام داخل سيارته ،بالإضافة الى ملاحظة الحضور الدائم لأفراد من الدرك.

2- الاستبيان بالمقابلة :

يعتبر الاستبيان بالمقابلة من التقنيات التي تسمح لنا بالحصول على أكبر قدر من المعطيات حول ظاهرة الدراسة و قد تم استخدام هذه التقنية بتصميم استبيان تضمن 80 سؤالا مفتوحا، بحيث دامت المقابلة مع المبحوث الواحد ثلاث ساعات و ما ساعد في توفر هذا الزمن و عدم عرقلة المبحوثين عن عملهم هو أن المؤسسة تتبع أسلوب العمل (8 /3) والمقصود بذلك العمل بمجموعات المجموعة الأولى تعمل من الساعة (8:00إلى 16:00) ،المجموعة الثانية تعمل من الساعة(16:00إلى 23:00) المجموعة الثالثة تعمل من الساعة (23:00إلى 08:00) .

و تضمن الاستبيان أربعة محاور و كل محور يحوي 20سؤالا مفتوحا على النحو التالي :

- المحور الأول تضمن الفساد في الجانب البشري.
- المحور الثاني تضمن الفساد في الجانب التقني، القانوني و المالي.
- المحور الثالث تضمن الفساد الصادر من البيئة الخارجية .
- المحور الرابع وسائل مكافحة الفساد .

و قد تم اجراء المقابلات مع المسؤول الأول للمؤسسة و الإطارات التابعة له بالإضافة الى اطراف من النقابيين المساهمين و الغير مساهمين في عملية الفساد بالاضافة الى عمال من كل الفئات المهنية ،بالإضافة الى مقابلات مع أعوان من الدرك و الامن و افراد من السوق السوداء.

3- تحليل المحتوى :

استعملت تقنية تحليل المحتوى كتقنية مدعمة للتقنية الأولى و قد استعملت في حالتين الحالة الأولى كتقنية مدعمة لتحليل المقابلات التي تم اجرائها.

كما استعملت في تحليل محتوى قضايا مؤسسة القضاء –محكمة بئر مراد رايس- التي تم فيها مقاضاة الأفراد المنتمين للمؤسسة و المساهمين في الفساد البشري و التقني المتضمن قضايا الاختلاس و النصب ، بالإضافة إلى تحليل وثائق خاصة بالمؤسسة حول الافراد الذي تمت محاكمتهم في قضايا الاختلاس و النصب .

خامسا- العينة:

أجريت الدراسة في مؤسسة الاسمنت –رايس حميدو- و التي تضم وحدة الجبس بالمدية تغطي 31 مستخدما و كذا المؤسسة الأم -SIEGE-تضم 13 مستخدما ،وهي تنتمي إلى تكتل الشمال في قطاع الاسمنت و قد تم اجراء الدراسة كما سبق الإشارة في مؤسسة الاسمنت –رايس حميدو- باعتبارها مجتمع بحثنا فهي تتضمن 455 تتوزع بين ثمانية أقسام على النحو التالي:

- ✓ قسم الصيانة يتضمن سبعة مصالح و يمثل العدد الإجمالي في هذا القسم 144 مستخدم أي بنسبة 31.64 . %
- ✓ قسم الموارد البشرية يضم هذا القسم مصلحتين وعدد المستخدمين الإجمالي 41 بنسبة 9.01 %
- ✓ قسم المحاسبة و المالية يضم مصلحة واحدة عدد المستخدمين الإجمالي 13 بنسبة 2.85 %
- ✓ قسم التموين و تسيير المخزونات و يضم مصلحتين- عدد المستخدمين الاجمالي 15 بنسبة 3.29 %

- ✓ قسم الوقاية و الأمن و يضم مصلحتين و قد تم إعادة توزيع هذا القسم على الأقسام الأخرى و العدد الإجمالي للمستخدمين 21 بنسبة 4.61 %
- ✓ القسم التجاري يضم مصلحة واحدة العدد الإجمالي للمستخدمين 15 بنسبة 3.29 %
- ✓ المحجر يضم ثلاثة مصالح العدد الإجمالي للمستخدمين 74 بنسبة 16.26 %
- ✓ قسم الإنتاج يضم أربعة مصالح و يمثل العدد الإجمالي للمبحوثين 162 مستخدم بنسبة 35.6%.

و قد تم الاختيار باستعمال عينة قصدية مقدرة ب154 مبحوث من الافراد بمختلف فئاتهم المهنيةبالاضافة الرئيس المدير العام و ثلاثة إطارات و هم مدير الوحدة ،مدير الموارد البشرية و نائب مدير الموارد البشريةو عينة عرضية تتضمن 5 افراد من المتواجدين خارج محيط المؤسسة و 10 افراد من الدرك و الامن الوطني

خصائص العينة :

جدول رقم (01) : يوضح توزيع فئات السن .

فئات السن	التكرار	النسبة %
25-20	04	2.36
30-25	23	13.60
35-30	24	14.20
40-35	51	30.17
45-40	30	17.75
50-45	15	8.87
55-50	14	8.28
أكثر من 55	08	4.73

يوضح الجدول أعلاه توزيع فئات المؤسسة المستخدمة داخل المؤسسة و خارجها و هي الفئات المساهمة و الغير مساهمة في الفساد سواء الفساد البشري أو الفساد التقني ، و قد تم تقسيم الفئات بطول فئة مساوي ل 5 وفق ما تمليه أهمية متغير السن للموضوع .

و تعكس أعلى نسبة 30.17 % فئة 35- 40 ،تليها نسب متقاربة بين 13 % إلى 17 % للفئات 25-30 و 40-45 أما أصغر نسبة فتعكس 2.36 % فئة 20-25 .

يتضح من خلال النسب الإحصائية أن العينة الممثلة لمجتمع البحث تتضمن فئات متنوعة ، و هذه النسب تؤكد إجابات المبحوثين الذين أشارو إلى توقف عملية التوظيف في المؤسسة و هذا ما ستوضحه الجداول الملحقة في الدراسة أن هذا المؤشر يندرج ضمن الفساد على مستوى الفاعلين أو ما يصطلح عليه بالمورد البشري.

جدول رقم (02) : يوضح المستوى التعليمي على مستوى القسم و المصلحة و فاعلي البيئة الخارجية

القسم و المصلحة		المستوى التعليمي											
		جامعي		ثانوي		متوسط		ابتدائي		أمي		مستوى آخر	
		تكرار		تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%
المحجر	المحجر	1	0.22	5	1.11	7	1.55	3	0.66	1	0.22	13	2.88
الصيانة	الميكانيك	/	/	5	1.11	7	1.55	2	0.44	/	/	11	2.44
	آلية	4	0.88	2	0.44	/	/	/	/	/	/	/	/
	كهرباء	1	0.22	4	0.88	/	/	/	/	/	/	3	0.66
	المكتب التقني المركزي	/	/	3	0.66	/	/	/	/	/	/	15	3.33

الموارد البشرية	الوسائل العامة	1	0.22	1	0.22	3	0.22	1	0.66	1	0.22	2	0.44	6	1.33
	الشؤون الاجتماعية	/	/	/	/	/	/	/	/	/	/	1	/	1	0.22
	المستخدمين	1	0.22	2	0.44	/	/	/	/	/	/	/	/	/	/
الانتاج	مراقبة النوعية	2	0.44	1	0.22	2	0.44	/	/	/	/	1	/	1	0.22
	الارسال	/	/	3	0.66	1	0.22	2	0.44	2	0.44	1	0.44	1	0.22
	التصنيع	2	0.44	18	4	4	0.88	/	/	5	1.11	1	0.22		
	الصيانة العامة	1	0.22	1	0.22	/	/	/	/	/	/	/	/	/	/
الخاسبة و المالة	الخاسبة و المالية	2	0.44	3	0.66	/	/	/	/	/	/	2	0.44		
تسيير المخزونات	تسيير المخزونات	1	0.22	1	0.22	/	/	/	/	/	/	2	0.44		
القسم التجاري	القسم التجاري	/	/	1	0.22	/	/	/	/	/	/	/	/		
باعلي البيئة الخارجية	باعلي البيئة الخارجية	5	1.11	/	/	/	/	/	/	/	/	10	2.22		
المجموع	$\sum$	21	4.63	50	11.1	24	5.33	8	1.77	10	2.22	52	12.4		

يوضح الجدول أعلاه المستوى التعليمي على مستوى القسم و المصلحة و فاعلي البيئة الخارجية و تعكس أعلى نسبة 12.4%ذوي مستويات أخرى منها مستوى رابعة متوسط و مستوى تكوين مهني و تكوينات أخرىبالإضافة الى تكوينات عسكرية خاصة بفاعلي البيئة الخارجيةفي حين تعكس أقل نسبة 1.77% مستوى أمي .

من خلال النسب الموضحة و حسب إجابات المبحوثين فان المستوى التعليمي غير ضروري في المؤسسة و ذلك يرتبط بتقنيات العمل القديمة فهي تقنيات تسير بالخبرة البسيطة التي يتم اكتسابها بالمداومة ،خاصة أن التوظيف كان يتم دون اشتراط المستوى التعليمي خاصة في فترة الثمانينات كما سيتم توضيحه في الجدول رقم -3-

إن توزيع المستوى التعليمي لا يخضع في الواقع لأي أساس و هذا انطلاقا من فكرة عدم مراعاة المستوى التعليمي باعتبارها لا تتوافق مع طبيعة العمل و هذا انما يندرج ضمن الاندماج التقليدي الذي يتطلبه التنظيم الداخلي و الخارجي للعمل ،الداخلي يتجسد في النظام الداخلي للنسق و الخارجي يتجسد في القوانين التي يضعها البناء الفوقي و المتمثل في الوظيف العمومي.

هذا و تتضمن الدراسة خصائص أخرى للعينة تتمثل في الحالة المدنية ،الجنس ،الأصل الجغرافي لم يتم عرضها تجنبا للاطالة.

سادسا–الدراسات السابقة :

تم الاعتماد على عدة دراسات أجنبية ،عربية و جزائرية و قد تم ادراج دراسة أجنبية كنموذج ،غير أن ما يجب التأكيد عليه هو أن اختيار الدراسات السابقة تم و فق ما يتماشى مع المقاربة النظرية و التي تتمثل في "البنائية الوظيفية – لبارسونز" و بعض الأفكار من نظرية " الصراع – لكارل ماركس و دارندورف " هذا التماشي الذي يتمثل في تبني مقاربات تنتقل من الكل إلى الجزء أي من البناء إلى النسق .

الدراسات الأجنبية :

و هي دراسة أو مسح تم اجراؤه من طرف البنك الدولي "[13]تناول 3600 منشأة في 69 دولة من العالم سنة 1997 – مع اشتراط ذكر اسم الدولة لاعطاء محتوى الدراسة و قد اتجه الباحثون خلالها إلى استناد بيانات واقعية من السجلات القضائية في المحاكم التي تختص بالفساد خاصة داخل المؤسسات و التي ارتكبها الموظفون الحكوميون خلال 1992 و 1996 و صنفت الجرائم إلى ثلاث فئات : سرقة أموال عينية ،سرقة أموال نقدية و رشوة و شملت عينة الدراسة لأحد البلدان كنموذج 112 حالة جريمة أدين أصحابها فعلا في المحاكم و ذلك بنسبة76.78%سرقة أموال عينية ،و 12.49 % سرقة أموال نقدية و 10.71% رشوة ،و قد انقسم الباحثون إلى ثلاثة أقسام :الأول يؤكد أنصاره دور المنظمة و البيئة المحيطة في الحث على ارتكاب الأفعال الغير قانونية ،في حين يؤكد أنصار الرأي الثاني دور العاملين في ارتكاب نفس الأفعال أي الأفعال غير القانونية ،لينتج عن ذلك قسم ثالث يوفق بين الرأيين هذا الرأي الذي يشترط الوظائف الظاهرة للمؤسسات باعتبارها الكيان الكلي و كذا أدوار الأفراد باعتبارهم فاعلين في هذا البناء أي المؤسسة و تؤكد كذلك بعض الأفكار أن " الطبقة العاملة تختفي باختفاء الهدف التنظيمي و بالتالي تنعدم الامكانية و الاستراتيجية للإنتاج "[14]و كل هذه الآراء انما تؤكد أن الأنساق التنظيمية فقدت أدوارها و بالتالي أحدثت خللا وظيفيا في المجتمع باعتباره البناء الكلي .

يوضح الجدول رقم -3- الفساد في طريقة التوظيف و تعكس أعلى نسبة 16.4 % توظيف عن طريق توارث المنصب من الوالد ،في حين تعكس أقل نسبة 1.55 %و 1.77% تعيين من طرف الرئيس المدير العام و تعيين بعد عمل موسمي .

من خلال النسب الموضحة في الجدول نجد أن طرق التوظيف لا تتوافق مع الشروط القانونية أي لا تتوافق مع النظام الرسمي – قوانين الوظيف العمومي – و اذا انطلقنا من إجابات المبحوثين نجد تعيينات تتم من طرف النقابة حيث تحولت النقابة إلى فاعل يتمتع بالسلطة الغير قانونية بحيث تلعب أدوارا في عملية التوظيف و ذلك عبر كل الأقسام ،و على هذا الأساس فان التنظيم و التسيير لا يخضع للتغيير بالرغم من استحداث تقنيات الإنتاج و هذا ما طرح فكرة الصراع بين مختلف الفاعلين في المؤسسة كبناء كلي.

يوضح الجدول رقم -4- نمط من أنماط الفساد على المستوى البشري ،و الذي يظهر في مؤشر الفساد في طريقة العمل و تعكس أعلى نسبة 33.3 %العمل مع PDGو الرؤساء الغير مباشرين و الأطراف الخارجية أين يفرض على PDGسياسة خاصة، في حين تعكس أقل نسبة 5.1 % طريقة عمل تفرض تسيير من طرف النقابة .

إن طريقة العمل التي تظهرها نتائج الجدول أعلاه هي نتيجة حتمية للتسيير البيروقراطي السلبي فهذا النمط ابرز أشكالا حديثة للصراعات نتجت عن تشكل طبقات مهنية عديدة و هذا ما يؤكده – –MICHEL CROZIERالذي أشار إلى "ظهور التحام للظاهرة البيروقراطية على أنها تنظيم غير رسمي ..بنمط مفصل للمهام و المناصب التنظيمية و المركزية " [15] و حسب بعض المبحوثين فإن طريقة العمل تخضع لذهنيات كل مستخدم حول العمل أو تقنياته فالتقنيات تتعرض للسرقة و المواد المستعملة في انتاج الاسمنت يتم مزجها مع التراب عند القيام بالتفجير في المحجر و هذا الذي ينتج نوعية ذات ودة رديئة من الاسمنت .....

ان التنظيم و التسيير المزدوج الغير عقلاني يخلق طريقة عمل غير منظمة .....و ما تم ملاحظته من خلال الجدول هو التقسيمات التي تعرفها البنية الكلية المتمثلة في المؤسسة و التي تنعكس في الانساق الفرعية الأخرى التي تتمثل في المصالح التابعة لها فعلى مستوى النسق الجزئي نجد فئات عمالية متصارعة بهدف مكافحة الفساد الداخلي و فئات مقابلة – فئة العلاقات العائلية التي تحكمها الجهوية مندمجة على شكل عضو مع النقابة تبني الفساد و تكرسه ،هذا الأخير الذي أصبح آفة متفشية خاصة في القطاع العام .

يوضح الجدول -5-الفساد في صيانة تقنيات المؤسسة على مستوى القسم و المصلحة،و تعكس أعلى نسبة 21.61 % صيانة تقنيات المؤسسة في البيئة الداخلية ،في حين تعكس أقل نسبة 5.3 و 6.8 على التوالي صيانة التقنيات داخل المؤسسة أي في البيئة الداخلية و صيانتها خارج المؤسسة أي في البيئة الخارجية أي بمنازل بيع قطع تلك التقنيات .

كما أن الحديث عن الصيانة الداخلية و التي تتم بمركز-**SMIF**– يدل على ان الفساد في الجانب التقني و الذي يبرز من خلال الاعتماد على صيانة التقنيات في المركز السابق ذكره يتمثل في أن

هذا المركز تم انشاؤه من طرف إطارات المؤسسة الأم بهدف صيانة تقنيات المؤسسة داخل الوطن و ليس خارج محيطها ،كما تفتقر المؤسسة لكفاءات لها قدرة على الصيانة مقابل الأجر الشهري فقط أي في اطار المهام الرسمية عكس المستخدم الذي ينتمي الى المركز السابق الذكر فهو يتقاضى مقابل مضاعف ثلاثة مرات عن أجر مستخدم المؤسسة ،هذا المقابل الذي تعتبر ميزانية المؤسسة الممول الغير رسمي له بحيث يتم اختلاس أموال المؤسسة لتوجه إلى المركز السابق الذكر و هذه تعتبر احدى نماذج الفساد التي يفرضها صراع المصالح الصراع بمعناه الهدام لا البناء.

قائمة المراجع باللغة العربية:

1. بدر أحمد ،**أصول البحث العلمي و مناهجه** ،الكويت :وكالة المطبوعات ،1977،ص 275.
2. بوحوش عمار، **مناهج البحث العلمي و طرق اعداد البحوث** ،ديوان المطبوعات الجامعية،ط6، 2009.
3. بوزيدة عبد الرحمان .بوعبد الله حسان .**من اجل مجتمع مدني عالمي متحرر و متضامن** جريدة الخبر .السنة 2 ' العدد 335 '1991.
4. جون بركنز ،**الاغتيال الاقتصادي للأمم ،اعترافات قرصان اقتصاد** ،ترجمة محمد الطناني الهيئة المصرية العامة للكتاب ،2012.
5. جوزيف .س ناي و د دوناهيو ،**الحكم في عالم يتجه نحو العولمة** .تعريب محمد شريف ، الطرح مكتبة العبيكان ،2002.
6. جوناثان تيرنر ،**بناء نظرية علم الاجتماع** ،ت .محمد سعيد فرح ،منشأة المعارف ،الإسكندرية 1998 .
7. داغر محمد منقذ ،**علاقة الفساد الإداري بالخصائص الفردية و التنظيمية لموظفي الحكومة و منظماتها ،دراسة حالة لدول عربي** ،مركز الامارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية الطبعة الأولى ،أبو ظبي ،2001 .
8. عبدو مصطفى و ع. بن مرزوق ،**معضلة الفساد في الجزائر دراسة في الجذور و الأسباب و الحلول** ،دار النشر جيتلي ،2009 .

قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

1.Albert TINGBE AZALOU "Matériaux pour une approche sociologique de la corruption"REVUE DU CENTRE NATIONAL DE LINGUISTIQUE APPLIQUEE (CENALA)، ANNEE 2009 .

2.-Amphihearte(Renaud.Saisanben) **Sociologie de l'entreprise organisation culture et développement** 2eme Edition revue et mise a jour presses de science politique et Dalloz ,1997 .

3.-Bouzida(Abderrahmane) ,**Leprojet social algerienne-genese et évolution** ,office publication universitaire ,1999 .

4. OFFICE(Michel), **sociologies des groupes.d'intérêt**,Montechrétien, Paris .

5.Rioux(Jean-Pierre) **,La révolution industrielle 1780-1880** , Paris, Edition du seuil,1971.

6. -Service et technique de l'information et de la communication, premier ministre ,**La France dans la société de l'information du gouvernement** documentaire français ;Paris,1999.

7.Schean(Jean-louis) ,**L'esprit d'entreprise aspect managériaux dans le mondefrancophone**,brunopnson britishLibrary ,Edition John ,France .

الـهـوامـش :

1- Bouzida(Abderrahmane) ,**Le projet social algerienne-genese et evolution** ,offic publication universitaire ,1999 ,P16

2- بوزيدة عبد الرحمان .بوعبد الله حسان .**من اجل مجتمع مدني عالمي متحرر و متضامن** 'جريدة الخبر .السنة 2 ' العدد 335 '1991'ص 8.

3- Rioux(Jean-Pierre) ,**La révolution industrielle 1780-1880** , Paris, Edition du seuil,1971,P12

4-Amphihearte(Renaud Saisanben) **Sociologie de l'entreprise ,organisation culture et developement** 2eme edition revue et mise a jour presses de science politique et dalloz ,1997 ,P38.

5--Service et technique de l.information et de la communication,premiermenistre ,**La France dans la societe de l ;information du gouvernement documentaire** français ;Paris,1999,P7.

6- جوزيف .س ناي و د دوناهيو ،**الحكم في عالم يتجه نحو العولمة** .تعريب محمد شريف ، الطرح مكتبة العبيكان ،2002،ص 198.

7-Albert TINGBE AZALOU**"Matériaux pour une approche sociologique de la corruption "**REVUE DU CENTRE NATIONAL DE LINGUISTIQUE APPLIQUEE (CENALA), ANNEE 2009 ,p110.

8- جون بركنز ،**الاغتيال الاقتصادي للأمم ،اعترافات قرصان اقتصاد** ،ترجمة محمد الطناني ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،2012، ص .12.

9 -مصطفى عبدو و ع. بن مرزوق ،**معضلة الفساد في الجزائر دراسة في الجذور و الأسباب و الحلول** ،دار النشر جيتلي ،2009 ، ص27.

10- جوناثان تيرنر ،**بناء نظرية علم الاجتماع** ،ت .محمد سعيد فرح ،منشأة المعارف ،الإسكندرية 1998 ،ص 144 .

11- أحمد بدر ،**أصول البحث العلمي و مناهجه** ،الكويت :وكالة المطبوعات ،1977،ص 275.

12-عمار بوحوش،**مناهج البحث العلمي و طرق اعداد البحوث** ،ديوان المطبوعات الجامعية،ط6، 2009،ص 119.

13- داغر محمد منقذ ،**علاقة الفساد الإداري بالخصائص الفردية و التنظيمية لموظفي الحكومة و منظماتها ،دراسة حالة لدول عربي** ،مركز الامارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية ،الطبعة الأولى ،أبو ظبي ،2001 ،ص 17.

14-OFFICE(Michel) ,**sociologies des groupes d'intérêt** ,Monte chrétien,Paris ,P59.

15 -Sche an(Jean-louis) ,**L'esprit d'entreprise aspect managériaux dans le monde francophone** ,brunopnson british Library ,Edition john ,France ,P

المتاحف الجزائرية بين ثقافة الاستهلاك وتذبذب الزوار

أ. حـــاج كـــولة عنية

- جامعة برج بوعريريج -

ملخص : نحاول في هذه الدراسة الموسومة المتاحف الجزائرية بين ثقافة الاستهلاك وتذبذب الزوار معالجة ظاهرة الاستهلاك المظهري والكشف عن الخصائص الاجتماعية والثقافية لزوار المتحف بالرغم من تذبذب عدد الزوار المقبلين على المتحف حيث نسعى في هذه الدراسة معالجة الجوانب السسيولوجية المتمثلة في مجمل الخصائص الاجتماعية والثقافية والجغرافية المتعلقة بالجمهور المتردد على المتحف بالإضافة الى هذه الجوانب ، يعتبر هذا الاخير مؤسسة ثقافية تعمل على صيانة التحف وعرضها للجمهور العريض قصد التعليم والترفيه والتثقيف بحيث يسعى القائمين على المتحف استقطاب الجمهور العريض غير ان كل الجهود والمبادرات التي يقوم بها الفاعلين يبقى عدد الزوار المقبلين على المتحف الجزائري محدودا مقارنة بالمتاحف الاوروبية.

Résumé : Le musée est une institution crée pour mettre le patrimoine culturel à la disposition du public ,a vrai dire le souci du visiteur est resté très ;longtemps au second plan ; les conservateurs de musée se contentaient trop souvent de « laisser voir »les objets ,en particulier les œuvres d'art sans aucune démarche particulier pour les montrer ,les présenter , pour aller vers le public ;car la consommation du musée exige des parcours de visites et distingue des visiteurs déférant dans leur consommation et dans cette étude en va traiter les caractéristiques social et culturel des visiteurs et la consommation ostentatoire dans le musée algérien .

مـــقـــدمـــة :

يعتبر المتحف في عصرنا الحاضر من المظاهر الحضارية في مدن العالم، فهو بمثابة معهد علم، ومركز ثقافة وهو المجال المناسب للإسهام في التعرف على تراثنا الحضاري وممتلكاتنـــا الثقافيـــة، وتنمية الحس والذوق الفني والجمالي لدى كافة الفئات الاجتماعية، وهـــذه المؤسســـة الثقافيـــة تجاوزت الفكرة القديمة التي كانت تصنفها أنها مكان أو مخزن تودع فيه التحف والأشياء الثمينة خوفا من ضياعها، فقد أصبحت هذه الأخيرة تساهم بقسط كبير ووافر في تطوير الفكر البشري للمجتمعات، ويظهر دورها جليا من خلال إبراز ما خلدته الحضارات وتقديمها إلى أكبر عدد من الجمهور حتى يتعرف على ما فيه من ممارسات ثقافية وفنية وتاريخية

1- الاشكالية:

المتحف فضاء عمومي خاضع لتوجيهات الدولة ولقرارات تنظيمية دولية يقوم بممارسات ثقافية موجهة لفئات اجتماعية تتردد على هذه الفضاءات وعليه فالمتحف يقوم بإنتاج وتوجيه قيم ومعايير تتخلل هذه العروض، والمادة التي يقدمها للمستهلكين تعتبر بمثابة حقل ثقافي موجه على شكل أفعال ثقافية كالحفظ، الترميم، الصيانة والبحث وتشتمل على إستراتيجية موجهة من قبل فاعلين في المؤسسة لفئات مستهلكة تحمل خصائص ثقافية واجتماعية متمايزة .

فالفئات الاجتماعية التي تتردد على المتحف لها أساليب حياة اجتماعية معينة تمارسها من بينها ، الرياضة، القراءة، اللباس للتميز عن بقية الفئات الاجتماعية الأخرى وبزيارتها للمتحف في اطار زيارات فردية أو جماعية تحاول أن تخلق نماذج في زيارتها استنادا على استعدادات فطرية تتجسد عبر مؤسسات التنشئة الاجتماعية كالأسرة ،المدرسة ،جماعة الحي ، مع العلم أن هذه الأساليب تتمظهر من خلال الذوق حيث يحدده "**BourdieuPierre**" أنه مجموع الممارسات والميزات أو ممتلكات الفرد أو الجماعة التي تعتبر نتاج اللقاء بين الثروات والذوق"[1]، أما في كتابه "**La distinction**" يشير **Bourdieu** إلى التميز "أنه أحد أساليب الحياة التي يتوزع فيها الرأسمال الاقتصادي و الرأسمال الثقافي بين الأجزاء يعرض بنيات متناسقة ويعكس مختلف البنيات التراتبية هي مع المسار الاجتماعي"[2]، وقد أشار **Bourdieu** في دراسة أجراها حول الاقبال على المتاحف أن زيارة المتحف هي من أساليب الحياة الاجتماعية ونجدها تتمظهر لدى بعض الفئات الاجتماعية المتميزة خاصة في الدول الغربية حيث نجد بعض الفئات من عادتها التردد على المتاحف[3]، وارتبط التردد على المتحف حسب الدراسة التي أجراها بالعوامل الثقافية أي الرأسمال الثقافي ،غير أن الواقع الاجتماعي في البلدان العربية وبالخصوص الجزائر يعكس منطلقات ثقافية خاصة اتجاه استهلاك المؤسسات الثقافية والاقبال عليها ما يعكس خصوصية المجتمع وذهنية الفرد الجزائري والتصورات التي يحملها اتجاه المتحف كمؤسسة ثقافية، غير انه نجد بعض الفئات تتردد على المتحف في شكل زيارات فردية أو جماعية كأفواج المدارس والجمعيات والطلاب الجامعيين والوفود الرسمية ما يعطي صورة لاستهلاك ثقافي وفني .

فهل هذا الاستهلاك يمكن أن يقرأ على أنه استهلاك مظهري؟ فنجد "فبلن ثورستاين" طبق مفهوم الاستهلاك المظهري حول الظواهر الاقتصادية حين يمارس أبناء الطبقة الغنية الإسراف

في استهلاك السلع والبضائع والملابس والأثاث المنزلي والمأكولات والمشروبات لكي تعرض درجة غناها بهذا المجتمع[4]، غير ان المعالجة السسيولوجية للاستهلاك المظهري في المتحف يمكن قراءتها في اشكال الزيارة ومسارات التميز كأسلوب استعراض اجتماعي وثقافي،لخلق اختلاف عن الفئات الاجتماعية الاخرى، وقد وضح **Bourdieu** فكرة مهمة حول جمهور المتحف ليبين حقيقة رواد المتاحف في قوله: "المتاحف تخدع أبسط التفاصيل الشكلية في تنظيمها وفي وظيفتها الحقيقية وهي تعمق لدى البعض الشعور بالانتماء ولدى البعض الآخر الشعور بالاستبعاد [5].

وعلى هذا الأساس يمكن طرح هذه التساؤلات:

– ماهي الخصائص الاجتماعية والثقافية لزوار المتحف ؟ وهل هامش الحرية للزوار المستمدة من الرأسمال الثقافي والاقتصادي يحدد الممارسة الثقافية ويعطي دلالة للاستهلاك المظهري؟

2–الفرضيات:

- يختلف جمهور المتحف حسب خصائصه الاجتماعية والثقافية
- الحرية الهامشية للزوار المستمدة من الرأسمال الثقافي والاقتصادي تحدد الممارسة الثقافية وتعطي دلالة للاستهلاكالمظهري .

3– تحديد المفاهيم:

- **المتحف**: كلمة يونانية ولها ارتباط وثيق بكلمة musa التي تعني سيد الجبل أو امرأة جبلية وربما كان(الميوزيومmouseion) هو المكان المرتبط بأرباب الحكمة الشقيقات التسع اللواتي يرعين الغناء والشعر والفنون والعلوم وهن آلهات الراعيات للفن ،و القصور[6] .

ويعرف أيضا أنه «مؤسسة دائمة التطور او هو آلية ثقافية في خدمة المجتمع الحضري وتنميته تكون مفتوحة للجمهور مهمتها التنسق والاقتناء والحفظ والبحث والاتصال ،وتقديم العروض لاغراض الدراسة والتعليم وتحقيق المصالح بين المجتمعات وتوفير المتعة وهو الدليل الملموس وغير الملموس المتحرك وغير المتحرك لتباين الشعوب وبيئاتهم"[7].

والمتحف مؤسسة دائمة ،لاتهدف لربح التجاري ،في خدمة المجتمع وتطوره ، وهومفتوح للجمهور ويقوم ببحوث تتعلق بالشواهد المادية للانسان وبيئته ، ويحفظ ويعرض هذه التحف بهدف التربية والترفيه"[8]

وعليه المتحف مؤسسة دائمة ليس هدفها الكسب المادي وانما التعليم والترفيه، وتفتح هذه المؤسسة ابوابها للجمهور، حسب برنامج معين لكي يشاهدوا المعروضات، كما تقوم هذه المؤسسة بأبحاث حول التحف القيمة الموجودة بالمتحف.

- **الجمهور**: ارتبط هذا المصطلح في القرن 17و18 بفكرة مجموعة من الناس هم مستهلكو فعل اتصالي من نوع ما وعليه فالجمهور هم أولئك الحاضرين ،جسديا وجمعيا ،في المكان نفسه ،كمخاطبين تتوجه اليهم الموعظة أو الكلمة أو الانتاج المسرحي واتسع المفهوم في القرن19، ليشمل قراء الكتاب ،ومن تم مستهلكي صور الاتصال الاخرى [9].

ويطلق عليهم مجموعة الافراد الذين يترددون على فضاءات ثقافية ويشكلون نخبة اتصالية يجمعهم حقل ثقافي أين يتمظهرون كجمهور قار ومستهلك لفضاء المتحف تتحكم فيه عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية .

- **الزوار**: هم مجموعةالافراد المترددون على المتحف وتنقسم الى:

الجمهور العام ،الجمهور المدرسي ،الجمهور الخاص وكل زائر يختلف بنوع زيارته للمتحف فهناك الزيارة الفردية ،زيارة الجماعة المدرسية أو الجامعية، زيارة الوفود الرسمية ، الاجانب[10] ويمكن القول أنهم الفئات الاجتماعية التي تزور المتحف ضمن أهداف معينة أو أسباب تربطهم بزيارة المتحف، وتنتظم زيارتهم للمتحف في شكل زيارات فردية ،جماعية وفود رسمية.

- **الحرية الهامشية**: هي الممتلك الشخصي والجماعي للأفراد التي تستهلك المتحف وتحاول أن تتمثل وتتصور المتحف من خلال سندات متمثلة في الرأسمال الثقافي والاجتماعي والتي تحفز الفرد على اختيار أنماط استهلاك الخاصة.

- **الرأسمال الثقافي**: وقد أشار إليه "Pierre Bourdieu" حيث وزع الرأسمال الثقافي في شكلين: الرأسمال المدرسي الذي تحدده الشهادة وسنوات الدراسة ،والراسمال الثقافي الموروث المتناقل عبر الاسرة [11] .و في دراسته حول التردد على المتاحف وفي كتابه "la distinction" يصنف الرأسمال الثقافي في الرصيد المدرسي والرأسمال الثقافي للعائلة أي ازدواجية في الرأسمال الثقافي، أما الرأسمال الاقتصادي فشمل المداخيل المكتسبة

للعائلة [12]. ولأن المجتمع الفرنسي طبقي فهذه الخصائص لا تنطبق على مجتمعاتنا العربية وبالتالي الرأسمال الثقافي للزائر الجزائري نجده متمثلا في المستوى التعليمي والشهادة المحصلة، أما الرأسمال الاقتصادي فيتجسد في الدخل الشهري والمداخيل الإضافية، لأن بنية المجتمع الجزائري تختلف عن بنية المجتمعات الغربية من ناحية الدين ، العادات والتقاليد.

- **التميز:** وهي مجمل السلوكات والتصرفات التي ينتجها الزائر في فضاء المتحف وتجعله مختلفا عن الفئات الأخرى، وهي ميكانيزمات وطموحات يسعى الزائر للاختلاف والتميز في استهلاكه للمتحف .
- **الاستهلاك المظهري:** وقد أشار إليه **فيبلن** في دراسته للمجتمعات البرجوازية التي تستهلك البضائع والسلع وتقوم بممارسات ثقافية متميزة من أجل عرض غناها والتميز في البذخ والإسراف أي أن "فيبلن" جاء درسه من الناحية الاقتصادية لكن في الاستهلاك المظهري للمتحف فهي سعي الزائر إلى فضاء استعراض ثقافي متمثل في مسالك الزيارة وخيارات الاستهلاك (مرشد، لغة، مطبوعات...) لأن المتحف يمنح الثقافة ويلقنها والزائر يعرض استهلاكه مظهريا.

4- الإجراءات المنهجية:

- **المنهج:**

هذه الدراسة فرضت علينا إتباع المنهج الكمي لأن هيكل الفرضيات حامل لمتغيرات كمية وكيفية وقد فرض علينا هذا المنهج الوصف والتحليل والتكميم، وهذا الأخير يساعدنا على الانتقال من التصور النظري إلى اختبار الفروض وتحقيقها ميدانيا لقراءة الواقع الملموس لتكميمه والتعليق عليه بنسب مئوية أو استقراءه كيفيا .

- **التقنيات:**
- **الملاحظة:** اعتمدت عليها خاصة في مرحلة البحث الاستطلاعي للتمكن من جمع المعلومات والمعطيات التي تحدد لنا الموضوع، فالملاحظة هي من أهم الوسائل التي يستعملها الباحث لجمع المعلومات أي هي "رؤية وفحص الظاهرة موضوع الدراسة مع الاستعانة بأساليب البحث الأخرى التي تتلاءم مع طبيعة هذه الظاهرة"[13]

- **الاستمارة:** تعتبر هذه التقنية من بين التقنيات التي تستعمل في البحوث الكمية، بما أن طبيعة الموضوع والمنهج يحددان التقنية، فإن موضوع **المتاحف الجزائرية بين ثقافة الاستهلاك وتذبذب الزوار** فرض استعمال الاستمارة كتقنية رئيسية لاستجواب الزوار الوافدين على المتحف. وقد تم توزيع الاستمارات على الزوار و دامت فترة توزيع الاستمارات حوالي شهر ونصف وحددت أيام توافد الزوار بكثرة خلال أيام الأسبوع و كانت يومي الاثنين والخميس و أصناف الزوار في هذه الأيام، بالنسبة لعدد الاستمارات فقد وزعت **100 استمارة** وتم استرجاع **78 استمارة وتم توزيعها** في متحف الباردو الذي اختير كميدان للدراسة.

- **العينة:** بطبيعة الحال لكل بحث إشكالية وفرضيات يبينها الباحث من أجل دراسة أية ظاهرة، خاصة في علم الاجتماع الذي يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية، ولاستقراء الميدان على الباحث أن يختار عينة بحثه، حيث تكون هذه العينة ممثلة لمجتمع البحث وحسب طبيعة الموضوع المدروس فقد تم الاعتماد على المعاينة الغير الاحتمالية واعتمدنا على العينة العرضية ويعرفها موريس انجرس بأنها "سحب عينة من مجتمع البحث حسبما يليق بالباحث " [14] أما طريقة الفرز فقد اعتمدنا الفرز العشوائي وهذا راجع لخصوصية العينة لان مجتمع البحث غير قار وغير معروف. شملت عينة البحث 78 مبحوثا.

5-التناول النظري للاستهلاك:

يقول أنطون المقدسي «أنّ المجتمع الاستهلاكي يزكّي الحاجات، يحرّض الغرائز ويستثير حمى الرفاه لدى الشباب الناشئ الذي يرى ذلك من حقه، فثمة تمرد الأبناء على الآباء وصراع الأجيال، في حين أن تكاثر الحاجات الكمالية في الأسواق قد وجد لإرضاء الأغنياء الجدد وبعض أفراد الطبقة الحاكمة» [15]، ونحن نعلم أن العالم أصبح له وقع تضليلي وتحريفي على مجمل النشاطات السياسية، الاقتصادية، وعلى توازنات العلاقات الطبقية والحياة الثقافية والاجتماعية، وقد رافق هذا التحول الانتشار السريع الأشكال والتقنيات الجديدة في الإنتاج، بالإضافة إلى التغيرات التنظيمية وسيطرة النماذج الإلكترونية الجديدة، أمّا في حقل الاستهلاك فقد برزت تحولات ذات أهمية خاصة، فالتغير في الموضة على المستوى الشعبي قدّم الوسيلة لتسريع التنافس الاستهلاكي ليس فقط في الثياب، والحلي، والديكور، بل وفي مرحلة واسعة من أنماط العيش والأنشطة (الثانوية) الخاصة مثل عادات الاستجمام والرياضة، الموسيقى، ألعاب الفيديو، أما

الموجة الثانية فكانت التحول عن استهلاك السّلع إلى استهلاك الخدمات – ليس فقط الخدمات الشخصية والتجارية والتربوية والصحية بل كذلك خدمات التسلية والصور والأحداث كزيارة المتحف والذهاب إلى الحفلات أو حضور محاضرات أو ندوات[16]، ومع التسارع في عملية الإنتاج والمكننة تغير مجرى حياتنا بشكل عميق، لأنّ أنماط حياتنا والطريقة التي تدرك بها الأشياء تغيرت، فقد تغيرت طبيعة العمل من الإنتاج إلى الاستهلاك، وأنماط السلوك الاستهلاكي لا تتعامل مع خيارات فردية فقط وإنّما مع ضغوط الجماعة وذلك لأن الوفرة المادية وارتفاع الدّخل يؤديان إلى الاستهلاك المتعي وأشكال البذخ والإسراف، وفي ظل العولمة تسللت بعض أنماط الحياة والعيش في المجتمعات الغربية والعربية وخاصة المجتمع العربي عبر وسائل الإعلام ودفعت بعض الفئات وخاصة الشباب إلى تقليدها لأنها تشبع حاجات في أنفسهم أو أنها تعبّر بشكل أفضل عن شخصياتهم وتفردهم وهناك أيضا «التأثير الاستعراضي لدى بعض الشرائح الطبقية التي تريد أن تميز بها نفسها عن بقية الفئات والشرائح الطبقية، فهي تستعمل السلع كرموز للمكانة الاجتماعية وكأساليب في التعبير عن النفس مثل ملابس ذات ماركات معروفة، سيارات رفاهية وسلع غالية وهذا الاستهلاك تدعمه الجماعة»[17]، وما نقوله عن الاستهلاك بصفة عامة أنه تجاوز الأنماط التقليدية وأصبح يبحث عن المظاهر الظاهرية في شكل استعراضي من أجل الاندماج في الجماعة إعطاء صورة مظهرية بالانتماء إلى طبقة معينة أو الحصول على مكانة اجتماعية وذلك باستغلال الرموز والدلالات الثقافية الموجودة في عصرنا هذا، ومن أجل إيضاح الاستهلاك والأطر النظرية التي تناولته نوضح أهم البراديقمات والنماذج النظرية التي حددته:

5-1- براديقم الاستهلاك والطبقات الاجتماعية:

يرتبط الاستهلاك بالظروف الاجتماعية والأنظمة في كل المجتمعات، وهذا ما لاحظه زيملSimmel في مساواة الاقتصاد النقدي بالأنظمة الاجتماعية، حيث نجد في هذا البراد يقم أحد رواد الاستهلاك **Thorstien Veblen** ، **Marcel Mauss** ، **Norbert Lias**، حيث لاحظ Veblen بروز مقاولين أثرياء انصرفوا بحماس كبير إلى ممارسة **الاستهلاك المظهري**، وظهرت هذه النخب الثرية في شكل فئة اجتماعية متجانسة في نفوذها وأسلوب عيشها، حيث سماها فيبلن بطبقة التسلية Classe De Loisir ومن مزايا هذه الطبقة أنها لم تكن عاطلة عن العمل، بل كانوا منشغلين بقوة في أعمالهم وصفقاتهم ويمارسون عادات

الاستهلاك للتسلية في استعراض مظهري ،وفي هذا الجانب يحدد الجنس أي استهلاك الأزواج والإناث حيث تصبح الإناث واجهة رفاهية للأزواج يعرضن زينتهن وحليهن حيث يتخذنه للاختلاف والتميز، أما تسليات الرجال فتتمثل في عرض عدد المنازل التي يمتلكونها والحفلات المقامة، وعروض سباق الخيل وإعطاء فرص التبذير والبذخ وكل هذا يرجع إلى نفسية ظاهرية أمام الغذاء الدنيوي، لكن Veblen حاول إيجاد تفسير سوسيولوجي[18]، اشتقه من نظرية ماركس التي تنادي إلى الطبقية وإلى حركية المجتمع، حيث لاحظ أن نظم الأرستقراطية مثبتة بصفة نهائية منذ الولادة على شرط أن لا تعاني من ظروف الحياة الدونية في نظامه الاجتماعي ولا يبين الاحتياج لإعلان مرتبته عن طريق أسلوب الاستهلاك فإن إطار معيشته هو استعمال داخلي عكس الذين يبحثون عن المظهر في سلوكا تهم المظهرية فهي تشير إلى إثبات إطار العيش لاستعمال خارجي على الداخلي:

فحسب **Veblen** هناك نوعان من الهرمية الاجتماعية: هرمية مطلقة: محددة منذ الولادة.وهرمية نسبية: وتتمثل في إعادة إعطاء الأنظمة الأخرى مقابل النتائج القياسية تجاه صورة الترتيب، ففي الهرمية المطلقة أساليب الاستهلاك هي محددة بالهرمية كالنبالة لها أساليب واضحة كحمل السلاح والأكاليل، ممارسة الصيد هي مسجلة في نظامها، والاستهلاك المظهري يسجل في استهلاك السلع الرفيعة والمستوردة من أوربا كالأكل، العطور، اللباس الذي يسمح للمستهلك بالرفعة في المرتبة خاصة في مجتمعاتنا المتخلفة. وهذا ما حاول Veblen توضيحه عندما يذكر أن عادات الاستهلاك هو مؤشرة هوية الطبقة والهرم الاجتماعي.

5-2- براديقم اللامساواة في الرأسمال الثقافي:

يحدد Bourdieu pierreو Alain der bel في كتاب "l'amour de l'art" أن وزن التلقين العائلي يمتد ويتضامن مع المدرسة وينتج بذلك سلوك اتجاه الثقافة، فالرأسمال الثقافي الموروث يستند على تقسيمات ثقافية منقولة في صدر العائلة يجسد انحناء طبيعي. وعفوي للتردد على الأماكن الثقافية ويصبح الذوق الفني فطري نتاج مرجعية (عائلة) بالإضافة إلى المدرسة كدليل على التفوق المدرسي، أما في كتابه حول التميز يربط Bourdieu متغيرات المؤهلات

الثقافية مع عدم التساوي في توزيع الرأسمال المدرسي، فكلما كان التلقين والتعليم نقترب من الثقافة ونحقق المساواة في الرأسمال الثقافي وكلما ابتعدنا عن التلقين يحدث اللامساواة[19].

5-3- براديقم الاستهلاك وصفة الرمز (المواضيع تعتبر رموز):

يقوم هذا البراد يقم على تحليل بودريار«Baudrillard» للمجتمعات المعاصرة ومن بينها مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية وينصب هذا التحليل على ظاهرة تحليل الأغراض، حيث بيّن زوال عصر الثروات الضخمة والاستهلاك الباذخ ويربط هنا بودريار بين قلة الاستهلاك لدى الأغنياء وبين إلغاء الوجاهة القائمة على المال،مثلا الغني الذي يقود سيارة بحصانين لا يسطع نجمه ولكنه بذلك يتمايز أكثر ويختلف عن سواه بطريقة استهلاكه وأسلوبه، فهو ينتقل من البذخ الكمّي إلى التمايز ومن المال إلى الثقافة ويوضح "بودريار": أن جميع الناس متساوون أمام الحاجة وأمام مبدأ الإشباع لأن جميع الناس هم متساوون أمام القيمة الاستهلاكية للأغراض والخيرات والأملاك، وبما أن الحاجة تقاس بمؤشر القيمة الإستعمالية فلابد من علاقة جد موضوعية تتلاشى أمامها المساواة الاجتماعية أو التاريخية»[20]، فالاستهلاك حسب Baudrillard هو منظومة توفر تراتب العلامات واندماج الجماعة وحامل لقيم إيديولوجية وجهاز اتصال وبنية تبادل ويتحدد الاستهلاك بوصفه حاصرا للمتعة ومنطقا اجتماعيا يدخل في نظام معمم من تبادل وإنتاج قيم مرّمزة ويحدده الأنا الاستهلاكي على شكل خطاب ذاتي والغرض الاستهلاكي يعزل وهنا يبلور الغرض الاستهلاكي ترتيب للمراكز ويربط المستهلكين برموز[21].

ويحلل المسار الاستهلاكي بوصفه مسار دلالة واتصال قائم على رموز ترتسم فيه ممارسات استهلاكية ويكون الاستهلاك هنا منظومة معادلة للّغة، ويكون الاستهلاك مسار تصنيف وتباين اجتماعي، وترتب الأغراض كقيم موقعية في هرم تراتبي.

5- نتائج الدراسة :

بعد المعالجة النظرية لمفهوم الاستهلاك وأهم البراديقمات التي فسرت الممارسات الثقافية للافراد والمتغيرات التي تتحكم في درجة الاقبال على المتاحف نحول ان نعرض اهم النتائج التي توصلت اليها هذه الدراسة حسب التساؤلات المطروحة وضمن الفرضيات المتبناة وعلى أساسها نعرض الفرضية الأولى :

" يختلف جمهور المتحف حسب خصائصه الاجتماعية والثقافية"

هذه الفرضية حاولت ان تبرز الخصائص الاجتماعية المتمثلة في الخاصية العمرية للعينة المدروسة حيث تمايزت الفئات الاجتماعية من ناحية السن ،حيث وجدنا تنوعا في الاعمار لدى الفئات التي تتردد على المتحف والجدول التالي يوضح ذلك:

- **جدول رقم (1) يوضح توزيع الفئات العمرية لزوار متحف الباردو:**

الفئة العمرية	التكرار	النسبة%
[17 – 14]	09	% 11.53
[24 – 18]	33	% 42.30
[35 – 25]	17	% 21.79
[47 – 36]	16	% 20.51
[64 – 50]	03	% 3.84
المجمـــــوع	78	% 100

يوضح الجدول رقم (1) توزيع الفئات العمرية لزوار متحف الباردو، وقد تم تقسيم هذه الفئات إلى أربع مراحل يعرفها الإنسان مرحلة الطفولة، مرحلة الشباب، مرحلة الكهولة، مرحلة الشيخوخة وهذه المراحل يمر بها الإنسان ويعرف الفرد خلالها عدة تغيرات بيولوجيـة، نفسـية واجتماعية، ونحن في العلوم الاجتماعية نركز على البنية الاجتماعية، وبطبيعة الحال كل مرحلـة تعكس المضمون الشكلي والاجتماعي لكن في هذه الدراسة ركزنا على المضمون الاجتمـاعي "للعمر" ولا نبحث على السن كدلالة إحصائية بل اجتماعية، والجدول يبين توزيع فئـة السـن حسب كل مرحلة وبما أن الموضوع يبحث عن دلالة فعل الاستهلاك ونمطه عند كل فئة سـنية فقد ركزنا على أربع مراحل ذكرناها سابقا، ونحن نعلم أن كل مجتمع مرتبط بنسق خاص تحدده الضوابط الاجتماعية والقانونية فالبلدان الغربية لها ضوابطها وقوانينها التي تحدد هوية كل فـرد ومراحله. لكن في البلدان العربية ما زال مجتمعنا مرتبطا بالأعراف والتقاليد ولأن البنية الاجتماعية والثقافية مختلفة عن بنية البلدان الغربية، فهذه الأخيرة تحدد المراحل حسب الممارسات التي يقوم بها الأفراد فمثلا في فرنسا يصنف الباحثون الأطفال الذين تتجاوز أعمارهم 14 سنة مـع فئـة الكبار، وفي بريطانيا تبدأ من 16 سنة، أما في إسبانيا ثبتت في سن 17 سـنة (نقصـد فئـة

الشباب)[22]، أما في منظور علماء الاجتماع "فمرحلة الشباب مثلا تبدأ حينما يحاول المجتمع تأهيل الشخص لكي يحتل مكانته وأداء دوره في السياق الاجتماعي"[23].

ومن خلال الجدول نلاحظ أن نسبة الطفولة تمثل 11,53% وفئة الشباب تمثل 64,09% وهي ممثلة من سن 18 إلى 24 بنسبة 42,30% ومن سن 25 إلى 35 تمثل 21,79% أما فئة الكهولة تمثل 20,51% و تحدد من سن 36 إلى 47 سنة وأخيرا فئة الشيخوخة تمثل نسبة 3,84%، نستنتج أن فئة الشباب هي أكثر استهلاكا للمتحف إذا أخذنا القيمة أو النسبة الإجمالية لفئة الشباب وتليها فئة الكهولة ثم فئة الطفولة مقابل أضعف نسبة تمثلها فئة الشيخوخة، لكن إذا اطلعنا على الخطاب الذي يحمله كل زائر نحو المتحف فنلاحظ أن فئة الشيخوخة تعتبر كفئة منتسبة للمتحف، من خلال المضمون الذي يتبناه المتحف ويحاول إنتاجه للمستهلكين، فيعتبر المتحف بالنسبة لهذه الفئة كذاكرة لهوية مسترجعة، ومكان لاستعادة أيام الصبا أي هو واجهة لاسترجاع ذاكرة الأجداد وهمزة وصل بين الأجداد ويمنح تواصلا بين الصغار والكبار في فضاء عمومي منتج في سياق علمي وثقافي، في حين نجد أن فئة الشباب تحمل اتجاهات مختلفة نحو المتحف بين الانتماء والابتعاد ، أما فئة الطفولة فتجده للاسترخاء والترفيه فهو جانب علمي تاريخي لكن في فضاء عرض مفتوح مختلف عن الفضاء المدرسي.

ومنه فإن السن من الناحية الشكلية يحدد لنا أصناف الأفراد لكن ضمنيا يجسد لنا اتجاهات كل فرد نحو المتحف كحقل استهلاك.

وبطبيعة الحال تنوعت خصوصية الجنس المتردد على المتحف وهذا ما يعكسه الجدول التالي:

جدول رقم(2) يوضح توزيع الزوار حسب الجنس":

الجنس	التكرار	النسبة
ذكر	44	%56.41
أنثى	34	%43.58
المجمـــوع	**78**	**% 100**

نلاحظ من خلال الجدول أن أعلى نسبة عكستها فئة الذكور ب 56,41% وتعتبر هذه النسبة الأكثر تمثيلا مقارنة بنسبة الإناث التي تمثلت في 43.58%فنستنتج أن فئة الذكور تستهلك المتحف في إطار جماعات منظمة (أصدقاء) والأغلبية تسكن في الأحياء المجاورة

للمتحف، باعتباره فضاءا مفتوحا صباحا ومساءا ولا يكلف مصاريفا كثيرة .و معظم الشباب يستهلكون المتحف متى سمحت لهم الفرصة . أضف الى ذلك السلطة التي يتمتع بها الذكر حيث تمنحه نوعا من الحرية عكس فئة الإناث فإنها مرتبطة بالضوابط العائلية.

أما عن المستوى التعليمي لزوار المتحف فقد تباينت المستويات التعليمية بين الزوار خاصة فيما يتعلق بالتردد على المتحف. وقد ابرزت النتائج أن التردد على المتحف يتأثر بالمستوى التعليمي وهذا الطرح قد تكلم عنه Bourdieuفي دراسته لجمهور المتاحف والجدول التالي يوضح ذلك :

- **جدول رقم (3) يوضح توزيع الجنس حسب المستوى التعليميلزوار ":**

المستوى التعليمي / الجنس	متوسط		ثانوي		جامعي		المجموع	
	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%
اناث	03	3.84	13	16.66	18	23.07	34	43.58
ذكور	04	5.12	12	15.38	28	35.89	44	56.41

يوضح الجدول رقم(3)توزيع المستوى التعليمي للزوار حسب الجنس، حيث نجد نسبة الزوار ذوي مستوى متوسط تمثل 3,84% في فئة الإناث و16,6% مستوى ثانوي و23.07% مستوى جامعي في فئة الإناث،و5,12%في فئة الذكور ذوو مستوى متوسط و 15,38% مستوى ثانوي و89,35% مستوى جامعي، وتعتبر هذه الفئة الأكثر تمثيلا مقارنة بفئة الثانوي ومستوى متوسط حيث تمثل النسبة الإجمالية للجامعيين 58,97% ثم تليها فئة الزوار ذوو مستوى ثانوي 32,05% وأخيرا فئة الزوار ذوو مستوى متوسط 7,68% .وهكذا نستنتج أن المستوى التعليمي يؤثر في عملية استهلاك المتحف، أي كلما كان المستوى التعليمي عاليا كلما زاد وعي الزوار بدلالة المتحف، وهذا ما يسمح بتعميق المسار الاستهلاكي للزائر والمستوى التعليمي يحدد تمثلات واتجاهات وسلوكات الزوار.

- جدول رقم(4) يوضح الفئات السيسيومهنية لزوار المتحف الوطني الباردو :

الجنس / الفئات / السسيومهنية	اناث		ذكـــــور		المجموع	
	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%
إطارات عليا	05	6.41	11	14.10	16	20.51
موظفين، عمال، بسطاء	07	8.97	11	14.10	18	23.07
طلبة	14	17.94	18	23.07	32	41.02
بدون مهنة	08	10.25	04	5.12	12	15.38
المجموع	34	43.58	44	56.41	78	100

الجدول التالي يوضح توزيع الفئات السيسيومهنية حسب الجنس ،حيـــث تمثـــل نســـبة الإطارات العليا في فئة الإناث 6.41% مقابل 14.10% ،في فئة الذكور وفي فئة المـــوظفين والعمال البسطاء إناث تمثل 8.97% مقابل 14.10 % ذكور وتشتمل فئة المـــوظفين علـــى الوظائف التالية : متقاعدين، موظفين، تقنين، تجار، مسيرين...الخ .

وقد تم تصنيف هذه الوظائف حسب المستوى التعليمي والدخل الشهري، أما فئة الطلبة فتمثل 17.94% إث مقابل 23.07 % ذكور، في حين تمثل نسبة بدون مهنـــة 10.25% إناث مقابل5.12 % ذكور.وحسب الاتجاه العام نلاحظ أن فئة الطلبة تعتبر الأكثـــر تمـــثلاً واستهلاكاً للمتحف حيث تمثل41.02 % مقابل فئة الموظفين تمثل نسبة 23.07 % وفئـــة

بدون مهنة تمثل 15.38 % و20.51% في فئة الإطارات العليا الممثلة بالوظـــائف التاليـــة (أطباء، أساتذة، طيار، مهندسين...).

من خلال هذه الدراسة الميدانية وجدنا أن موقع المتحف ومكان سكن يؤثر على اقبـــال الزوار على المتحف والجدول التالي يوضح ذلك

- **جدول رقم (5) يوضح توزيع الجنس حســـب منطقـــة الســـكن (الحـــي) « متحفالباردو»**

منطقة السكن / الجنس	منطقة حضرية				منطقة ريفية				المجموع	
	حي راقي		حي شعبي		داخل المدينة		خارج المدينة			
	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%
إنـــــاث	14	17.94	14	17.94	03	3.84	03	3.84	34	43.58
الذكـــور	14	17.94	11	14.10	09	11.53	10	12.82	44	56.41
المجموع	28	35.89	25	32.05	12	15.38	13	16.66	78	100

الجدول رقم(05) يوضح توزيع منطقة السكن (الحي) حسب الجنس لـــزوار متحـــف الباردو حيث تم تقسيم منطقة السكن إلى مناطق حضرية تضم أحياءا راقية وأحياءا شعبية ومناطق ريفية داخل المدينة وخارج المدينة،وتمثل نسبة الإناث اللواتي يقطن في منطقة حضـــرية (حـــي راقي)17.94% و17.94%يقطن حي شعبي و3.84% من الإناث يقطن منطقة ريفية داخلة

المدينة و 3.84%يقطن خارج المدينة، مقابل 17.94% من الذكور يقطنون في أحياء راقية ،و 14.10% من الذكور يقطنون في أحياء شعبية ،و 11.53% يقطنون منطقة ريفية داخل المدينة ،و 12.82% من الذكور يقطنون خارج المدينة،وحسب الاتجاه العام نسبة الزوار القاطنين في المناطق الحضرية حي راقي تمثل 35.89% و الأحياء الراقية في العاصمة (ديدوش مراد، حيدرة، المرادية، تيليملي، أودان...الخ) ثم تليها الأحياء الشعبية (القصبة، أول ماي، بوزريعة، شوفا لي، الحراش، عين النعجة، باب الواد...الخ) نسبة 32.05%، أما المناطق الريفية تمثل 15.38% القاطنين داخل المدينة (شرشال، سطيف، برج منايل، تيزي وزو) و 16.66% خارج المدينة،إن طابع المدينة الحضري يعكس صورة المؤسسات الثقافية كالمتاحف الموجودة في العاصمة والأفراد القاطنون في المناطق الحضرية متعودون على هذه المؤسسات، وبحكم السكن أمام المتحف يترددون عليه في أيام العطل ومساء الاثنين والخميس في حين نجد الزوار القاطنين في المناطق الريفية لم يتعودوا على مثل هذه المؤسسات لعدم وجودها وإن وجدت فهي لا تحمل مقاييس المتاحف، ولوجودهم في العاصمة بسبب الدراسة في الجامعة اغتنموا الفرصة وزاروا المتحف في شكل زيارة منظمة، حيث نجد جماعة الحي تستهلك المتحف.

نستنتج أن المتحف فضاء ثقافي أنتج جمهورا جواريا يحمل خصائص متميزة في فئات اجتماعية متنوعة من صغار السن والكبار.

أما النتائج المتعلقة بالفرضية الثانية الموسومة بـ: **الحرية الهامشية للزوار المستمدة من الرأسمال الثقافي والاقتصادي تحدد الممارسة الثقافية وتعطي دلالة للإستهلاك المظهري**، فقد تم تفسيرها عن طريق مجموعة من الجداول منها الجدول التالي :

جدول رقم (06) يوضح مكان السكن وعلاقته بمكان المتحف :

	معرفة المتحف / منطقة السكن	نعرفه من قبل		عبر وسائل الإعلام		وكالات سياحية		بمناسبة شهر التراث		الصدفة		أخرى	
		التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%
حضرية	حي راقي	22	28,20	02	2,56	01	1,28	–	–	03	3,84	–	–
	حي شعبي	16	20,51	–		–		–	–	04	5,12	1	1,28
ريفية	داخل المدينة	07	8,97	04	5,12	01	1,28	–	–	03	3,84	1	1,28
	خارج المدينة	07	8,97	02	2,56	–	–	01	1,28	02	2,56	1	1,28
	المجموع	52	66,66	8	10,25	20	25,64	01	1,28	12	15,38	3	3,84

الجدول رقم (06) يوضح علاقة منطقة السكن بمعرفة وجود المتحف، حيث تمثل نسبة الزوار الذين يسكنون منطقة حضرية في حي راقي 28,20% يعرفونه من قبل ،و 2,56% من الزوار يسكنون كذلك في حي راقي علموا بوجود المتحف عبر وسائل الإعلام. و1,28% يسكنون حيا راقيا في منطقة حضرية علموا بوجوده عبر وكالات السياحة و3,84% علموا بوجود المتحف بالصدفة يسكنون منطقة حضرية في حي راقي، مقابل 20,51% يسكنون

منطقة حضرية في حي شعبي يعرفونه من قبل و5,12% في حي شعبي علموا بوجوده عبر وسائل الإعلام و 5,12% يسكنون منطقة حضرية في حي شعبي علموا بوجـــوده بالصـــدفة مقابـــل 8,97% من الزوار يسكنون منطقة ريفية داخل المدينة يعرفونه من قبل، و 1,28% يسكنون داخل المدينة علموا بوجوده عبر وكالات السياحة، و3,84% علموا بوجوده كذلك بالصدفة، مقابل 8,97% من الزوار يسكنون منطقة ريفية خارج المدينة يعرفونه من قبل ،و2,56% من الزوار الذين يسكنون خارج المدينة علموا بوجوده عبر وسائل الإعلام و1,28% علموا بوجوده خلال شهر التراث ويسكنون في منطقة ريفية خارج المدينـــة، و 2,56% علمـــوا بوجـــوده بالصدفة كذلك يسكنون خارج المدينة وفي منطقة ريفية،وحسب الاتجاه العام نلاحظ أن النسبة الإجمالية للذين يعرفون المتحف من قبل تمثل 66,66% موزعين في مناطق حضرية كنسبة الحي الراقي الأكثر تمثيلا مقارنة بالنسب الأخرى في حي شعبي ومنطقة ريفية، كما نستنتج أن الزوار الذين يسكنون أحياءا راقية في العاصمة بجوار المتحف يعرفون المتحف ويســـتهلكون فضـــاءاته وبالتالي موقع المتحف خلق أو أنتج نخبة الحي (جماعة الحي) التي تتردد عليه متى سمحت الفرصة باعتبارهم يقطنون في أحياء مجاورة (حي ديدوش مراد، تليملي، المرادية، حيدرة...)، أما الزوار الذين يسكنون أحياء شعبية عرفوا المتحف من خلال الأصدقاء بحكم إقامتهم في العاصمة، أمـــا الذين يسكنون في مناطق ريفية فبحكم دراستهم في الجامعة زاروا وعلموا بـــالمتحف، في حـــين الذين علموا بوجوده بالصدفة كان على إثر زيارتهم للمدينة، أما البقية الأخرى علمت بوجوده من خلال اللافتات الموجودة بجوار المتحف، وعليه "فالمتحف يلتحم في بعض الأحيان بالجمهور العابر والجمهور الجواري الذي يأتي دائما والمختص الذي لا يستطيع الحضور إلا مرة واحدة"[24]

جدول رقم (07) يوضح تأثير السن والجنس بدافع الزيارة إلى « متحفالباردو»:

دافع الزيارة / السن والجنس		جئت بنصيحة أحد		برفقة أطفالك		لمرافقة شخص		دوافع أخرى		المجموع
		التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	
[14،17]	إنـــاث	3	3.84			2	2.56			09
	ذكـــور	2	2.56			2	2.56			
[18،25]	إنـــاث	5	6.41			6	7.69	5	6.41	38
	ذكـــور	8				7	8.97	7	8.97	
[26،35]	إنـــاث	1	1.28			2	2.56	1	1.28	12
	ذكـــور	2	2.56			3	3.84	3	3.84	
[36،47]	إنـــاث	2	2.56	3	3.84	1	1.28	2	2.56	16
	ذكـــور	1	1.28	2	2.56	5	6.41			
[50،64]	إنـــاث			1	1.28					03
	ذكـــور	1	1.28			1	1.28			
المجموع		05	32.05	06	7.69	29	37.17	18	23.07	100

الجدول رقم (07) يوضح تأثير السن والجنس على دوافع الزيارة حيث نلاحظ أن نسبة الزوار في فئة الطفولة إناث واللواتي جئن بنصيحة أحد تمثل 3.84 % و 2.56 % في إنـــاث جئن لمرافقة شخص مقابل 2.56 % في فئة الذكور (طفولة) جاءوا بنصيحة أحد و2.56% ذكور جاءوا لمرافقة شخص مقابل 6.41 % في فئة الشباب [18، 25] إناث جئن بنصيحة أحد و 7.69% إناث جئن لمرافقة شخص و6.41% إناث جئن إلى المتحف لدوافع أخـــرى مقابل 10.25 % في فئة الذكور الشباب جاءوا بنصيحة أحد، و 8.97% ذكور جاءوا لمرافقة شخص و8.97 % جاءوا لزيارة المتحف في فئة الذكور لدوافع أخرى، مقابل 1.28 % في فئة الشباب [26، 35] إناث جئن بنصيحة أحد و 2.56 % جئن لمرافقة شخص و 1.28 % لزيارة المتحف لدوافع أخرى ،مقابل 2.56 % ذكور في فئة الشـــباب [26، 35] جـــاءوا بنصيحة أحد، وكذلك 3.84 % ذكور جاءوا لمرافقة شخص و3.84 % جـــاءوا لـــدوافع أخرى، مقابل 2.56 % إناث في فئة الكهول، و 3.84 % من الإناث جئن لمرافقة أطفـــالهم و1.28 % جئن لمرافقة شخص،و 2.56 % جئن لدوافع أخرى، مقابل 1.28 % في فئـــة الكهول ذكور و 2.56 % من الذكور جاءوا لمرافقة أطفالهم و 6.41 % من الذكور جاءوا لمرافقة شخص ،مقابل 1.28 في فئة الشيوخ إناث جئن لمرافقة أطفالهم، مقابل 1.28 % ذكور في فئة الشيوخ جاءوا بنصيحة أحد و1.28 % من الذكور جاءوا لمرافقة شخص وحسب الاتجاه العام نلاحظ أن نسبة الذين جاءوا بنصيحة أحد تمثل 32.05 % تشمل كل الفئـــات الســـنية طفولة، شباب، كهولة، شيوخ وكلا الجنسين، أما النسبة الإجمالية للذين جاءوا رفقة الأطفال أي الأطفال هم من دفعوا الآباء لزيارة المتحف تمثل 7.69 % وتشمل فئة الكهولة والشـــيخوخة (الآباء، الأجداد) في حين تمثل النسبة الإجمالية للزوار الذين جاءوا لمرافقة شـــخص 37.17%، وتعتبر هذه النسبة الأكثر تمثلا مقارنة بالنسب الأخرى في حين تمثل نسبة الفئات التي كانت لها دوافع أخرى لزيارة المتحف 23.07%.

نستنتج أن السن والجنس يؤثر في دوافع استهلاك المتحف حيث تنتج كـــل فئـــة ســـنية دوافعها لزيارة المتحف واستهلاكها من المحيط الجماعي والعائلة والأطفال ويتبين لنا مدى تفاعل الفرد اجتماعيا بمحيطه وتأثيره في استهلاك المتحف حيث نجد البعض من الزوار جاءوا لزيـــارة المتحف بدافع مرافقة أشخاص (أصدقاء، أقارب) أيضا آخرون حضروا بنصيحة أحد كالعائلة، الجامعة (أساتذة)، أما الدوافع الأخرى فقد حددها الزوار في شكل أسباب المتعة، الترفيه، قضاء

وقت الفراغ وباعتبار أن المتحف فضاء لا يكلف الفرد مصاريف كثيرة لقضاء وقت قصـــير في المتحف « حسب إحدى المبحوثات التي زارت المتحف مع أطفالها.

جدول رقم (08) علاقة الفئات السسيومهنية مع طريقة الزيارة الاستهلاك:

طريقة الزيارة / الفئات السسيومهنية	مرشد		دليل كتاب		بمفردك		المجموع	
	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%	التكرار	النسبة%
إطارات عليا	09	11.53	04	5.12	03	3.84	16	20.51
مـــوظفين، تجـــار، متقاعدين	10	12.82	03	3.84	05	6.41	18	23.07
طلبة	24	30.76	03	3.84	05	6.41	32	41.02
بدون مهنة	06	7.69	02	2.56	04	5.12	12	15.38
المجموع	49	62.82	12	15.38	17	21.79	78	100

جدول رقم (9) يوضح توزيع الفئات السسيومهنية وطريقتها في الزيارة (الاستهلاك حيث تمثل نسبة الإطارات التي تفضل أن تكون زيارتها برفقة مرشد 11,53% و 5,12% تفضل أن تكون زيارتها بدليل كتاب و 3,84% تفضل أن تكون الزيارة بمفردهـــا مقابـــل 12,82% من الموظفين تفضل أن تكون زيارتها برفقة مرشد و 3,84% تفضل أن تكون بدليل كتاب و6,41% تفضل أن تكون الزيارة بمفردها مقابل 30,76% في فئة الطلبـــة تفضل أن تكون زيارتها رفقة مرشد و 3,84% تفضلرقم دليل كتاب و 6,41% تفضل أن

تكون الزيارة بمفردها، مقابل 7,69% في فئة بدون مهنة يفضلون الزيارة بمرشد و 2,56% يفضلون دليل كتاب و5,12% يفضلون الزيارة بمفردهم، وحسب الاتجاه العام نلاحظ أن نسبة الزوار الذين يفضلون الزيارة رفقة مرشد تمثل 62,82% ودليل كتاب تمثل 15,38% والذين يفضلون الزيارة بمفردهم تمثل 21,79%.

نستنتج أن المتحف يخلق اختلافات بين الفئات السسيومهنية في طريقة استهلاكها حيث تعرض هذه الأخيرة نمط استهلاكها في طابع استعراضي بتفضيل الزيارة برفقة مرشد، وتظهر الفئة المستهلكة رغبتها في استهلاك ثقافي باختيار مرشد للحصول على معلومات مفصلة ونلاحظها في مختلف الفئات السسيومهنية. لكن الطريقة الخفية التي يحاول الزوار التكتم عليها هي الرغبة في التميز والاختلاف عن بقية المستهلكين في فضاء العرض، حيث تطبع بعض الخصائص في الفئات السسيومهنية في طريقة الاستهلاك نجدها خاصة في الفئات العمرية (الطفولة، الشباب) التي تحاول الاستعراض في فضاء المتحف وتتمايز من خلال لباسها وشكلها الخارجي وخطابها المتصور حول المتحف، أما الفئات السسيومهنية التي تفضل الزيارة بمفردها تحاول استهلاك المتحف معتمدة على مؤهلاتها الثقافية (الرأسمال الثقافي المكتسب) والرأسمال الاجتماعي المنتج من تأثير المحيط.

ومايمكن استنتاجه من هذه الدراسة وبعد تحليل وتفسير الفرضيات نذكره فيما يلي:

- أن الفئة السنية المتمثلة في فئة الكهولة والشيخوخة هي الأكثر تمثلا للمتحف في سلوكياتها وتصوراتها تجاه المتحف وتعتبر نفسها منتسبة للمتحف وذلك في خطابها المبني على أساس التعود واستعادة الموروث من مراحل الشباب والكهولة .

- يخلق المتحف أنماطا متمثلة في الاستهلاك الفردي الشخصي والاستهلاك العائلي (مع الأطفال – الأزواج) ويعكس هذا الجانب تطور الشخصية من زيارة فردية إلى زيارة جماعية أي أن شبكة العلاقات الاجتماعية تتوسع انطلاقا من العائلة، أصدقاء، أزواج، فضاء العمل كل هذه السلوكات تعكس الاختلافات والتمايزات بين الفئات الاجتماعية في شكل استهلاكها والأنماط التي يفرضها المستهلكون في المتحف.

- يعكس أيضا المتحف في ضوء استهلاكه نخبة جوارية متمثلة في زوار الحي الذين تعودوا على زيارة المتحف ،أي أن المتحف فضاء عمومي فرض مجاله في المدينة وكفضاء ثقافي في الحي.
- إن الفئة التي تملك رأسمال ثقافي ورأسمال اقتصادي تحاول التميز في زيارتها وخلق مسارات استهلاكية متميزة في شكل استهلاك استعراضي مظهري يعكس الاختلافات الشكلية المظهرية والضمنية في خلق أنماط استهلاك متميزة (آراء، لغة الدليل، اقتناء المطبوعات، استهلاك الصورة).

- تتحدد الفروق والاختلافات بين الفئات السيسيومهنية من الدلالة والتصور المنتج حول المتحف باختلاف الجنس، السن، المستوى التعليمي، مكان السكن .

نستخلص في الأخير أن متاحفنا بإمكانها أن تغير النظرة التقليدية وتجدد ممارستها لو طبقت استراتيجية فعالة للنهوض بهذه المؤسسة ،والمشكل نحصره في ذهنية المجتمع الجزائري الذي يرى أن الثقافة هي آخر شيء يفكر فيه ،فمن خلال هذه الدراسة لاحظنا غياب كامل للثقافة المتحفية، وهذا يعود إلى غياب الاستعدادات تجاه هذا النوع من الممارسة التي من المفروض أن ينشأ عليها الفرد من خلال دور الأسرة كرأسمال اجتماعي وثقافي ودور المدرسة في تلقين التربية الفنية والمراكز الثقافية التي تحفز الفرد على حب الفن والثقافة وممارسة النشاطات الثقافية.

قائمة المراجع :

المراجع باللغة العربية :

1- الكنيسيحمدي،**ثقافةالشباب**،المنظمةالعربيةللتربيةوالثقافة (الثقافةوالقوىالبشرية) ،تونس، 1995.

2- المقدسي أنطون، **الثقافة وإبداع العربي**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الخطة الشاملة العربيـــــة، تونس، 1992.

3 – النقيب حسن خلدون، **آراء في فقه التخلف (العرب والغرب في عصر العولمة)**، دار السياقي، لبنان، ط1، 2002

4 -إحسان محمد حسن، **الأسس العلمية لمناهج البحث الاجتماعي**، دار الطيعة لطباعة و النشر، بـــيروت، ط2 ، 1986 .

5- عبد الغني عماد ،**سسيولوجيا الثقافة (المفاهيم والإشكاليات ....من الحداثة الى العولمة)**،مركز دراسات الوحـــدة العربية :لبنان ،ط1، 2006

6 – طونيبينيت لورانس ،غرو سبيرغ ميغان موريس ،**معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع** ،تر :سعيد الغـــانمي ،مركـــز دراسات الوحدة العربية ،ط1، 2010

7 – سمية حسن محمد،محمد عبد القادر ،**فن المتاحف** ، دار المعارف ،القاهرة ،1994.

8-مارسوان جالا ،علوم المتحف الحضرية ،مجلة المتحف الدولي ،العدد 1995،،187.

9-معنعمر خليل،نقدالفكرالإجتماعيالمعاصر،دارالأفاقالجديدة،بيروت،ط2، 1991.

10-موريس انجرس ،**منهجية البحث العلمي في العلوم الانسانية** ،تر:بوزيد صحراوي وآخرون،دار القصـــبة للنشـــر، الجزائر ،ط،2006

11-ديفيد هارفي، **حالة ما بعد الحداثة (بحث في أصول التغيير الثقافي)**، تر :شيا محمد المنظمة العربية لترجمة الحمـــراء، لبنان، ط1، 2005.

- **المراجع باللغة الفرنسية :**

1-Ansart pierre, **Les sociologie contemporaines**, éditions du seul, France , 1990

2- André gobnoémie drouguet ; **Lamusiologie (histoire, dévloppement, enjeux actuels)**, Armand colin, Paris,ed 2 ;2006

3 -Baudrillard (jean), **La société de consommation**, Courtesy galerie Beaubourg, Paris,1996.

4 - Ben Ha mou (Françoise), **L'économie de la culture**, éditions la découverte, Paris, 1996.

5- Bourdieu (pierre), **Question de sociologie**, Les éditions de minuit, Paris, 1984.

6 -Bourdieu (pierre), **La distinction critique sociale du jugement**, Les éditions de minuit ;Paris.

7-Bourdieu (pierre) et Alain (darbel), **L'amour du l'art**, Les éditions de minuit ;Paris1966.
8 -Labarthe (PHILIPPE) ,Toha (JEAN) , Warnier (PIERRE) , **Ethnologie anthropologie,** Presse universitaire de France , France , 1er , 1993 .

الـــهـــوامش :

1- Bourdieu (pierre), Question de sociologie, Les éditions de minuit, Paris, 1984, p162.
2- Bourdieu (pierre), Ladistinction critique sociale du jugement, Les éditions de minuit, Paris, p293.
3- Bourdieu (pierre) et Alain (darbel), L'amour du l'art, Les éditions de minuit, Paris,1966, p 293.
4- معن عمر خليل، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1991، ص112
5- Bourdieu (P) et Alain (D)،Opcit,p166.
6- سمية حسن محمد،محمد عبد القادر ،فن المتاحف، دار المعارف ،القاهرة ،1994،ص 9
7- مارسوان جالا، علوم المتحف الحضرية ،مجلة المتحف الدولي ،العدد 1995،187،ص40.
8- André gobnoémieDrouguet ;Lamusiologie(histoire,dévloppement,enjeux actuels),Armand colin, Paris,Edition 2 ;2006,p38
9- طوني بينيتلورانس ،غروسبيرغ ميغان موريس ،معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع ،تر :سعيد الغانمي ،مركز دراسات الوحدة العربية ،ط1، 2010،ص 255.
10-André gobnoémiedrouguet ;opcit، p84.
11- عبـد الغنـــي عمـاد ،سسيولوجيـا الثقافة (المفـــاهيم والإشكاليـــات ....من الحداثـــة الى العولمة)،مركز دراسات الوحدة العربية :لبنان ،ط1، 2006، ص 163.
12- Ansartpierre,Les sociologie contemporaines, Editions du seul, France , 1990 , p 97 .
13- إحسان محمد حسن، الأسس العلمية لمناهج البحث الاجتماعي، دار الطيعة لطباعة و النشر، بيروت ، ط2 ، 1986 ، ص
14- موريس انجرس ،منهجية البحث العلمي في العلوم الانسانية ،تر: بوزيد صحراوي وآخرون ،دار القصبة للنشر، الجزائر، ط2 ،2006 ،ص،311
15- المقدسي أنطون، الثقافة وإبداع العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الخطة الشاملة العربية ، تونس، 1992، ص 164.
16- ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة (بحث في أصول التغيير الثقافي)، تر :شيا محمد المنظمة العربية لترجمة الحمراء، لبنان، ط1، 2005، ص232.
17- النقيب حسن خلدون، آراء في فقه التخلف (العرب والغرب في عصر العولمة)، دار السياقي، لبنان، ط1، 2002، ص661
18- Labarthe (PHILIPPE) ,Toha (JEAN) , Warnier (PIERRE) , Ethnologie nthropologie**,** Presse universitaire de France , France , Edition 1 , 1993 , P 350 .
19- Ben Ha mou (Françoise), L'économie de la culture, éditions la découverte, Paris, 1996, P 12.
20- Baudrillard (jean),La société de consommation, Courtesy galerie Beaubourg, Paris,1996,P48.
21- Opci**t**,P 10
22- Ben Ha mou (Françoise),Opcit,P 9

23- الكنيسي حمدي، ثقافة الشباب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة (الثقافة والقوى البشرية) ، تونس، 1995 ، ص82

نحو إستراتجية عربية لمواجهة مشكل عمل الأطفال.

أ.صباح تواتي

جامعة

مـــلـــخص: أدت التغيرات العالمية التي حدثت في العقدين الماضيين- مـــع صـــعود مفاهيم التنمية البشرية و حقوق الإنسان-إلى تناهي الاهتمام بالطفـــل و حقوقـــه الجســـمية و الوجدانية والفكرية التي تعد جزءا من حقوق الإنسان، هذا الاهتمام بلغ أعلى درجاته بعد مؤتمر القمة العالمية للطفولة في عام 1990، و الذي صدرت عنه الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل، الـــتي صادقت عليها أغلبية دول العالم لغاية اليوم، لتضحى الأساس في التعامل مع قضايا الطفل عبر ما اعتمدته الدول الموقعة عليها من تشريعات تكفل هذه الحقوق ، ونتيجة الأزمات الاقتصـــادية و الآثار السلبية لسياسات و برامج التكييف الهيكلي على دول الجنوب و خاصة الفئـــات الأكثـــر تضررا و هم النساء و الأطفال في ظل تزايد معدلات الفقر و انتشار البطالة و التضخم ،و تفكك العلاقات الأسرية ، برز عدد من الظواهر الاجتماعية السلبية التي شملت أساسا أطفـــال الأســـر الفقيرة و المعدمة، من أهمها عمل الأطفال دون السن القانونية و أطفال الشوارع، و عليه سنتطرق في هذه الدراسة إلى محتوى الاستراتجيات العربية للحد من عمل الأطفال.

Résumé : Les changements survenus au cours des deux dernies décennies ont contribué avec l'apparition de nouveaux concepts relatifs a l'épanouissement humain et aux droits de l'homme، a se pencher plus sur l'enfant et sur ses différents droits : physiques، émotionnels et moral، car ceux- ci font parties prenante des droits de l'homme. Ainsi، notre présente étude porte un intérêt primordial pour le contenu des traites classifie dans le cadre des nations unies et des différents mécanismes élaboré dans ce contexte.

تعتبر قضية العمل من القضايا المرتبطة بالوجود الإنساني فالعمل هو النشاط الدائم الـــذي يؤكد بقاء و استمرار المجتمع الإنساني و من ثم يجب أن يوزع العمل بين أفراد المجتمع في ضـــوء القدرات والاستعدادات و الإحتياجات فالعمل ليس ترفا أو نشاطا لملء وقت الفـــراغ . وإنمـــا ضرورة حتمها الوجود الإنساني ، ويصبح العمل الإنساني مشكلة إذا قام بـــه مـــن لا يملكـــون القدرات والإستعدادات. لهذا شغلت قضية عمل الأطفال مراكز البحوث و الدراسات في مختلف دول العالم لما لها من آثار متعددة مباشرة و بعيدة المدى على الأطفال . لأنها تهدد نموهم الجسمي السليم و صحتهم النفسية، و تطورهم الاجتماعي الملائم، و تعوق ارتقائهم العقلي السوي، الذي ينمي قدراتهم و مواهبهم، وينحو بها نحو النمو الطبيعي من خلال التعليم و التثقيف المناســـبين،

ناهيك عن تعرضهم بصورة أو بأخرى ، لظروف العمل القاسية التي تعرضهم في أغلب الأحيان لبعض أشكال الاستغلال أو القسوة أو سوء المعاملة، أو الانتهاك البدني أو النفسي، مما يحرمهم من تحقيق حاجاتهم الأساسية ، ومن توفير مستوى معيشي ملائم، أو الانتفاع بالخدمات التي يوفرها المجتمع لأقرانهم ممن هم في مثل أعمارهم، و أتاحت لهم ظروفهم الاجتماعية و الاقتصادية فرصة الحياة بشكل ملائم، و توفير قدر أفضل من الرعاية الأسرية و المجتمعية .

و ليس خافيا على واضعي السياسات و صانعي القرارات و منفذيها التصور المستقبلي لهذه الفئات المحرومة من مختلف أوجه الرعاية إذا لم توضع إستراتجية تعمل على مكافحة الظاهرة و درء سلبياتها. كما تضع في اعتبارها رعاية الأطفال الذين اندرجوا فعلا في مجال العمل.

فتعمل على تعليمهم و تدريبهم و تحقيق متطلباتهم الأساسية، و سد احتياجاتهم الضرورية، و التخفيف من الآثار السلبية للعمل على حياتهم في الحاضر و المستقبل(1) و من الأمور الملحة التي يستوجب القيام بها صياغة إستراتجية عربية شاملة تهدف إلى العمل على وضع حد لانتشار مشكلة عمل الأطفال التي تتزايد يوم بعد يوم، بشكل يدعو إلى القلق على مستقبل أطفال حرموا من مختلف أوجه الرعاية الاجتماعية و الصحية و التربوية الملائمة، فإهمال التنمية المبكرة للأطفال يكلف ثمنا اجتماعيا باهظا، كما يؤدي إلى هدر الموارد البشرية التي يجدر رعايتها من اجل ضمان مستقبل أفضل، و القضاء على أشكال الحرمان كافة، التي لا تنعكس أثارها على الطفل وحده بل على أسرته و على المجتمع بأسره.

الحاجة إلى إستراتجية عربية موحدة:

على الرغم من إيماننا الكامل، بان مشكلة عمل الأطفال لا تنتشر في الأقطار العربية كافة، بل يختلف انتشارها، كلما كان القطر العربي اقل تقدما و أكثر فقرا، إلا أن الأمر يقتضي وضع إستراتجية عربية موحدة يلتزم بها كل قطر عربي على أن تنفذ تبعا لحاجاته و مقتضياته.

تعد مشكلة عمل الأطفال على المستوى العربي مشكلة واجبة الرعاية و يقتضي ذلك دعم إمكانات المنظمات و المجالس و المؤسسات العربية العاملة في مجال الطفولة، و استحداث أخرى جديدة، على أساس من التكامل العربي، و العمل على زيادة مواردها الموجهة إلى الأطفال في ظروف صعبة، خاصة الذين يتعرضون للاستغلال الاقتصادي و إعادة هيكلة مشاريعها التنموية، للتركيز على التنمية البشرية في المراحل العمرية المبكرة،و توجيه قدر من المخصصات المالية إلى

البرامج و المشروعات، التي تعمل على رفع المستوى الاقتصادي و الاجتماعي للأسر المحرومة، خاصة الأسر الأكثر تعرضا للنتائج السلبية الناجمة عن المتغيرات الاقتصادية و الهيكلية في برامج الإصلاح الاقتصادي (2)

و في ذلك يجدر تبني خطة عربية عامة، لرعاية الطفولة و حمايتها و تنميتها، و إعداد دليل عمل تترسمه الدول العربية في إعداد خططا، وفق ظروفها و إمكاناتها، يهتدي به العمل العربي المشترك و يسعى من خلاله إلى تغطية دور التعاون الدولي لمصلحة الأطفال العرب عبر تنفيذ الخطط الوطنية و القومية.

التدرج في حل مشكلة عمل الأطفال:

لعل من قبيل الإفراط في التفاؤل و الإمعان في عدم الواقعية، تصور وجود حل شامل و فوري لمشكل عمل الأطفال، لذا فان الاستراتجيات الوطنية النموذجية تلتزم بالعمل لبلوغ هدفين مترابطين:

الأول : حماية الطفل من العمل.

الثاني: حماية الطفل في العمل.(3)

و يعمل الهدف الأول في إطار التصدي لمكافحة عمل الأطفال على المستوى البعيد، الذي يسعى إلى اقتلاع المشكلة من جذورها و القضاء عليها نهائيا، من خلال سياسات عامة طويلة الأمد يخطط لها من الآن، إلا أن ذلك الهدف يتطلب وقتا و جهدا، حيث أن التغير الاجتماعي في مجتمع من المجتمعات، لا يأتي هكذا دفعة واحدة و لكنه يحتاج إلى التحلي بالمثابرة و إلى زمن طويل لتحقيقه إلا أن تركيز الاهتمام على تحقيق الهدف الأول(القضاء تماما على عمل الأطفال)، ووضع البرامج الزمنية لبلوغ هذا الهدف، قد يتجاهل الهدف الثاني الذي لا يقل عنه أهمية في مرحلة بلوغ الهدف الأول، ذلك أن حماية الطفل في العمل هو هدف أساسي و ممهد لهدف إلغاء عمل الأطفال شريطة أن لا يؤدي التحمس لحماية الطفل في العمل والى ترسيخ هذا المبدأ و إغفال المبدأ الأساسي بعيد الأمد و هو القضاء على عمل الأطفال (4)

و لما كان القضاء الفعلي على عمل الأطفال في الأجل القصير يعتبر أمل عزيز و لكنه بعيد المنال، فان الحقيقة التي تفرض نفسها، إن الملايين من الأطفال سيظلون يعملون، و من ثم فانه من الإنصاف أن يعمل هؤلاء في ظروف إنسانية، لا يشوبها الاستغلال أو التعسف، و في هذا الصدد

فمن الضروري توجيه اهتمام جاد بالالتزام بحصول هؤلاء الأطفال على أجر عادل و منصف و حماية هذا الأجر، و التأكد من التزام أصحاب الأعمال بقواعد تحديد ساعات العمل اليومية و الأسبوعية، و عدم السماح بالعمل الإضافي أو التشجيع عليه، بالنسبة إلى الأطفال و منح راحة لا تقل عن عدد محدد من الساعات و مراعاة أيام الراحة الأسبوعية و السنوية، و ضمان تغطية الضمان الاجتماعي، بما في ذلك إعانات إصابات العمل، و الالتزام بالرعاية الصحية و الاجتماعية و حظر الإساءة إلى الطفل جسديا و نفسيا.

النظر إلى مشكلة عمل الأطفال في إطار السياق الاجتماعي و الاقتصادي:

إن ظاهرة عمل الأطفال، إنما هي ظاهرة ترتبط بالتنمية، و بدون التنمية الحقيقية لن يسهل القضاء عليها و مكافحتها، و تؤكد المؤشرات أن التطورات الاجتماعية و الاقتصادية التي حدثت في المجتمع العربي في الفترة الأخيرة قد ساعدت على انتشار الظاهرة، و جعلت من القضاء عليها أمرا صعب المنال (5)، و من المتوقع أن تظل على حالها، بل قد تتزايد مع الوقت، إذا لم يوضع في الاعتبار النظر إليها في إطار السياق الاجتماعي الاقتصادي العام الذي افرز تلك الظاهرة و دعمها، من هنا فليس غريبا أن يسهم هذا النظام في استمرارها و استفحالها، لأنها نتاج له، فمن الصعوبة فصل استغلال عمل الأطفال عن واقع التخلف الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي، الذي تعاني منه الدول التي ينتشر فيها عمل الأطفال، فهي ظاهرة تجمع تناقضات التخلف و الفقر و تدني مستوى المعيشة، و هي تزيد في ذات الوقت من الظلم الذي تعاني منه فئة أفقر الفقراء التي تدفع أبنائها قسرا إلى العمل، من هنا يجدر أن نضع في اعتبارنا، إن مكافحة الفقر و بناء أسس جيدة للتنمية الشاملة، سيكون من شانه أن يسهم إلى حد بعيد في القضاء الفعلي على ظاهرة عمل الأطفال، إلا أن التذرع بضرورة إيجاد حلول ملائمة للمشكلات الاقتصادية و الاجتماعية كمدخل أساسي خطوة لا غنى عنها لحل مشكلة عمل الأطفال، يعد أمرا من قبيل التهرب من المسؤولية أو تأجيلها مما يؤدي مع الوقت إلى مضاعفة الآثار السلبية المترتبة على استغلال الأطفال في العمل، و يقضي المنطق السليم بذل جهود مكثفة لحل المشكلات الاقتصادية و الاجتماعية في خط موازي للجهود الواجب بذلها للقضاء على الظاهرة.(6)

ليس هناك من شك في ارتباط ظاهرة عمل الأطفال بتدني مستوى الأسرة الاقتصادي الاجتماعي، فقد أشارت البحوث التي أجريت في هذا الصدد إلى أن انخفاض دخل الأسرة، يعد

أحد العوامل المباشرة التي تدفع الأسرة إلى تشغيل أبنائها من اجل رفع مستوى دخلها و في إطار الارتفاع المستمر في الأسعار الذي أدى إلى نزول عدد أكبر من الأسر إلى خط الفقر أو دونه، فمن المتوقع أن تستمر مشكلة عمل الأطفال على حالها، بل قد تتفاقم مع الوقت، إذا لم تنجح غالبية البلدان و منها الجزائر في وقف الارتفاع المستمر في الأسعار، و بالتالي تدني مستوى معيشة نسبة اكبر من الأسر ليس فقط الأسر التي تنتمي إلى فئات الدخل الدنيا، بل كذلك التي تنتمي إلى فئات الدخل المتوسط

و قد تناولت بعض الدراسات الاقتصادية تحديد الفئات الأكثر تعرضا للفقر، ومن بينها المتعطلون، وأصحاب المعاشات، و مستحقوا الضمان الاجتماعي و العمال الزراعيون الذين لا يملكون أرضا، و صغار الموظفين، و بعض العاملين في القطاع العام، غير الرسمي و هي تلك الفئات التي تنتشر فيها مشكلة عمل الأطفال و لعل هذه الفئات هي الفئات الأولى بالرعاية و التي يجب أن توجه إليها الجهود الرامية إلى مكافحة الفقر، فاستمرار الفقر يعني استمرار التحاق مزيد من الأطفال بمجال العمل.

و هناك مداخل ثلاثة لمكافحة الفقر يمكن تحديدها، بعضها قصير الأجل، يعالج المشكلة الآنية و بعضها طويل الأجل يمكن أن يثمر مع الوقت في التقليل من ظاهرة الفقر.

فمدخل الرفاهية الاقتصادية، مدخل قصير الأجل، يعتمد على تقديم الدعم المباشر أو غير المباشر للفئات الفقيرة.

كما أن هناك مدخلا أخر لمكافحة الفقر، و هو رأس المال البشري، و أدواته الأساسية هي تعميم الخدمات الصحية المجانية مع العمل على تركيز الموارد في صالح الصحة الوقائية، و تحسين الخدمات في وحدات رعاية الأمومة و الطفولة، و التوسع في نظام التأمين الصحي لكي يشمل أفراد الأسرة المؤمن عليها كافة، و الاهتمام ببرامج مكافحة الأوبئة و سوء التغذية. (7)

و لا تقل الخدمات التعليمية أهمية عن الخدمات الصحية،حيث يجدر في مجال التعليم إلغاء المصاريف المباشرة و غير المباشرة كافة و تقديم إعانات للأسر التي لا يتمكن أبنائها من استكمال تعليمهم الأساسي، و تحسين نوعيته، و إعادة توزيع الموارد المالية لصالح هذا النوع من التعليم.

و يعد المدخل الاقتصادي مدخلا ثالثا لمكافحة الفقر، ويتبنى هذا المدخل أهمية العمل على توفير فرص للتدريب التحويلي، لإعادة و تدريب توزيع العمالة، كما أن التوسع في المشروعات الصغيرة يعتبر من انجح الإجراءات للحد من الظاهرة.

الإجراءات الواجب اتخاذها للحد من ظاهرة عمل الأطفال:

تم تحديد العوامل التي تمثل السبب المباشر لعمل الأطفال، و هي انخفاض المستوى الاقتصادي للأسر، الفشل في التعليم، الرغبة في تعلم حرفة و الظروف الاجتماعية ، و تفاقم هذه المشكلات سوف يؤدي إلى زيادة أعداد الأطفال العاملين، إذا لم توضع سياسات تعمل على التصدي لها من خلال سياسة وقائية تركز على علاج المشكلة من جذورها، حتى يتم على المستوى البعيد القضاء على الظاهرة، و العمل على سياسة علاجية تعمل على مواجهة المشكلات المترتبة على اندراج أعداد كبيرة من الأطفال في مجال العمل.

تركيز الاهتمام حول فئات الأطفال الأولى بالرعاية :

بغض النظر عن مستوى التنمية لأية دولة فانه ينبغي إعطاء أولوية قصوى لحماية فئتين من الأطفال العاملين هما:

أ-الأطفال العاملون في الأنشطة الخطرة.

ب- الأطفال الأصغر سنا

يعتبر الأطفال الأصغر سنا الأكثر تعرضا للمخاطر، و بمعنى أكثر تحديدا الأطفال العاملون تحت سن 12 سنة، و التي تحظر جميع التشريعات العربية التحاقهم بالعمل.

و يقتضي ذلك تحديد الأعمال ذات الخطورة عليهم ، سواء كان ذلك في مجال الزراعة أو في مجال الصناعات المقامة في المدن، و حماية الأطفال من العمل فيها، و هنا يجدر التركيز على حماية الأطفال الأصغر سنا لأنهما الأكثر تعرضا للمخاطر، و يمكن تحقيق ذلك بالتشديد على التحاقهم بالتعليم الأساسي حتى سن12 أو 13 سنة و يكون الفقر-أحيانا- هو العامل المؤدي إلى التغاضي عن عمل الأطفال في سن مبكرة، و في أعمال خطرة، إلا أن ذلك يجب أن لا يكون ذريعة للإحجام عن بذل أي جهود في علاج المشكلة.

حيث أن، هناك بعض الحالات السافرة و التعسفية، التي يتعين عدم التغاضي عنها، و هي أعمال يجدر إعطائها أولوية، من حيث القضاء عليها إذا توفرت الإرادة السياسية لذلك.(8)

إشراك الأطراف المعنية في علاج المشكلة:

لا يمكن للحكومات أن تقوم- بمفردها – بمكافحة عمل الأطفال و تقوم على عاتقها مسؤولية الإشراف العام، ووضع التشريعات و تنفيذ القوانين و مراقبة عمليات التفتيش و غيرها من الجهود الكبرى و لكن من المهم قيام نوع من التعاون الفعال بين الحكومات و المنظمات غير الحكومية، و أصحاب الأعمال و المنظمات العمالية، فهناك مسؤولية تقع على عاتق المجتمع المدني في علاج الظاهرة، إذا أتيحت له مساحة أوسع من الحرية لتنظيم المنظمات غير الحكومية، ويتم ذلك تحت إشراف الدولة، التي يجب أن يتمثل دورها في تشجيع الجمعيات، ورفع القيود عنها، مع الاهتمام بتدريب أفرادها التدريب المناسب على القيام بأنشطة اقتصادية، تعمل على زيادة مواردها مع الاهتمام بدور العاملين فيها و حثهم على تنشيط العمل التطوعي .

أما أصحاب الأعمال و المنظمات العالمية فيمثلون احد المصادر المهمة في مكافحة ظاهرة عمل الأطفال، نظرا إلى إلمامهم بتنفيذ القرارات و القوانين المنظمة لعمل الأطفال، وتحديد الظروف التي يعمل فيها الأطفال، كما أن دور أصحاب الأعمال دور لا يمكن إغفاله بصفتهم يستخدمون الأطفال في أعمالهم و يملكون إذا توفر لديهم الفهم الواعي بالمشكلة- العمل على الاشتراك في التصدي لها و مكافحتها (9)

برامج التنفيذ:

إن التصور لوضع السياسات لا بد أن يعقبه تصور لتنفيذها، من خلال برامج تعد لهذا الهدف، و في مجال عمل الأطفال، لا بد من توفر برامج للتعليم و التدريب، و توفير الرعاية الاجتماعية، و مشروعات العمل، الأمن و التوعية العامة بالمشكلة و القواعد التنظيمية لتنفيذها.(10)

و يتطلب تنفيذ هذه البرامج تكاثف الوزارات المسؤولة في الأقطار العربية المختلفة مثل وزارة العمل، و التعليم و الشؤون الاجتماعية و الصحية لوضع آلية فعالة للتعاون و التنسيق فيما بينها، بحيث يكون كل منها مسؤول عما يخصه، في إطار خطة شاملة تعد لهذا الغرض،على أن يتم ذلك بالتعاون مع أطراف المجتمع المدني كافة، خاصة المنظمات غير الحكومية من جهة و أصحاب الأعمال و المنظمات العالمية من جهة أخرى.

التمويل:

يمثل التمويل عنصرا مهما في تنفيذ الاستراتجيات، فصياغة إستراتجية بدون وضع في الاعتبار الموارد المالية، التي يستعان بها في تنفيذها، أمر لا يمكن تصوره و في هذا الصدد، يقترح إنشاء صـــندوق عربي لمكافحة ظاهرة عمل الأطفال على المدى البعيد وتنفيذ البرامج الخاصة برعاية الأطفال الذين اندرجوا في مجال العمل، و يتولى المجلس العربي للطفولة و التنمية دراسة كيفية تكوينه و أسلوب عمله و توجيهه.(11)

متابعة التنفيذ:

إن نجاح تحقيق بنود الإستراتجية المقترحة، إنما يعتمد على حسن متابعتها على المستوى الـــوطني و القومي، و يتطلب ذلك مجموعة من الخطوات المهمة لعل من أهمها:

1- إنشاء آليات متابعة داخل كل قطر عربي، تتابع مدى الالتزام بالأهداف الموضوعية و السير نحو تنفيذها.

2- إنشاء لجنة دائمة تحت مظلة المجلس العربي للطفولة و التنمية تضم الجهات المعنيـــة بعمـــل الأطفال لمتابعة التنفيذ.

3- عقد اجتماعات دورية للجنة المشار إليها أنفا (12)

السياسات الفرعية:

إذا كنت الاستراتجيات العامة المشار إليها أنفا، تمثل الخطوة العريضة التي يجدر وضعها في الاعتبار لعلاج مشكلة عمل الأطفال ، فإن للسياسات الفرعية دور أساسي في معالجة جوانب المشكلة كافة و هو أمر يعد ذا أهمية نظرا لتعدد جوانبها و تشابك أطرافها هذا مع الوضع في الاعتبار أن تأتي تلك السياسات في إطار من التكامل بين الجوانب المختلفة من ناحية، مع الالتزام بـــالخطوط العريضة للإستراتجية العامة من ناحية أخرى. (13)

و تتضمن السياسة الفرعية النقاط التالية:

1- توفير قاعدة بيانات عن عمل الأطفال:

يتطلب صياغة الاستراتجيات و رسم السياسات، التعرف- بادئ ذي بدء- على حجـــم ظاهرة عمل الأطفال، على مستوى البلدان العربية، و مما يؤسف له عدم توفر الإحصائيات الدقيقة

عن الدول العربية، الأمر الذي يسمح بتحديد حجم الظاهرة، فيما عدا بعض الدول التي تملك جانبا من هذه الإحصائيات، و يعد المصدر المتاح- في هذا الصدد- هو إحصائيات العمل الصادرة عن مكتب العمل الدولي، الذي لا يتعامل مع المنطقة العربية ككتلة جغرافية واحدة، و لكن ضمن بقية القارات. (14)

و يرجع عدم توفر الإحصائيات الدقيقة، حول تلك المشكلة إلى عدم الاستقرار على مفهوم محدد للطفل العامل، مما يعطي تقديرات غير واقعية لأعداد الأطفال العاملين، كما أن المسوحات المختلفة (تعداد السكان- مسوحات المنازل- مسوحات القوى العاملة) غير مصممة لتقصي الأطفال العاملين كافة، و تحديد أحجامهم بدقة، و بالتالي فهي لا تعالج بعض جوانب الظاهرة، كالأطفال الذين يعملون عند ذويهم دون اجر، أو الذين يعملون أعمالا هامشية، و نوع الأعمال التي يعمل فيها هؤلاء الأطفال، و الأجور التي يتقاضونها، و طبيعتها أو الوقت المستغرق فيها. (15)

كذلك الاختلافات العمرية الواردة في الإحصائيات لا تبدأ عند مرحلة محددة، و تنتهي عند مرحلة أخرى ، و يعمل اختلافها على إضافة فئات ليس من المفروض إضافتها، أو حذف أخرى، يجدر وضعها في الاعتبار، هذا علاوة على وجود تضارب ملحوظ بين التقديرات الإحصائية المتوفرة لدى الجهات المختلفة ، ووجود تفاوت فيما بينها، و يؤدي كل ذلك إلى تقديم صورة غير دقيقة عن حجم الأطفال العاملين على مستوى المنطقة العربية و يختلف حجم الظاهرة من دولة عربية إلى أخرى تبعا لمستواها الاقتصادي و طبيعة المشكلات التي يواجهها، و درجة المشقة التي يعاني منها هؤلاء الأطفال الناشئة عن طبيعة الأعمال التي يعملون فيها، يضاف إلى نقص الإحصائيات و البيانات نقص واضح في الجهود البحثية التي أجريت حول الظاهرة. (16)

2 – الرعاية الصحية:

لا تعطينا نتائج البحوث و الدراسات التي أجريت في مجال عمل الأطفال تحت السن القانونية، دلالات واضحة أو مؤشرات يمكن الركون إليها في صياغة سياسة صحية، تعمل على حماية الأطفال و رعايتهم فغالبية الدراسات التي أجريت في هذا الصدد، جاء تركيزها على العوامل الاجتماعية و الاقتصادية و التشريعية مع إغفال شبه كامل للجانب الصحي.

و تبدو الصحة المهنية في جوهرها عاملا رئيسيا في ظاهرة عمل الأطفال و تشير الدراسات القليلة التي تناولت هذا الجانب، إلى أن هناك مخاطر طبيعية يتعرض لها العاملون تتمثل في الضوضاء العالية و الحرارة الشديدة الناشئة عن العمل في الموقع الذي يعمل فيه الطفل،هذا بالإضافة إلى المخاطر الميكانيكية الناجمة عن التعامل غير الواعي مع الآلات و الأدوات و الأجهزة الصناعية، مع عدم استخدام وسائل واقية من هذه المخاطر،هذا علاوة على الأتربة و الغبار، الذي يصاحب صناعات معينة كصناعات الغزل و النسيج و الاسمنت، التي قد يؤدي التعرض لها إلى أمراض تصيب الجهاز التنفسي ، و تؤدي إلى التحجر الرئوي و الحساسية الصدرية و غيرها من الأمراض.

و لا يخلوا العمل في المجال الزراعي من التعرض لمخاطر في بيئة العمل تصيب صحة الأطفال العاملين و تؤثر عليهم سلبا، بما يصعب معالجته مع الوقت، فبالإضافة إلى مخاطر الميكنة، هناك المخاطر التي تنشا عن التعرض للمواد الكيماوية السامة، و استخدام المبيدات الحشرية التي تؤثر على صحة الأطفال، بسبب قلة الخبرة و نقص التدريب و عدم استعمال وسائل الوقاية المناسبة. (17)

و يزيد الأمر خطورة ما توصلت إليه بعض الدراسات التي تناولت اثر العمل على الجوانب الصحية للأطفال، وتوصلت إلى أن نسبة عالية من الأطفال العاملين يعملون تحت سن 12 عاما، و أنهم يعملون لساعات طويلة، تتراوح ما بين سبع ساعات، و اثني عشرة ساعة يوميا(7-12 ساعة) في بيئة عمل متدنية، كعدم توفر مياه الشرب النقية، و ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها إلى درجة كبيرة، و سوء التهوية، و غياب وسائل الوقاية من مخاطر العمل، ناهيك عن سوء التغذية التي يعاني منها هؤلاء الأطفال الذين لا يحصلون على تغذية مناسبة، أو الذين يتناولون أغذية فاسدة أو ملوثة، مما يؤثر سلبا على حالتهم الصحية و على نموهم الجسمي السليم،حيث أشارت دراسة قام بها "هارد" عن عمل الأطفال أن الفقر و المرض من أهم أسباب إنتشار الظاهرة، خاصة إذا إرتبط ذلك بإنخفاض المستوى التعليمي للوالدين و توافر الأعمال الغير مناسبة من الناحية الصحية على الأطفال و يؤكد "هارد"، على ضرورة توجيه جهود إجتماعية سياسية لمواجهتها، لأن لها أثار سلبية على الطفل و المجتمع بحد سواء و خصوصا على الصحة النفسية و الجسمية للطفل الذي لا يتلقى التكفل الصحي المناسب سواء كان في المستشفيات
و المستوصفات المجانية التي يذهبون إليها، كما لا يتكفل أصحاب الأعمال بالرعاية الصحية إلا بالنسبة إلى حالات نادرة.(18)

كما أنهم لا يتمتعون بالتامين الصحي اللازم حين يتعرضون لإصابات قـــي العمـــل، لكـــونهم يعملون دون السن القانونية، هذا على الرغم من حاجتهم الماسة إلى الرعاية الصحية أكثر مـــن زملائهم الأكبر سنا، لأنهم يحتاجون خلال فترة نموهم إلى رعاية لا تتوفر لهم و لأنهم أكثر عرضة للإصابات المهنية، بسبب قلة خبرتهم و نقص تدريبهم ، و قلة قدرتهم على التركيز.

و مع حاجة هؤلاء الأطفال الشديدة إلى الرعاية الصحية إلا أنهم لا يجدون أي نوع منها في ظل القوانين و التشريعات و الإمكانات المتاحة حاليا.(19)

و لما كانت هناك صعوبة في كفالة رعاية طبية ملائمة لهؤلاء الأطفال من خلال التامين الصحي الشامل، حيث انه غير متحقق حاليا على جميع الفئات في المجتمعات العربية، كما أن التأمينـــات الصحية المتاحة من خلال قوانين التامين الاجتماعي للعاملين، لا توفر الرعاية الصحية الواجبة لهذه الفئة، من هنا كانت مشكلة عمل الأطفال من جانبها الصحي تحتاج إلى رسم سياسة خاصة تحقق الرعاية الصحية لهؤلاء الأطفال ، على أن تطبق هذه السياسة على مستويين، احـــدهما سياســـة علاجية قصيرة الأجل، تعمل على حماية الطفل صحيا، داخل بيئة العمل، حتى يتم القضاء مـــع الوقت على تلك الظاهرة.

أ-السياسة الوقائية طويلة الأجل:

و تقضي تلك السياسة، أن نولي اهتماما، لتنفيذ مجموعة من الاعتبارات يمكـــن تركيزهـــا في النقاط التالية:

أولا: الفاعلية في تطبيق القوانين و التشريعات التي تحمي الطفل صحيا، فمن شأن ذلك أن يقلل من تواجد الطفل في بيئة مادية غير ملائمة لسنه، و من قيامه بأعمال تشكل خطورة على صحته، و خاصة في الصناعات المنصوص عليها في تلك القوانين.

ثانيا: العمل على إجراء تعديل في أنظمة التأمين الصحي في الأقطار العربية المختلفة، حيث يأتي شاملا جميع العاملين في المنشأت ومن بينهم الأطفال العاملون، حتى و لو كـــانوا تحـــت الســـن القانونية.(20)

و اعتبارهم أفرادا يتلقون تدريبا من خلال الإنتاج ، و بالتالي يتم التامين عليهم، و بناءا علـــى ذلك يصبح من حقه الاستفادة من الخدمات العلاجية عند تعرضه للمرض أوالإصابة أثناء العمل.

ثالثا: إعداد قائمة بالأعمال الشاقة و الخطرة، التي يتعين حظر عمل الأطفال بها، قبل السن القانونية، و السعي عن طريق التوعية و الحث على اعتماد هذه القائمة و تضمينها في تشريعات العمل على المستويين القطري و العربي.

رابعا: تقييد عمل الأطفال و التأكيد على انه حالة استثنائية، لا يجوز التوسع فيها، بل العمل على درئها، مراعاة للظروف الصعبة التي يعمل فيها الطفل، و التي دفعته إلى العمل.(21)

ب- السياسة العلاجية قصيرة الأجل:

و تتمثل هذه السياسة في مواجهة الأمر الواقع، و محاولة توفير نوع من الرعاية الصحية للأطفال العاملين، دون اللجوء إلى استصدار تشريعات جديدة، و يتحقق ذلك من خلال تقديم حلول غير تقليدية توفر الرعاية الصحية للطفل العامل، لتطبيق المقترحات التالية:

أولا: إحاطة الطفل في حالة العمل بكل رعاية يحتاج إليها، و بما يحفظ له إنسانيته، و يرعى صحته و نموه، ليكون مؤهلا أن يصبح رجل الغد الذي يساهم بفعالية في حقل الإنتاج.

ثانيا: حصر الأطفال العاملين في أنشطة لا تنطوي على مشقة أو مخاطر، مع توفير عمل بديل أكثر مناسبة و مما يسهل هذا الأمرإن الاتفاقيات الدولية و بعض التشريعات القطرية العربية تحدد هذه الأنشطة و تمنع العمل بها دون سن معينة.

ثالثا: استخراج بطاقة صحية للطفل منذ ولادته، و من خلاله يتم متابعة الطفل في مختلف مراحله العمرية، سواء كان منتظما في التعليم أو تسرب منه، أو التحق بالعمل في أي مجال من المجالات.

رابعا: أن يستمر تسجيل الأطفال في مدارسهم، على الرغم من تسربهم أو عدم انتظامهم، حتى يمكن أن تقوم الصحة المدرسية بتتبع حالة الطفل الصحية، و توفير الرعاية الصحية له، سواء كان ملتحق بالمدرسة أو تركها، ما دام يقع في المرحلة العمرية الإلزامية.

خامسا: إلزام أصحاب الأعمال في الورش الصناعية و غيرها، الذين يستخدمون الأطفال في تحسين بيئة العمل، و عدم تعريض الأطفال للخطر، أو تكليفهم بأعمال فيها خطورة مباشرة أو غير مباشرة عليهم.(22)

و علاجهم من الإصابات التي تصيبهم فور حدوثها و على نفقتهم و عدم حرمان الأطفال من أجورهم، إذا تغيبوا عن العمل بسبب الإصابة أو المرض.

سادسا: من خلال صندوق خاص، يدعم من خلال وزارة التربية و التعليم و أصحاب الأعمال و المنظمات الدولية، أو بعض الجهات المعنية يمكن توفير وجبة غذائية جافة في مدارس التعليم الأساسي كعنصر جذب للأطفال و أسرهم، مما يوفر للأطفال حد ادني من التغذية الصحية السليمة، و يضمن تشجيع أولياء الأمور على إرسال أبنائهم إلى المدارس حماية لهم من العمل.

سابعا: توجيه المعنيين بالصحة العامة و طب الصناعات إلى أهمية دراسة اثر العمل في صناعات معينة على الطفل.

ثامنا: العمل على توفير الرعاية الصحية من خلال المؤسسات و الجمعيات الأهلية، خاصة الجمعيات التي تهتم برعاية الطفولة بحيث تعين على توفير الرعاية الصحية الأولية للأطفال العاملين مثل الخدمات الوقائية و علاج الإصابات و الحوادث، على أن تعمل هذه الجمعيات بالتنسيق مع الوحدات الصحية و المستشفيات الكبرى.(23)

– التوعية الإعلامية:

إيمانا بالدور الكبير الذي يؤديه الإعلام في التوعية بالظواهر الاجتماعية المختلفة، نصت اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عن الأمم المتحدة عام1979 في مادتها رقم 17 على أن تعترف الدول الأطراف بالوظيفة الهامة التي تؤديها وسائل الإعلام، و تضمن إمكان حصول الطفل على المعلومات، و المواد من شتى المصادر الوطنية و الدولية، التي تستهدف تعزيز رفاهيته الاجتماعية و الروحية و المعنوية و صحته الجسمية و العقلية، و تركز تلك المادة في بندها الأول على تشجيع وسائل الإعلام، و على نشر المعلومات و المواد ذات المنفعة الاجتماعية و الثقافية وفقا لنص المادة 39، التي تدعو الدول الأطراف إلى اتخاذ التدابير المناسبة، لتشجيع التأهيل البدني و النفسي و إعادة الاندماج الاجتماعي للطفل الذي يقع ضحية لأي شكل من أشكال المعاقبة أو المعاملة القاسية أو اللانسانية أو المهنية أو المنازعات المسلحة، و يجري هذا التأهيل و إعادة الاندماج في بيئة تعزز صحة الطفل و احترامه لذاته و كرامته.(24)

و مما يؤسف له، إن الجهود الرامية إلى علاج مشكلة عمل الأطفال لم تعطي أهمية للإعلام و هذا للتوعية بمخاطر المشكلة من اجل الحث على مكافحتها.

و من هنا يجب وضع في الاعتبار صياغة سياسة إعلامية تهدف إلى التصدي لمواجهة تلك الظاهرة، من خلال خطوات محددة يمكن إيجازها فيما يلي:

أولا: العمل على التركيز الإعلامي على مشكلة عمل الأطفال من اجل إبرازها كمشكلة سلبية يجدر مكافحتها بناء عل خطة مدروسة تعمل على إدماج تلك القضية ضمن برامج التوعية، للتعريف بإبعادها المختلفة و التركيز على المشكلات الناشئة عنها.

ثانيا: الاهتمام بالمضمون الذي يقدم من خلال التوعية الإعلامية و التنسيق بين الوسائل الإعلامية المختلفة في هذا الصدد، بحيث يتم التركيز على الأثر السيئ للعمل على الأطفال مع توضيح الآثار الاجتماعية و الصحية و النفسية و التربوية الضارة مع الاهتمام بتوعية الأسر بأهمية التعليم، و ما يعود به على صاحبه من مكانة اجتماعية، بالإضافة إلى كونه حقا من حقوق الطفل.(25)

و إلى أهمية الحفاظ على حياة الطفل و صحته و مستقبله و نموه نموا سليما بعيدا عن مواطن الخطر، مع تبصير الأسر بالفارق الكبير بين عمل خفيف لا يسبب ضررا بالغا بالطفل، قد يتم مع عدم حرمانه من فرص التعليم و التدريب المهني الملائم و عمل يتضمن استغلال بالغا له في نواحي حياته المختلفة.

ثالثا: عند التوعية بمشكلة عمل الأطفال لا بد من مراعاة أن الخطاب الموجه يجب أن يتناول فئات مختلفة يراعي تباينها و اختلافها، و بالتالي تباين الخطاب الموجه إليها و هذه الفئات هي:(26)

أ- المجتمع ذاته الذي يجب إن يوجه إلى الارتقاء بنظرته إلى الطفل بوصفه الشخص الأولى بالرعاية، و التركيز على احتياجاته الأساسية و حقه في الحياة، و في أن يحيا حياة كريمة و أن يتمتع بالحقوق التي تدعو إليها المواثيق و الاتفاقيات الدولية.

ب-أسرة الطفل العامل الذي يعد أمانة في عنقي والديه، أو المسؤولين عنه و الذي يجب أن يتضمن الخطاب الموجه إليهم كيفية رعاية الطفل و حمايته من مخاطر العمل مع الحث على أهمية تعليم و رعاية الطفل، الذي لم يخرج بعد إلى مجال العمل، حتى يجد فرصته الحقيقية في التعليم و نمو القدرات.

ت-أصحاب الأعمال الذين يتعامل معهم الطفل بصفة أساسية و مباشرة بهدف توعيتهم بحقوق الطفل، و إقناعهم بتحسين بيئة العمل، و عدم تعريض الأطفال للخطر أو تكليفهم بأعمال تتضمن خطورة مباشرة أو غير مباشرة.

ث-الأطفال العاملون أنفسهم الذين يجب أن تعمل وسائل الإعلام على وضع برامج تهدف إلى محو أميتهم، و تزويدهم ببعض المعارف و المعلومات التي تعينهم على فهم الحياة، و التكيف معها، و ذلك كبديل مطروح للتعليم الأساسي الذي افتقدوه و افتقدوا معه الكثير من الفهم و المعرفة، كذلك يجب أن يكون مستهدفا الترويح و الترفيه عن الطفل، من خـــلال الوســـائل الإعلاميـــة كافة.(27)

حيث انه أمر مطلوب في مرحلة الطفولة، خاصة بالنسبة إلى من حرموا منه، نتيجة انخراطهم في مجال العمل.

قـــائمـــة المراجع:

1- احمد عبد الله:الأطفال الكادحون،ظاهرة عمل الأطفال، دار الطباعة المصرية،1989، ص .20

2- تنظيم تشغيل الأحداث تشريعيا، ورقة مقدمة لندوة عمالة الأطفال، المركز القومي للبحوث الاجتماعيـــة و الجنائية، جويلية،1999، ص .93

3- نفس المرجع، ص ص 87-88 .

4- سالم حمد:الاتفاقيات الدولية لحماية الأطفال، القاهرة، دار ماجدة، 2010، ص .72

5- بتيس هول: التطور التاريخي لحقوق الطفل خلال القرن العشرين، تر:لينا عوض، بيروت، المكتبة الجامعيـــة، 2009، ص .42

6- نفس المرجع،ص ص 53-.55

7- رزاق حمد عوادي: حقوق الطفل في الاتفاقيات و المواثيق الدولية، المجلة الأسيوية، العدد 19، 2009، ص 30 .

8- خليل غسان: حقوق الطفل: التطور التاريخي منذ بدايات القرن العشرين، بيروت، طباعة شمالي اند شمـــالي، 2000، ص.60

9- نفس المرجع، ص61 .

10- عادل عازر و آخرون : ظاهرة عمالة الأطفال، القـــاهرة، المركـــز القـــومي للبحـــوث الإجتماعيـــة و الجنائية،1995،ص33.

11- د.باقر سلمان النجار: عمل الأطفال: دراسة في المحددات الإجتماعية الإقتصادية لعمالة الأطفال في البحرين، المجلس العربي للطفولة و التنمية، العدد 12، 2003، ص14.

12- متولي عنيمة: التربية و العمل و حتمية تطوير سوق العمالة العربية، القاهرة، الدار اللبنانية المصـــرية، ط2، 1998، ص42 .

13- خالد سليم، سومن مرقة: أضواء على ظاهرة عمالة الأطفال، مجلة عالم الفكر، المجلس الـــوطني للثقافـــة و الفنون و الآداب، الكويت، 2002 ،ص136 .

14- محمد نجيب: الحماية الدولية لحقوق الطفل، القاهرة، دار النهضة العربية،2005، ص170 .

15- بتيس هول: مرجع سبق ذكره، ص67.

16- هدى محمد قناوي، محمد علي قريش: حقوق الطفل بين المنظور الإسلامي و المواثيق الدوليـــة، القـــاهرة، مكتبة الانجلو مصرية،1998، ص14 .

17- نبيل سليم علي: الطفولة و مسؤولية بناء المستقبل، قطر، وزارة الأوقاف و الشؤون الإســـلامية،2006، ص12 .

18- المجلس القومي للطفولة و الأمومة: تقرير عن اتفاقية حقوق الطفل،2006، ص ص63-64 .

19- محمد نجيب: مرجع سبق ذكره، ص.176

20- المجلس القومي للطفولة و الأمومة، تقرير عن اتفاقية حقوق الطفل، 2006، ص ص63-.64

21- حامد عمار: التنمية البشرية في الوطن العربي، القاهرة، سينا البشرية للنشر، 2004، ص.11
22- نبيلة إسماعيل رسلان: حقوق الطفل في القوانين الدولية، القاهرة، الخلود للطباعة ،2002، ص250 .
23- عادل عازر، ناهد رمزي: عمالة الأطفال، نحو سياسة متكاملة لعلاج الظاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية و الجنائية، القاهرة،2005، ص.25
24- المجلس القومي للطفولة و الأمومة،مرجع سبق ذكره، ص70 .
25- موالفي سامية: حماية حقوق الطفل في التشريع الجزائري،(على ضوء الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل سنة1989)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، كلية الحقوق و العلوم الإدارية،2002، ص134 .
26- خليل غسان:حقوق الطفل(التطور التاريخي)منذ بدايات القرن العشرين، الشمالي اند شمالي، بيروت، 2000،
27- هدى محمد قناوي، محمد علي قريش: مرجع سبق ذكره، ص169